
ديمة الشكر
أين اسمي؟
رواية
دار الآداب

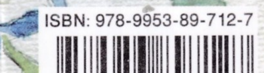
القرن التاسع عشر. الحكاية تكتبها قمُّور، الشابّةُ السوريّة التي عملتْ خادمةً في منزل القنصل البريطانيّ، ريتشارد فرنسيس بورتون، مُترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنكليزيّة. علاقةُ العمل بين قمُّور وريتشارد وزوجته إيزابيل تقود الخادمةَ إلى السفر والإقامةِ في لندن وتريستته. يسمح هذا السفر لقمُّور بأن تكتشف صوتَها في مهمّتيْن جديدتيْن: النسخ والتدوين. ولئن كانت الأولى واضحةً، فإنّ الثانية غامضة، ودونها جرحٌ شخصيٌّ لقمّور، وجرحٌ أكبر لمدينتها دمشق بعد مذبحة عام 1860. فالقنصل البريطانيّ يوكلها بجمع قصص المذبحة. إلّا أنّ الكتاب يصدر خاليًا من اسم مؤلِّفته.

تجريدُ المرأة من اسمها هو سؤال الرواية. وقمُّور تشبه مدينتَها والكثيرَ من المدن العربيَّة التي يحاول المستشرقون والرحّالةُ والقناصلُ الاستحواذ على تراثها وهويَّتها.

ديمة الشكر ناقدة ومترجمة سوريَّة، تكتب في الصحافة الثقافيَّة العربيَّة. صدر لها عدَّة كتب في النقد والترجمة.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN: 978-9953-89-712-7



دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف: 795135-1861633+961

ديمة الشكر

أين اسمي؟

دار الآداب - بيروت

أين اسمي؟

ديمة الشكر/كاتبة سوريَّة

الطبعة الأولى عام 2021

ISBN 978-9953-89-712-7



دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

إلى مدرسة الرِّعاية الخاصَّة ـ بيت أنطون شاميِّة في باب توما بدمشق.

دمشق لا روما هي الجديرة بلقب المدينة الأبديَّة.

ريتشارد فرانسيس بورتون

قمُور

وضعتني أمّي لصق البحرة أنا وسلحفاتي الصَّغيرة، غطَّستها في الماء كي تخرج من جسمها الصَّلب وتبترد قليلًا، لكنَّها لم تخرج، ربَّما لأنَّ أثر الشمس الحادَّ لم يخبُ إلَّا قليلًا. وضعتها على الرخامة الواطئة أسفل البحرة، ولم أرها بعد ذلك، ولا رأيت أمّي. أتذكَّر ثوبها وصوتها من دون وجهها ولا الكلمات. ثوبها أزرق سماويٌّ مثل قعر البحرة وحوافها الداخليَّة، وأزرق مثل الفخَّار الصقيل المعلَّق على جدار الإيوان، وأزرق مثل السماء التي نظرتها من نافذة غرفة جدَّتي هيلانة المطلَّة على أرض الديار.

أتذكَّر صوت أمّي بين العويل والهمس من دون كلمات. ثلاثة حروفٍ تطير في الهواء: حاءٌ وهاءٌ وألف. خبطٌ وارتطامٌ وتكسيرٌ وحفيف الثوب، ثمَّ صوت تمزُّقِه. هل وقعَت وشجَّ رأسها على حافَّة الإيوان الرخاميَّة أم على حافَّة البحرة حيث تركتُ سلحفاتي؟

كانت أمّي مرميةً في أرض الديار وراء حوض شجرة الليمون، ولحسن حظّي التفَّ نبات اللبلاب على ساق الليمونة فلم أرَ أمّي كلَّها، بل رأيت نصفها، ساقيها فحسب، لا وجهها لا رقبتها لا صدرها. ورأيت نصف ثوبها الأزرق وقدميْها.

لم تدُم نظرتي عبر النافذة، ربَّما ثانيتيْن أو ثلاث، فقد وضع عمِّي الصَّغير سمير يديْه على عينيَّ، وشدَّني إلى الخلف، لأنضمَّ إلى أخويَّ الكبير حنًّا والصغير نخلة، ونندحش أربعتنا تحت سرير الجدَّة هيلانة.

تحت السرير كانت الأرض مبتلَّةً، وعرفتُ من الرائحة القويَّة أنَّ أخويَّ خائفان وألَّا ضير إن خفتُ أنا أيضًا، فتخفَّفتُ من ضغط البول وبلَّلتُ الأرض مثلما فعل حنًّا ونخلة. لم أبكِ، فقد كان عليَّ ألَّا أصدر أيَّ صوت. بالإشارة، فهمتُ من عمِّي الصَّغير ألَّا أفعل. كوَّر عمِّي شفتيْه ووضع سبَّابته أمامهما. لم يقل «هش» لكنَّني فهمت. زحف عمِّي الصَّغير ناحيتي وضمَّني، وبدا كما لو أنَّ قلبه انفطر من أجلي، عرفتُ ذلك من نظرته الحانية التي أحفظها عن ظهر قلب. في كلِّ مرَّةٍ اضطربت أو جاءت سيرةٌ ما وطوَّحتني، لمعت نظرة عمِّي الحانيَة في خاطري. أغمضت عيني ونمت على الأرض المبلَّلة لصق عمِّي وأخويَّ حنًّا ونخلة.

أيقظتنا ضجَّةٌ في البيت، انفتح باب الغرفة ودخلت جدَّتي هيلانة. رأيت قدميْها السمينتيْن، رفعتْ الشرشف النازل من السرير فدخل الضوء إلى عيني، أرادت أن تقول شيئًا حين التقت نظرتها بنظرتي. تكلَّمت من دون كلمات، مثل أمِّي: حاءٌ وهاءٌ وألِف. مدَّت يديْها وهي تبكي، سحبت نخلة ثمَّ سحبتني من تحت السرير. وراحت تسلِّمنا لرجالٍ يرتدون ملابس مزركشةً وعلى أكتافهم بنادق نحيلة. حملني رجلٌ أسمر وخرج بي صوب أرض الديار التي فيها اختلطت رائحة العراتليَّة برائحة بارودٍ أو شيءٍ يحترق. من علٍ، لمحتُ طرف ثوب أمِّي الأزرق وقدميْها، وإذ رأى الرجل الأسمر أمِّي مرميَّةً، شدَّ رأسي إلى كتفه، فزكمتني رائحته التي تشبه رائحة تمرٍ «ممروت»، ثمَّ طار بي على

الخيل، ظننته ساحرًا إذ صرنا في الشارع من دون أن نمرَّ بالدهليز ولا باب الدار.

لم تَعُدْ السماء زرقاء بل رماديَّة. أنا على الخيل، والمدينة كلُّها على الخيل أيضًا. ناسٌ فوق خيولٍ تركض، وناسٌ تركض وتتلاطم، والأصوات قويَّة: صراخٌ وعويلٌ وبكاء، أحجارٌ تتدحرج، وصوت النار تأكل القشَّ والتبن وتحرق الخشب والقماش. ناسٌ تقع، ناسٌ ترتطم، وأنا على الخيل محمولةً أتفرَّج على الجدران تذوب وتحترق، وتصير مثل شجر اللحلح الأزرق في الشتاء، حيث لا شيء إلَّا أعواد بنِّيَّة نحيلة، لا علاقة لها بما تضمره في نسغها من أحلى الزهور. كذلك بيتنا كان لحلحًا ربيعيًّا أزرق، وصار أعوادًا بنِّيَّةً وسيبقى، لن نعود إليه، لن نسكن فيه بعد اليوم.

أنزلني الرجل الأسمر من على خيله، وقفت في ساحةٍ مبلَّطةٍ أمام بيتٍ كبير. أتى حنَّا ونخلة مع جدَّتي أوَّلًا. ثمَّ جاء عمِّي الصَّغير سمير، وأخيرًا جاء أبي حاملًا على ذراعيْه أختي الصَّغيرة ريتًّا. لم ينظر أبي إلينا، كان مشغولًا بشيءٍ ما، ينظر إلى الأرض ثمَّ يتأكَّد أنَّ ريتًّا غافية. يبعد الغطاء قليلًا عن وجهها ويضمُّها من جديد.

رأيتُ مسدَّسًا طويلًا متدلِّيًا من حزامه القماشيِّ المخطَّط، ولمحتُ بللًا على ثيابه. لكنَّه لم ينظر إليَّ، حنَّا ونخلة فقط كانا في مرمى نظره، ويده ربتت على كتفيْهما. انطفأت عيناه فجأةً حين رفع رأسه ليردَّ عنه نظرة جدَّتي هيلانة وقد استعادت قوَّتها ولم تَعُد تبكي.

ثمَّ أدخلونا إلى البيت الكبير، ورأيت كلَّ الناس على الأرض، كان بعضهم يبكي وبعضهم يصرخ. وفي جوِّ الصراخ والعتمة، سمعت صوت

جدَّتي هيلانة، تقول شيئًا لأبي وكلُّها غضب. كدت أقع لا أعلم لماذا. لكنَّ عمِّي الصَّغير، سمير، سندني وأمسك بذراعي وجرَّني صوب بقعةٍ خاليةٍ من الناس الباكين، لأفترشها بدلًا من أن أقع. البلاطات السَّوداء والزهريَّة فصلت بيني وبين امرأةٍ بعينيْن واسعتيْن تنظر إليَّ كأنَّها تلتهمني، خفت وبكيت. حرَّكت المرأة شفتيْها كأنَّها همَّت بالقول، ثمَّ خرج صوتها من دون أن أسمعه، لكنِّي سمعت صوت جدَّتي تهمس لها: «دبحو أمّها». فكَّرتُ لا ريب أنَّها فتاةٌ غيري تلك التي ذبِحَت أمُّها، وأنَّ أمِّي لا ريب ستأتي إلى البيت الكبير أيضًا، وتكون محمولةً على الخيل وفستانها الأزرق يلمع. لكن لعلِّي فهمتُ حين ضمَّني عمِّي الصَّغير، فقد صرت أبكي وصار يبكي معي.

نمت في البكاء واستيقظت فيه. وإن توقَّفت عنه، سمعت صوت غيري يبكي. كنَّا نبكي في أرض الديار الواسعة، ولكثرة الخلق لم أرَ بحرةً فيها ولا سلحفاة. ظننتُ أنَّ الناس كلَّها تبكي أمِّي معي. أحيانًا تكلَّمت نساء أرض الديار معي. إحداهن ربتت على شعري الأسود الطويل، وقالت: «أنت زغيرة بس شعرك كبير».

ومرَّة في الصباح وأنا متربِّعةٌ على البلاطات الزهريَّة والسَّوداء، جاء عمِّي سمير، وقال لي: «الليلة رح تصير شغلة حلوة، رح آخذك ع الباب مع حنَّا ونخلة، لتشوفي باشا المغاربة الأمير لابس أبيض وراكب ع حصان أبيض».

مرَّ النهار ببطءٍ يومها، أو أنَّني ما كنت أدرك مرور الوقت. كنت ضجرة، أتسمَّع ما يقول الناس حولي وأنا أتمشَّى بينهم أبحث عن شيءٍ يسلِّيني. لمحت مجموعةً من النساء بثيابٍ ملوَّنةٍ من أحد الأبواب

المطلَّة على أرض الديار. ثمَّ جاءت امرأةٌ وأغلقت الباب فجأةً. بقيتُ مسمَّرةً أمامه. كنت أريد الدخول لأكون تحت سقفٍ وبين جدران، لا المكوث في أرض الديار طوال الوقت. ما عرفت لماذا لا أستطيع الدخول لا أنا ولا عمّي ولا جدَّتي ولا إخوتي ولا أبي. شعرت أنَّنا ناسُ «الخارج»، وخفت أن نبقى في الخارج طوال الوقت.

عدتُ إلى البلاطات الزهريَّة والسَّوداء وجلست قرب جدَّتي الصامتة طوال الوقت تقريبًا. يداها في حجرها، تقبضان على الكيس القماشيِّ الذي لا يفارقها حتَّى وهي تحضِّر لنا، أنا وأخويَّ، الماء والخبز والعدس. جاء عمِّي وقال لها إنَّه سيأخذني وأخويَّ إلى الساحة قرب الباب كي نرى الأمير من قرب. انتظرتُ أن تقول جدَّتي شيئًا، لكنَّها هزَّت برأسها فحسب، أردتُ أن أقول شيئًا لكنَّ الكلمات ذهبت عنِّي كما ذهبت عن جدَّتي.

جاء المساء أخيرًا وخرجنا إلى الساحة وانتظرنا، ثمَّ ظهر الأمير الأبيض ورأيته. كان مهيبًا يشعُّ مثل الشمس. أظنُّه كان يتلألأ بسبب جواهر برَّاقةٍ خضراء وبنفسجيَّةٍ تلمع على معصميْه الداكنيْن. لا أتذكَّر تمامًا إنَّ كانت بشرته غامقةً إلى هذا الحدّ، أم أنَّ ثيابه البيضاء والنور الطالع حوله ومنه أضفيا على لونه درجةً زائدةً قاتمة. لم أره على حصانه، كان يمشي وحوله رجالٌ كُثر. ربَّما سمعت خشخشةً ورنينًا يصدران منه وهو يتحرَّك على مهل، والناس تبتعد عنه وتقترب منه إلى أن دخل دهليز الدار. ولحقنا به. وفي أرض الديار تجمَّع الناس حوله يكلِّمونه ويكلِّمهم، ينادونه متضرِّعين: «سيِّدنا الأمير عبد القادر، سيِّدنا الأمير عبد القادر».

✸✸✸

لحسن حظِّي أنَّ عمِّي كان معي، ليرتق ثقوب الذاكرة الحلوة، ويثقب الذاكرة المرَّة. يقول لي إنَّ أمِّي كانت تحبُّني، وتحبُّ شعري الأسود الطويل. وإنَّها بالتَّأكيد في السَّماء تنظر إليَّ وتراني. فأرتاح لكلامه وأضيف أنَّني أتذكَّر ثوبها الأزرق. أقول ذلك لا لشيءٍ إلَّا لأشارك في الحديث، لكنَّه حينها يثقب ذاكرتي ويشوِّشها، يقول إنَّ لديْها أثوابًا كثيرةً حريريَّةً ملوَّنة، وإنَّه سيطلب من معلِّمه الخواجا بولاد أن يسمح له بنسج قماشةٍ حريريَّةٍ برتقاليَّةٍ خصِّيصًا لي كي أحظى بثوبٍ لامع. فأنسى لوقتٍ قصيرٍ ثوب أمِّي الأزرق يلفُّها وهي ممدَّدةٌ في أرض الديار، وأروح أفكِّر بثوبي البرتقاليِّ المتخيَّل.

على العكس من عمِّي، كان سيِّدي ريتشارد يثقب ذاكرتي الحلوة ويرتق المرَّة، فيسأل بالتَّفصيل عن نوع حرير ثوب أمِّي، ودرجة لونه، عن خيوطه وملمسه، عن نقشته الخفيَّة، وإن كان مُزدانًا بالقصب مثلًا. ثمَّ يُمسك بطرف ثوبي ويصير يهزُّه ويدعكه ويسألني إن كان صوته مشابهًا لصوت حفيف ثوب أمِّي وهي تهوي على أرض الديار. يقول لي: «تذكَّري، يا قمُّور، قولي شو نوع الحرير؟ أنتِ بنت الفتَّال وبتعرفي بالحرير». أحاول إيجاد أجوبةٍ لأسئلته، إذ أتصوَّر أنَّ فضوله صوب الحرير الدمشقيِّ جزءٌ من طبعه، هو الشغوفُ بالكتب القديمة واللقى. لكنَّ

صوت نبض قلبي وعرقي على ثيابي وجفاف حلقي وهروب الكلمات منِّي، تخنقني كلُّها، فلا أقدر على التنفُّس، وأفكِّر هل أنا مخنوقةٌ لأنَّ سيِّدي ريتشارد يحتجزني في قبو بيت الصالحيَّة؟ أم لأنَّ رتق الذاكرة المُرَّة تعذيبٌ صاف؟ كلَّما تذكَّرت كلمةً وحاولت تأليف جوابٍ لأتخلَّص من سيِّدي ريتشارد، كان يزيد ويستمرُّ بسؤالي عن تفاصيل ممحوةٍ من رأسي؛ عن أثر الدم على الحرير، وعن الرأس الذي شجَّته بلطةٌ وهوى على الرخام لصق البحرة ذات الحواف الزرقاء.

كلَّما سأل اقترب، وكلَّما اقترب ضعفتُ وتشجَّعتُ. لم أكن أخاف منه وقد اعتدت لعبته في نفخ وجنتيْه المشوَّهتيْن نتيجة رمحٍ اخترق الأولى وخرج من الثانية. لكنِّي كنتُ أخاف من هذا التذكُّر القسريّ، الذي لا يترك لي متنفَّسًا ولا مهربًا. تذكُّرٌ يستحوذ عليَّ كلِّي، ثمَّ يحوزني كلِّي، فأقسمُ أن أبدِّد رتق ذاكرتي المرَّة، وأن أنسى قسريًّا ما أتذكَّر من مشاهد وروائح تهلُّ عليَّ من أسئلة سيِّدي ريتشارد وتتمثَّل أمامي وأراها منعكسةً في عينيْه الثاقبتيْن. وإذ عرف ما يجول في بالي من مشاهد ابتسم ومال برأسه، ووضع إحدى يديْه خلف رقبته ليداري إعجابه بنفسه، عندها كنت أرتدُّ إلى الوراء قليلًا قبل أن أندفع هاربةً صوب الدرج البازلتيِّ، أصعد صوب أرض الديار، وأتخيَّل صوت ضحكه يتبعُني. لكنَّ سيِّدي ريتشارد كان يتبعُني من دون ضحكٍ ولا صوت. ثمَّ تمرُّ ستي إيزابيل في أرض الديار، وتعرف من سحنتي ونظرة عينيَّ عن جلسة «الاستجواب من أجل التذكُّر» في القبو. تبتسم باقتضابٍ وتوجِّه كلامها لكليْنا، ويكون نبره مخلوطًا بين المكر واصطناع الاستنكار: «آوه، يا كمُّور، قلبه قلب طفل، وفضوله أقوى من فضول قطّ... هو ليس ماردًا أو جنيًّا بل «قنصل الود» ومؤلِّف اللَّيالي العربيَّة العظيم».

وتروح تعيد الجملة الأخيرة مرَّاتٍ ومرَّات، إلى أن تمتلئ بها تمامًا وتصير تشبه الديك المنفوش الذي رأيته في إسطبل الحيوانات مقابل البيت. أنظر إليها ولا أبتسم، ثمَّ أرفع طرف ثوبي بيدي، وأتَّجه صوب الدرج المفضي إلى المشرقة. أصعد إلى الفسحة المزدانة بالخضرة كحديقةٍ معلَّقة، أعبُّ رائحة الجوريِّ الفوَّاحة. أهزُّ أصص الفخَّار لتنتشر أكثر، وأمرُّ بيدي على أوراق عريشة العنب وغيرها من النباتات. أهدأ قليلًا وأنتبه إلى صوت ناعورة المياه القريبة إذ يطغى على صوت نبض قلبي. أكون كعادتي برأسٍ منحنٍ وعينيْن زعلانتيْن. أتنسَّم الجوريَّة ثانيةً، ثمَّ أرفع رأسي وأرى قاسيون غير بعيد.

أعطيه ظهري، وأنظر إلى الشام، أتحزَّر موقع بيتنا الجديد فيطلُّ البيت القديم الذي انتهى واختفى في اللهب، أهزُّ رأسي كما أهزُّ أصص الفخَّار، وأفكِّر بحرير الثوب البرتقاليِّ المتخيَّل.

***

لم أحظَ بالثوب البرتقاليّ مرةً، لكن حزت كلام عمّي معي وأنا أسأله عن أنواع القطع الحريريَّة التي يصنّفها ويرتّبها، ثمَّ يحلُّها ويلفُّها، وتصير لديْه شموطةٌ من كلٍّ نوع. أسأل عمّي سمير: «كم شموطة لتوبي الحرير؟»، يبتسم، ويقول: «مية شموطة لتوب الأمُّورة قمُّورة» ويضيف بعد قليل: «تعالي علمك لتصيري كبَّابة حرير».

أحاديث عمّي، الثوب البرتقاليُّ المتخيَّل، الأمير الأبيض، اللَّون الأزرق، أمّي قرب حوض اللَّيمونة، ريتشارد وإيزابيل، دله وأبي، حياتي الشامية، حياتي الإنكليزيَّة صعدت كلُّها فجأةً إلى رأسي ما إن وضعتُ الظرف المفضوض وحزمة الجنيهات الإسترلينيَّة على الطاولة الصَّغيرة أمامي، وأعدتُ قراءة الرسالة المقتضبة للمرَّة الثالثة:

لندن ـ 21 ديسمبر 1896

السيِّدة قمُّور فتَّال

وفقًا لوصيَّتها المؤرَّخة بـ 28 ديسمبر 1895، فقد أوصت الراحلة الليدي إيزابيل بورتون، زوجة الراحل سير ريتشارد فرنسيس بورتون، لكم بمبلغٍ وقدره خمسون جنيهًا إسترلينيًّا فقط لا غير. وتجدون المبلغ طيَّه.

أسلمَت الليدي بورتون روحها للباري في يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر آذار 1896، ووُرِي جثمانها الثرى إلى جانب زوجها في ضريحٍ خاصٍّ مهيبٍ في باحة كنيسة مريم المجدليَّة في مورتليك بلندن.

سكرتيرة الليدي إيزابيل بورتون الخاصَّة

ميني غريس بلومن

وضعت الرسالة على الطاولة بعدما أحكمت طيَّها. قلت لنفسي «ماتت إمبراطورة الشام إذن، لحقت بزوجها الإمبراطور حتَّى قبره كما أرادت دائمًا». تعكَّر مزاجي تمامًا. رحتُ أمرُّ بأظافري على حاجبي. أرجعتُ شعري إلى الوراء، قمتُ من مكاني صوب المنقل النحاسيِّ أخذت جمرةً لألهي نفسي بتزبيط النارجيلة. سحبت نفسًا عميقًا، حبست الدخان في صدري، وقبل أن أنفثه استدركت أنَّ اثنتيْن وعشرين سنةً مرَّت منذ عودتي إلى الشام.

اثنتان وعشرون سنةً، فيها تزوَّجت وتشعَّبت أيَّامي مثل النباتات المتسلِّقة. هاشت ولم أشذِّبها. تركتُ نفسي ورقةً في مهبِّ الريح بين الشام والإمبراطوريَّة العظمى، مع ذلك لم تضلَّ وصيَّة إيزابيل طريقها إليَّ ولا تاهت. وأنَّى لها أن تفعل بوجود سكرتيرةٍ خاصَّةٍ تكتب رسالةً من لندن إلى الشام؟ أستطيع تخيُّل السكرتيرة ميني تبحث بين أوراق إيزابيل المصنَّفة بدقَّة، لتجد بين الأوراق الماليَّة ورقةً من شهر ديسمبر 1874 بأجرتي وباسم أبي أنطون فتَّال، قوَّاص القنصل البريطانيِّ سابقًا. وتبدأ عملًا دؤوبًا لتنفيذ وصيَّة إيزابيل ورغبتها أن تهديني أنا قمُّور فتَّال خادمتها السوريَّة السَّابقة جزءًا من مالها. لم تحل عنِّي إيزابيل ولا زوجها ريتشارد كما توهَّمت خلال اثنتيْن وعشرين سنة، وإذ أرث منها،

يرتبط اسمي باسمها إلى الأبد. هززت رأسي لأطرد تلك الفكرة ثمَّ نفثتُ دخان النارجيلة بقوَّة.

الجنيهات الإسترلينيَّة على الطاولة تخبِّر أنَّ وصية إيزابيل نُفِّذت وانتهى الأمر، طُويت الصفحة من جهة الإمبراطوريَّة العظمى، أمَّا من جهة الشام، فلا. بل إنَّ الكتاب ما زال مفتوحًا وما زالت «وصيَّة» ريتشارد غير مُنفَّذة. الكتاب في منتصفه، كلماته معلَّقةٌ وغير مترابطة، والمعنى لمَّا يتَّضح. كأنَّه يقف في أوَّله ويتردَّد. كأنَّه بابٌ مفتوحٌ على هاوية. كلَّما فكَّرت بكلام ريتشارد، تخيَّلت نفسي أسقط في هاوية. الكتابة هاويةٌ قد تبلعني وتأخذني معها إلى مطرحٍ غريب، فأصير دميةً معلَّقةً بخيطان، مثل تلك الدمى التي رأيتها في المسرح اللندنيّ. لم أفعل إلَّا نصف ما طلب منِّي، تركت النُّصف الآخر مؤجَّلًا ومؤجَّلًا، حتَّى صار التأجيل أمرًا لا يُحتمل. أنا في هذا الـ «لا يحتمل». بل لعلِّي عشت نصف عمري فيه. فعلت النصف وبقي النصف الآخر مربوطًا بخيطان التأجيل المدَّادة. جمَّعت قصص الـ «لا يحتمل»، وركنتها في الصندوق الخشبيّ، وأجَّلت الكتابة، أجَّلتها إلى أن صارت لا تُحتمل، بل لا تُطاق. لم تفارقني البتَّة رغم التأجيل المؤبَّد، لكن لم أجرؤ مطلقًا. كلَّما حضَّرتُ نفسي، تزاحمت تفاصيل حياتي ومنعتني، أو لعلّي اخترعت الحجج لئلَّا أكتب. فكيف أكتب عمَّا شهدته وأنا في السابعة من عمري؟ قطفت حكايات من كانوا أكبر منِّي، الذين امتلكوا تفاصيل أوفى وأوضح. قطفت الحكايات ووضَّبتها في الصندوق وأغلقته بالمفتاح. لكنَّ الحكايات المقطوفة بدَّدت قفل الصندوق كأنَّه لم يكن. تسرَّبت وحوَّمت في رأسي. طنينها المزعج يذكِّرني بالنصف المؤجَّل، وأنا أردت أن أنسى كي أستمرَّ وأعيش.

تتَّسع دائرة الحجج، لتطول أبي وارتباكي من تصرُّفه حدَّ الخجل، وتمتدُّ أكثر لتصل إلى زوجي حنًّا وما سيكون رأيه، هو الذي لم يشفَ من ذاكرته، وطمر الماضي حين تزوَّجني، ليكتشف أنَّه تزوَّج تلك التي تذكِّره كلَّ يومٍ بما أراد نسيانه. كم هي سهلةٌ وصيَّة إيزابيل، جنيهاتٌ سافرت من لندن إلى الشام وانتهى الأمر. أمَّا «وصية» ريتشارد فتجلو الغبار عن الماضي. ليس ماضي غيري فحسب، بل ماضيَّ أنا أيضًا. وتطيح بطلقةٍ واحدةٍ بالجملة التي اعتدت سماعها منذ السابعة: «يتيمة الأمّ»، وتجلِسُ مكانها السؤال القاسي: «كيف ماتت؟». المشكلة في الجواب. الجواب هو القصَّة.

***

لا يعرف الناس قصصنا إلَّا إن خبرناها، وأنا لا أعلم ما الذي حدا بي ذلك الصباح البعيد لأُخبر ستِّي إيزابيل عن قصَّتي. كنتُ قد استيقظت والكلمات تحوم حولي تريدني أن أنطقها ولم أمنع نفسي. ما إن دخلت إلى غرفتها لأساعدها بتحضير زينتها حتَّى بدأت أثرثر: «بتعرفي ستِّي؟ أنا بعرف الأمير يلي كان مبارح هون. شفتو أنا وزغيرة». نظرت إليَّ بعينيْها الزرقاويْن الصامتتيْن، وثبَّتتهما عليَّ بقوَّة. أدارت ظهرها كي أساعدها بوضع المئزر الشاميِّ المطرَّز بالقصب. اتَّجهت صوب طاولة الزينة وجلست أمام المرآة ومن خلالها خاطبتني: «إيه كمُّور، وين شفت الأمير عبد الكادر؟ لا تكذبي». «واللّـه العظيم شفتو ببيتو بالعمارة، سكنت أنا وعيلتي عندو، نحنا وكلّ الناس بعد ما ماتت أمِّي».

احتاجت القصَّة لأربع عيونٍ ولسانٍ واحدٍ لتنسكب دفعةً واحدة. لساني الثرثار المرتبك، بسببه صار البخار يطلع منِّي، ألهث ويلفُّني ويطيِّر التفاصيل الواهية فتحوم حولي وحول إيزابيل، إلى أن أخرستني جملةٌ واحدةٌ منها بعربيَّةٍ متكسِّرة: «أنت أمِّك باب توما؟». ونبرت بالإنكليزيَّة جملةً لم ألتقط منها إلَّا كلمةً واحدة: «ريتشارد».

الجملة العربيَّة المتكسِّرة الخالية من الفعل، شفَّت عنه بقوَّة، فلاحت حروفه الثلاثة متفرِّقة: ذالٌ وباءٌ وحاء، سابحةً في هواء الغرفة ببطءٍ أوَّلًا، ثمَّ انتظمت فوق رأس ستِّي إيزابيل راسمةً دائرةً صحيحة، وراحت تلفُّ وتلفُّ بشدَّة، قبل أن تلتصق لتؤلِّف المعنى: ذبح. رأيت الفعل واضحًا فوق رأس إيزابيل، وكانت عيناها تزدادان زُرقة، فأدركت وأنا في مرماهما أنَّني التي ولدت من المذبحة.

أنا السوريَّة ابنة المذبحة، ولدتُ من هذا اللَّفظ الصَّغير المُرعب وعشت على حوافه المسنَّنة. سنينٌ عشر خلت، واللفظ مطمورٌ في داخلي، فقد خنقتُه، أبعدته عن قلبي وجرَّدته من المعنى. أتوجد كلماتٌ من غير معنى؟ محض حروفٍ ترنُّ وتختفي من دون أثر، من دون قلب؟ فلا ينبض قلبك حينما تسمعها ولا يخضُّ دمك وقعها، ولا يصعد بخار التلبُّك من مسامك، لتخفض بصرك المقهور فتنهي الأمر كما لو أنَّ اللَّفظ فقد ذاكرته قسرًا، وما عاد يشي بشيء؟

استرجع اللَّفظ معناه كاملًا وولدني من جديد، لأنَّني خبَّرت القصَّة. ضربتني الحيرة، هل أندم لأنَّني خبَّرت؟ أكان عليَّ البقاء صامتة؟ رحت ألوم نفسي وأقرِّعها: «لم يكن هناك داعٍ لكلِّ هذه الثرثرة، أم أنَّك صدَّقتِ يا قمُّور أنَّ ستَّك إيزابيل مهتمَّةٌ بك حقًّا؟». كيف أدافع عن نفسي تجاه نفسي؟ اندفعت وتهوَّرت. ووجدت عذري في لطف الأمير مساء البارحة وعذوبة صوته يقول لي «اللَّـه اللَّـه»، إذ علق ثوبي بشوك شجيرة الورد، وكادت صينيَّة الشراب الورديِّ التي أمدُّها أمامه تقع عليه. صوته المسكِّن منع اندياح الشراب. رأسي محنيٌّ وكتفاي شبه مقوَّستيْن. تناول الأمير كأس العصير ونظر إليَّ بدفء: «شكرًا يا...؟» وقبل أن أجيب تبرَّعت ستِّي إيزابيل بالإجابة: «اسمها

كمُّور» ثمَّ ابتسمَت ابتسامةً فيها مزيجٌ من الفخر والاستحواذ كما لو أنَّها تملكُني. كنت قد انتصبت قليلًا وتراجعت خطوةً إلى الوراء وابتسمت بدوري، وقبل أن أرفع رأسي تمامًا، جاء صوت ريتشارد خشنًا وعميقًا يتأنَّى عند حرف القاف ويشدُّ عليه: «قمُّور القمر». لم أعد أسمع شيئًا من كلمات الأمير ولا كلمات باقي الضيوف، كأنَّ صممًا ألمَّ بأذني. وقبل أن أنسحب وأنزل من المشرقة، سحبني لفظ «ذبح» الصَّغير حين هفَّت رائحته، فقد تذكَّرت الأمير والبلاطات الزهريَّة والسَّوداء التي افترشتها وأنا صغيرة في بيته. تذكَّرت كيف أخذني عمِّي لرؤيته عند الساحة حيث استقبلناه أمام بيته كأنَّه الضيف في حين هو صاحب البيت ونحن الضيوف قسرًا. لمع اللَّون الأبيض في رأسي، وصار يقوى وأنا أنزل من المشرقة. وصلتُ أرض الديار، ثمَّ اتَّجهت إلى غرفتي. أغلقت الباب ورائي وتلحَّفت بالسرير. نظرةٌ من الأمير كانت كافيةً لرتق ثقبٍ هائلٍ من ذاكرتي المرَّة. صارت مزقات الذاكرة تلتحم ببعضها وتؤلِّف الألم الصافي المقطَّر، وتعيد نتفًا ومشاهد بعيدة. أغمضت عينيَّ الزعلانتيْن وغفوت. وفي الصباح استيقظ قلبي قبلي، كان ثقيلًا وصيَّرني مندفعةً ومرتبكة، أدور حول نفسي، وروحي ترنُّ في جسدي وتخفق كمئة منديلٍ ومنديل. بسرعة، تجهَّزتُ وصعدتُ فورًا إلى غرفة ستِّي إيزابيل. وهناك، ومرآة الزينة تعكس صورتي وصورتها معًا، فتحتُ فمي وبدأت القصَّة.

***

بدأت القصَّة وأنا في السابعة عشرة من عمري. هذا ما قلته لنفسي وأنا أنفخ الدخان من النارجيلة وأنظر إلى الوصيَّة المطويَّة أمامي على الطاولة، وأفكّر بـ «وصيَّة» ريتشارد، بكلامه. استعدت صورته في آخر مرَّةٍ رأيته سنة 1874 في تريسته.

كان ريتشارد قد تعافى من الورم الذي ألمَّ به، استعاد قوَّته وطبعه الصَّعب الذي ازداد حدَّةً بسبب «التصاق إيزابيل» به مثلما كان يلمِّح، وازداد نكدًا بسبب موت صديقه شارل تيرويت دريك في القدس. إلَّا أنَّ شيئًا ما كان ليمنعه أو يوقفه عن الكتابة. كان وراء أحد المكاتب الأحد عشر في القاعة الكبيرة يعمل حين دخلت لأعطيه رزمة أوراقٍ طلبها. وضعتها على أحد المكاتب صامتةً وهممت بالخروج، إلَّا أنَّ عباراته القاسية سمَّرتني، خاصَّةً أنَّه تعمَّد مخاطبتي بالإنكليزيَّة لا العربيَّة: «ها أنتِ تستطيعين العودة إلى دمشق، فقد تدبَّرَت إيزابيل التخلُّص منك لأنَّك فشلتِ في أن تكوني آنسةً إنكليزيَّةً كما أرادت. والأسوأ أنَّك فشلتِ في أن تصيري كما أردتُ أنا، ولم تفعلي شيئًا سوى التمخطر بثيابك الملوَّنة معتدَّةً برشاقتك ومناكفاتك. كلُّ جهدي معك لم يسفر عن شيء. منذ دمشق لم تتعلَّمي شيئًا خلا التفاهات الأرستقراطيَّة. سأحطِّم تماثيل إيزابيل كلَّها المرصوفة في الممرّ، وأرسل

إيزابيل إلى لندن لأنَّني لم أعد أطيق رؤيتها بسبب ما فعلَته بك ولا أطيق رؤيتك بسبب ما أراه منها فيك». توقَّفَ هنيهةً قبل أن يتابع بنبرةٍ ساخرةٍ مريرة: «هه! لا تنسي أن تأخذي معك زجاجات الماء المقدَّس لتبشِّري أهل المشرق. سيكون منظرك مقرفًا: المسيحيَّة السوريَّة ابنة المذبحة ترشُّ ماءً إنكليزيًّا على أهل باب توما وتظنُّ نفسها مبشِّرةً من مبشِّرات الإمبراطوريَّة الخرقاوات. قمُّور فتَّال ابنة قوَّاص قنصليَّة بريطانيا العظمى تريد أن تتزوَّج وتصير نسخةً عن سيِّدتها إيزابيل لتنكِّد عيش رجلٍ ما». عند الجملة الأخيرة فقط رفعت بصري، وقبل أن أفتح فمي رفع يده أن اصمُتي وقال: «اصمُتي، لم أنتهِ منك بعد. ليتنا في قبو بيت الصالحيَّة، لجرَّبتُ فيك كلَّ الأسلحة». صار قلبي يدقُّ، واستعدتُ نتفةً من الخوف الشاميِّ قبل أن أحرن. لكن، نتفة لا غير بدَّدتها نظرةٌ شبه معاتبةٍ من ريتشارد، فبدا مثلما وصفه أحدهم «له قلب امرأةٍ جميلة». طار الحَرَن وعلا الاعتذار سحنتي كما لو أنَّني أرتدي ملابس الأسف والحزن، حيث يصير القماش ضعيفًا، محض بتلات زهورٍ بريَّة، يكاد يسقط ويشفُّ عمَّا يمور فيَّ. كأنَّ الحرير والتافتا والدانتيل تحوَّلت كلُّها إلى كتَّانٍ أزرق رقيقٍ في ثوب الشهر المريميِّ. قبضتُ براحتي على صليب المسبحة اللؤلؤيَّة وانتظرت ريتشارد ليتابع كلامه. لكنَّه بَقِي صامتًا. ثمَّ وقف واتَّجه إلى المكتب الثامن باحثًا عن شيءٍ ما. استدرت نصف استدارةٍ كي أنسحب وينتهي كلُّ هذا، وأطوي حياتي الإنكليزيَّة وأعود إلى الشاميَّة، بَيْد أنِّي لم أفعل. نظرتُ باتِّجاهه ثمَّ أخفضت بصري. أردت أن أقول شيئًا لكنِّي لم أجد ولا كلمةً واحدة، جافتني الكلمات. ثمَّ جاء صوته خشنًا عميقًا فنبرته تتغيَّر من الإنكليزيَّة إلى العربيَّة وتبدو الكلمات كما لو أنَّها تتسلَّق من جوفه إلى حلقه ببطءٍ وصعوبة: «خدي

هـ الصندوق. في قصص باب توما المفكَّكة بالعربيّ، وبالإنكليزيّ التَّعليمات يلي كتبتها أنا وما نفَّذتيها. عملتِ شي تاني، شي بيخجل».
تناولت منه صندوق الأوراق، وفكَّرت بالعبارات الإنكليزيَّة المنمَّقة عن شكري وامتناني التي عليَّ قولها، لكن شتائم بذيئةً ومحبَّبةً بالعربيَّة زاحمتها. ريتشارد لم يترك مجالًا لأيٍّ عبارةٍ لا بالإنكليزيَّة ولا بالعربيَّة. استعاد نبرته الإنكليزيَّة التي تبتلع قدرًا لا بأس به من الحروف وتضغط على أخرى بطريقةٍ باترة: «انصرفي الآن، قبل أن أغيِّر رأيي فأقيِّدك إلى الكرسي وأعلِّمك كتابة الرسائل».

***

كنت في الثانية والعشرين من عمري حين صار عمر القصَّة أربع سنوات. قفلَتها رؤيتي لريتشارد وسماعي «وصيَّته» للمرَّة الأخيرة، وفتحتها الآن وصيَّة إيزابيل، وأنا سأصير في الرابعة والأربعين من عمري بعد أيَّامٍ قليلة.

خَفَت النور في الغرفة حيث أجلس، وصار المساء على وشكِ أن يحلَّ. وأنا ما زلت في مكاني أنظر إلى الرسالة المطويَّة والجنيهات. انطفأ جمر المنقلة وبرد الشاي ولم أتزحزح. عمَّا قليلٍ سيأتي زوجي حنَّا. تردَّدتُ في أن أُخبره عن رسالة إيزابيل وجنيهاتها، لكن لم أشأ إخفاء ذلك عنه أيضًا. توجَّستُ فقط من فكرة ما ستفتح الرسالة من أحاديث طويناها أنا وحنَّا وصرنا نتجنَّبها، ونضع حبالًا من الصمت بين التعليقات القليلة المقتضبة التي تخصُّ ريتشارد وإيزابيل. فحين أعلمني حنَّا بوفاة ريتشارد منذ ستِّ سنواتٍ بطريقته الهادئة التي تحمل استفساراتٍ لا تنتهي وتنتظر منِّي مدَّ حبل الاستفاضة والكلام، قلت باقتضاب «اللَّـه يرحمو» لأتجنَّب دروب الذاكرة الوعرة وأمنعها من تعبيد الطرق وتمهيدها أمام حديثٍ موجعٍ طالعٍ من الماضي. فمن يريد العودة إلى ما يُربكه ويُزعجه علانيَّةً وبالمشاركة؟ ألا يكفي أنَّني حين أنزوي بنفسي أعود وحدي إلى ماضيَّ وقطعه المكسَّرة، فأروح ألوم نفسي على

ما فعلتُ وأتصوَّرُ ما كان عليَّ فعله؟ أن أفعل ذلك بيني وبين نفسي شيء، وأن يصير أمرًا مشتركًا شيءٌ آخر، حتَّى ولو كان مشتركًا مع حنًّا. لذا لم أزِد وقتها كلمةً واحدةً بعد الترحُّم على ريتشارد، ولم أقل مثلًا «ليكن ذكره مؤبَّدًا»، فمن مثل ريتشارد لا يحتاج قولًا مماثلًا. إنَّ أحدًا لا ينسى ريتشارد فرنسيس بورتون، وأحدًا لا ينجو من سطوته وسحره. يومها نظر إليَّ حنًّا ولم يعلِّق على ترحُّمي الجافّ، وتابع كلامه بنبرةٍ مستفسرة: «رح مر بكرا ع القونسولاتو، لأعرف أكتر». صمت متوقِّعًا أن أستفسر عن استفساره، كأن أسأل وكيف عرفتَ بوفاته إذن؟. لكنِّي لبثت في صمتي. خرج حنًّا من الغرفة وعاد بعد دقيقتيْن حاملًا بيده جوريَّةً سلطانيَّة، مدَّها إليَّ، وقال: «حطِّيها بالمي لتفوح».

لا يزال حنًّا كما عرفته منذ المرَّة الأولى، رقيقًا ووسيمًا، ذكيًّا وماكرًا، يمشي مثل طاووسٍ لكن بخجل. فيه شيءٌ من الطيور، فيه تلك الأنفة الخفيَّة التي تجعل كتفيْه مستقيمتيْن دائمًا. لا يُمكن لأحدٍ أن يحزر عمره، ولا يُمكن لأحدٍ أيضًا أن يضع الرفض على الطاولة أمامه. قليل الاضطراب والتلبُّك ظاهرًا، لكن إن ارتبك، انداحت ساقية ماءٍ مثلَّجٍ أمام ناظري، وأيقنتُ أنَّ قلبه يحبُّني.

كان في السابعة والثلاثين حين التقيت به للمرَّة الأولى في بيت سيِّدي ريتشارد وستِّي إيزابيل في الصالحيَّة. الحقيقة أنَّنا لم نلتقِ تمامًا، بل انتبه إليَّ حين دخلت القاعة الرخاميَّة الرئيسة، أمشي كما لو أنَّني راكبةٌ على جملٍ بسبب القبقاب المصدَّف العالي، وثقل الصينيَّة النحاسيَّة المُترَعة بكؤوسٍ إنكليزيَّةٍ مترفةٍ ورقيقةٍ فيها شراب الورد. لم أرَ إلَّا نصف نظرةٍ منه، أمَّا باقي نظراته فحطَّت عليَّ ولفَّتني. أحسست بها بقوَّة. انتهى الأمر، لم نلتق.

التقينا فقط عندما تكلَّم وحدَّثني عن انتباهه ذاك لي. قال إنِّي بدوْت مثل زهرةٍ بريَّةٍ بيضاء تترنَّح من نسمةٍ صيفيَّة. «دخلتِ بقباب الصدف، حاملة صينيَّة تقيلة ولابسة أبيض وخصرك واضح كأنّو مرسوم، وشعرك الأسود متل شال الحرير. جمدت ونسيت شو كنت عم ترجم بين الضيف المهمّ واللّيدي إيزابيل. كانت أوَّل مرَّة بشوفك قمُّور... بنت رفيقي أنطون يلي طلب منِّي ساعدو مشان بنتو». يتوقَّف هنيهةً حريصًا ألَّا يقول أنَّ ابنة القوَّاص ستعمل خادمةً لدى اللّيدي إيزابيل. قبل أن يتابع: «البنت الحلوة الذكيَّة تعلمت إنكليزيّ وراحت ع الإمبراطوريَّة ودارت، بس من حظِّي رجعت ع الشام، وهيك صار القمر عندي». يبتسم ويرجع رأسه إلى الوراء نتفة، يضع كفَّه الرَّقيقة على شعره بلونه الممزوج من «ملح وفلفل» كما يقول الإنكليز، قبل أن يقول «تعي» فاتحًا ذراعيْه. لم يملَّ حنًّا من تكرار كلامه عن «الانتباه الأوَّل»، كلَّما صافت لنا الأوقات في الأمسِية الشاميَّة. أمَّا أنا فأغمض عينيَّ في منتصف حديثه، لأستعيد كيف حطَّت نظراته عليَّ وأستعيدَ صوت القبقاب المصدَّف، فأنتبه إلى السكينة التي غمرتني تحت عينيْه.

الانتباه هو الأصل لا اللقاء، فأنا لم ألتقِ عمِّي سمير في مرَّةٍ أولى، بل انتبهت إلى حنانه الفائض منذ وعيت، ولم ألتقِ أبي في مرَّةٍ أولى بل انتبهت إلى ضعفه حين عنَّفتني زوجته دله، ولم يقل شيئًا. ولم ألتق بدله، بل انتبهت إلى نفورها منِّي البادي دومًا من عينيْها الزجاجيتيْن، تسمِّرهما عليَّ من دون أن ترفَّ، وأخمِّن جمل الكراهية التي تدور في رأسها وهي صامتةٌ تجمِّد عينيْها عليَّ وتقطِّب حاجبيْها نصف قطبة، فأهرب أنَّى تسنَّى لي ذلك، بسبب تلك الرماح الواخزة التي تطلقها من عينيْها كلَّما لمحتني.

الانتباه هو ما أجيده، أمَّا الكلام فلا. يكون لي رأيٌ وجوابٌ يدوران في رأسي إلَّا أنِّي أخشى أن أنطقهما. الكلمات تكون واضحةً ومرتَّبةً في ذهني وجميلة، لكنَّها لا تخرج بسهولة، تمور بي وتطلع من عينيَّ ما إن أرفعهما، أخفض بصري لأُداريها وأتركها حبيسةً داخلي. ريتشارد انتبهَ إلى كلماتي مطويَّةً في عينيَّ، وقرَّر يومًا أنَّ عليَّ تعلُّم الإنكليزيَّة، قال شيئًا بما معناه إنَّ هذا عمليًّا أفضل من تعلُّم ستِّي إيزابيل العربيَّة. ورمقني بنظرة تواطؤ. ربَّما غمزني قبل أن يدوِّر كعادته عينيْه في محجريْهما فيطغى البياض على البنيِّ القاتم ويصير وجهه وجه وحش. هي لعبته المفضَّلة أن يصير وحشًا مخيفًا أو غولًا هائلًا. وكل ما فيه يساعده، قسماته العربيَّة القاسية وشعره المحنَّى والجرح المشوِّه في وجنتيْه وسطوة قامته. لكنَّه ليس وحشًا. هو مثلما قال رسَّامه الأخير ألبيرت ليتشفورد «صاحب عيني نمرٍ وصوت ملاك».

قرأت الجملة الأخيرة في كتابٍ عنه صدر قبل ثلاث سنوات. يومها أحضر حنَّا الكتاب، دخل إلى الغرفة ووضعه على هذه الطاولة الصَّغيرة أمامي. لم يقل شيئًا، نظر إليَّ نظرةً بين العتب وشيءٍ آخر غيرَ محدَّد، ثمَّ مضى شبه مرتبِك. ولم يسألني بعدها إن كنت قد قرأتُ الكتاب. لعلَّه أيضًا توجَّس من فكرة ما سيفتح الكتاب من أحاديث طويناها وصرنا نتجنَّبها، ونرخي حبال الصَّمت كلَّما طارت في بيتنا الشاميِّ سيرة ريتشارد وإيزابيل.

والآن، على هذه الطاولة الصَّغيرة نفسها، الرسالة المطويَّة والجنيهات الإنكليزيَّة قربها. رائحة دخان النارجيلة خفيفة، والجمر في نزعه الأخير. المساء حلَّ، وأنا ما زلت جالسةً في العتمة التي كثَّفها قماش الستائر الثقيل، منتظرةً حنَّا. وما زلت متردِّدةً أَأُخبره أم لا: «ماتت

إمبراطورة الشام، وتبِعَت ريتشارد حتَّى قبره». قلت الجملة الأخيرة في قلبي وبالعربيَّة الفصحى. وجدتها صالحةً للبدء بالكتابة، فإيقاعها قويٌّ ومشوِّقٌ ويلائم مزاج الإنكليز الجانح نحو القتل والجريمة. شيءٌ غامضٌ يلفُّ تلك الجزيرة ويشيع تينك الأجواء الكحليَّة المغلَّفة بخطايا منمَّقةٍ ومرتَّبة. أجواء مسنَّنةٌ وأسلحةٌ نائمةٌ تحت مرجٍ من زهور الخزامى. فإن أراد الإنكليز التَّأكيد على أمرٍ جيِّدٍ لأضافوا له صفة «دموي»: «A bloody good story». لقد نبَّهتني، على الأقل، أسماء الحانات الإنكليزيَّة المكرَّرة إلى ذاك المزاج الجانح نحو القتل والجريمة: رأس الملك ورأس الملكة. فتخيَّلت بلطةً تجوب الشوارع وتضرب الرؤوس وتقطعها. لكنَّ الأدق، أنَّني أنا التي انتبهتُ إلى أسماء الحانات تلك، إذ تجذبني تلك الأمور: «A bloody good things».

وإذ تصوَّرتُ أمامي بلاد ريتشارد وإيزابيل، سألت نفسي ما الذي خطر في بال إيزابيل لتأخذني معها إلى بلادها؟ سؤالٌ لا أعرف إجابته، لكنَّ سؤالًا ثانيًا أعلمُ إجابته عن ظهر قلب. أعلم ما خطر في بالها لتُعيدني إلى الشام، فهذا ما صنعته بيدي. أبحث عن جواب السؤال الأوَّل في كلِّ مرَّةٍ يرتفع فيها طيف ريتشارد أو إيزابيل فوق رأسي. بحثت كثيرًا مرَّاتٍ كثيرة.

***

لا أنسى ذلك اليوم من شهر آب. كنت في بيت الصالحيَّة حين عادت ستِّي إيزابيل مساءً وحدها من قصر بلودان من دون سيِّدي ريتشارد. سمعت أصوات موكبها في الإسطبل قرب البيت، وسمعت صوتها تقول شيئًا بالإنكليزيَّة لقوَّاص زوجها المفضَّل «حاج علي آغا» فذهبت لألاقيها في أرض الديار أمام الدهليز. تراجعت قليلًا لأفسح لها المجال، المجال كلَّه. بادرتني فورًا بالإنكليزيَّة: «يجب حزم الأمتعة. سأرتِّب قوائم بكلِّ ما عليك فعله، سيكون أمامنا عملٌ شاقٌّ ومضنٍ. عليك أن تصغي إليَّ بانتباهٍ شديد. لن أكرِّر كلامي. تنفِّذين ما أقول وتشرفين على عمل الآخرين. تتابعينهم حتَّى النهاية. هذه مسؤوليَّةٌ كاملةٌ جدِّيَّة. مهمَّةٌ كبرى». مشت باتِّجاه الدرج المُفضي إلى غرفتها، وتبعتُها كي أساعدها، لكنَّها استدركت: «لا كمُّور.. سأكون وحدي. أريد عصير المشمش في غرفتي. الشمس حادَّةٌ جدًّا... آه، شوتني الشام!»

كانت إيزابيل مرتخيةً على الكنبة جسدًا لكن متيقِّظةً كهرَّةٍ على وشكِ الانقضاض حين دخلتُ بالعصير الشاميِّ البارد. لم تنظر إليَّ، رأيت لونًا أصفر في أزرق عينيْها. بادرتني بحركةٍ من يدها من دون أن تنظرني لأجلس على البساط القرمزيِّ قرب قدميْها البضَّتيْن. جلست. فتحت فمها وتحدَّثت كما لو أنَّها تكلِّم نفسها: «أتعلمين؟ حلمت بالشام

منذ سنواتٍ طويلة، قبل أن أطأها. الشام كانت معنا، ريتشارد وأنا، منذ البداية. حين طلبني للزواج، سألني إن كنت أقبل فأذهب معه يومًا إليها..... وحصلنا على مكان حبّنا. أتذكَّر يوم أرسلت له رسالةً إلى ليما في البيرو، بتعيينه قنصل بريطانيا العظمى في دمشق. لكنَّه كان يعرف مسبقًا. بدا الأمر كما لو أنَّ العناية الإلهيَّة غمرتنا هو وأنا. كلُّ تلك الصلوات التي كنتُ أتلوها، مرَّت أمام ناظري وأنا أكتب له عن الأنباء الرائعة بحصولنا على دمشق».

أصغيتُ لكلامها ذاهلةً عن مناسبته. وسألتها بلغتها: «هل أبدأ بحزم الأمتعة ستّي؟». فنفرت وكأنَّها انتبهت: «قلت إنَّني سأرتِّب الأمر أوَّلًا، ومن ثمَّ أقول لك ما عليك عمله. يجب أن تكوني متيقظةً لكلامي، غير ساهمةٍ كما أنت الآن... عليَّ كتابة بعض الرسائل. بإمكانك الانصراف».

حين نزلتُ من غرفتها، رأيت حاج علي آغا القوَّاص في أرض الديار. بادرني: «عرفتِ شو صار؟ سعادة القنصل سافر ع بلادو. هو بطريقو لبيروت هلق. والستّ إيزابيل رح تضب الغراض وتلحقو». ذهلتُ فقد ظننت أنَّني سأحزم الأمتعة من أجل رحلةٍ في الصحراء أو فلسطين ثانيةً. وقبل أن أجيب حاج علي آغا، تبرَّع هو بوصف الأمر الغامض: «مدري شو صار فجأةً، ما حدا عرفان شي». صمت لحظةً وأضاف وهو يمرِّر راحة يده على الراحة الأخرى ثمَّ يصفقهما لمرَّةٍ واحدة: «وأنتِ بح، بترجعي عند الوالد ومرتو».

بقيَت «بح» حاج علي آغا طويلًا في الهواء، برنينها الباتر تطير في فناء أرض الديار وترجعني غصبًا عنِّي إلى حياتي السَّابقة، حياتي قبل

أن تبدأ القصَّة. لكن لم يخطر في بالي وأنا مسمَّرةٌ أمام القوَّاص، وعلى وشكِ التفوُّه بكلماتٍ غير لائقة، أنَّ ثمَّة «بح» أخرى قرَّرتها إيزابيل: بح ما في الشام.

لم تقل إيزابيل «بح» مع أنَّها تعرف الـ «بح» العربيَّة. «بح» حرفان صغيران وينتهي الأمر، كلُّ أمر. وطبعًا على ضفَّة اللُّغة الإنكليزيَّة ثمَّة كلماتٌ لها فعل «بح» نفسه، كلماتٌ تقول: «قُضيَ الأمر». فانتهاء الأمر اختصاصٌ إنكليزيٌّ عرفته، سمعته وعشت معه. هو المرادف للأوامر والتنبيهات والملاحظات والتَّعليمات تهطل عليَّ، مثل مطر بلاد الإنكليز «قططًا وكلابًا». الأمر مقضي، وإيزابيل لا تحتاج للقول، إيزابيل تقرِّر. وقد قرَّرت أن تحزمني مع أمتعتها. ففي منتصف معمعة الحزم وقرارات اللَّحظات الأخيرة عمَّا ستفعل بحيوانات الإسطبل الكثيرة، وجدت وقتًا لتنظر إليَّ وتقول بالإنكليزيَّة: «احزمي أمتعتك كلَّها، وسأرسل حاج علي آغا ليخبر أباك إن لم يكن قد عرف بما حدث من القنصليَّة». فتحتُ فمي لأقول شيئًا أو أحرِّك شفتيَّ ليخرج شيءٌ ما منِّي، لكنَّها تابعت القول، مقرِّرةً عنِّي وعن أبي: «لم أنتهِ من تعليمك بعد، وهذه مسؤوليَّةٌ جدِّيَّة. نذرت نفسي لمهام جسيمة. الأمر لا يتعلَّق بتعليمك ضبط جسدك في مشدٍّ إنكليزيّ، وصفع من يريد تقبيلك، والإصغاء قبل الاندفاع والتفوُّه بألفاظٍ غير لائقةٍ بسيِّدةٍ صغيرة. تلقينك الكفَّ عن تنغيم الكلمات ومطِّها ورفع الصوت، ووجوب التَّحدث بصوتٍ معتدلٍ من دون تنغيمٍ وموسقة. ثمَّة أمورٌ أسمى يريدني الربُّ أن ألقِّنك إيَّاها». رسمَت إشارة الصليب، وأردفَت: «انتهت أجمل أيَّام حياتي. لن أرى الشام مجدَّدًا». ضاقت عيناها برقَّةٍ مباغتة، نظرَت إليَّ وابتسمت بطريقةٍ حزينة. مالت شفتاي بابتسامةٍ قسريَّة، فقد صعدت من جوفي كلماتٌ لم

ألفظها عن تيقُّنها من الحصول على ما تريد: موافقة أبي تلقائيًا، وقبولي أمرٌ مفروغٌ منه. صفنت في لفظ «قبولي». إنَّ أحدًا لم يسألني أصلًا، فأنا سقط المتاع، أقلُّ من الأمتعة التي تُحزم وترتب بعنايةٍ واحترام. كأنَّني سقطت من أغراض إيزابيل ولمَّني أحدهم من الأرض ورماني فوق أمتعتها المكدَّسة والمربوطة بحبلٍ متين. تخيَّلتها تمسك الحبل المتين وتسحب نحو أرضٍ بعيدةٍ أغراضها وأمتعتها وحيواناتها وبيت الصالحيَّة، وفوق كلٍّ هذا أنا. كأنَّني تحصيل حاصل، بل إنَّني تحصيل حاصل.

«بح» هي الكلمة، هكذا فكَّرتُ وابتسمتُ وحدي في العتمة، وقلت لنفسي حين يصل حنَّا عمَّا قليل سأقول له: «بح ما في إيزابيل». كبرت ابتسامتي وصارت مكرًا خفيفًا. قمت من مكاني، ومشيت صوب أرض الديار النائمة في ظلمةٍ خفيفة. «لعلَّها الخامسة والنصف، سيصل حنَّا عند السادسة». نظرت حولي أبحث عن ورودٍ وزهورٍ أقطفها لأسبِّحها في البحرة وأهيِّئ المساء لربَّما يصفو لنا الوقت أنا وحنَّا، إذ إنَّنا وحدنا للمرَّة الأولى من دون ريتشارد وإيزابيل على قيد الحياة معًا أو على حِدة. وحدنا أنا وحنَّا في بيتنا الشاميِّ، وريتشارد وإيزابيل في ضريحٍ لندنيٍّ واحد.

سمعت خطو حنَّا في الدهليز يقترب ويقترب، وأنا في المطبخ أسكب القهوة في فنجانيْن مذهَّبين. تنفَّست عميقًا وخرجت لملاقاته في أرض الديار. وضعت الصينيَّة على الطاولة قرب البحرة، رفعت رأسي، وقلت: «لحظة بس». عدت إليه وبيدي الرسالة. مددتها له. رفع حاجبيْه مبتسمًا مستفسرًا وهو يفضُّها. ثبَّتُّ عينيَّ على قلبه ورأيت كيف يخضُّ دمه ليصعد إلى كلِّ صدره ومن وراء كتفيْه يصل رقبته ثمَّ فكَّه الناحل ووجنتيْه الأسيلتيْن. كنت سعيدةً بالتفرُّج على الارتباك والتلبُّك

والاضطراب تُجمّل محيّاه الباهي. وفكّرتُ سأسمّيه حنّا الباهي بدلًا من حنّا المسك.

رفع حنّا عينيْه الخضراويْن، وتناغم لون الدم في وجهه مع شحوب اللون الأخضر فيهما. صارت عيناه تقريبًا رماديتيْن: «ما نسيتِك». جاءت جملته تلك خفيفة النغمة تستفسر وتتأسف معًا، وتخبر أبعد من معناها البسيط، وفوق هذا مفحمة، إلى درجة أنّني نسيت أن أقول الجملة التي حضّرتُها: «بح ما في إيزابيل». اعتدل صوت حنّا وبدأت أسئلته المقتضبة الملائمة: من أحضر الرسالة؟ أعَرَف بمحتواها؟ أعَرَف بأمر الجنيهات؟ كيف وصلت السكرتيرة الخاصّة ميني غريس بلومن إلى أبي؟ هل علمت قنصليّة بيروت بالأمر أم قنصليّة دمشق فحسب؟ لا أظنني أجبت عن الأسئلة حقًّا، لأنَّ حنّا كان يسأل ويجيب بنفسه.

يعرف حنّا منطق الأمور، لا يتوه تفكيره عند تعرُّجات الأوهام وثنيّات مكائد الأحاسيس. الأمور واضحةٌ في ذهنه غالبًا، وفوق هذا ذاكرته تحت سيطرته. ثمّة اتّفاقٌ بينهما على الحقوق والواجبات، فلا تعكر صفو خاطره وتطنُّ معلنةً أنّه صار أرملًا في الخمسين. بل تطوي الأمر وتعلن أنّه تزوّجني في الخمسين. لا تُنبّهه إلى أنّه الترجمان المعروف الثريُّ الذي اختار ابنة القوّاص خادمة إيزابيل، بل ترنُّ أنّه قطف قمُّور التي تتحدَّث الإنكليزيّة مثله وتجيد كتابة الرسائل وتُتقن أسلوب العيش الإفرنجي. قمُّور التي سافرت وعاشت في أراضي الإمبراطوريّة، ورأت الكثير من العالم المتمدِّن. وحين عادت بدت مثل أميرةٍ تتبختر بثيابها الإنكليزيّة في حارات الشام، تجيد التصرُّف وتتحدَّث بهدوءٍ بصوتٍ معتدلٍ ومعبّر، بفمٍ مضمومٍ وحاجبيْن غير متراقصين.

ذاكرة حنَّا ملك بنانه؛ يبدِّل يومًا لا يعجبه بآخر يعجبه، يخفي ألمًا مسنَّنًا ويظهِر إنجازًا مقدَّرًا. تمامًا مثلما يفعل بالأمثال التي جمعها، يُبدِّل ألفاظها ويبتسم فيتحوَّل مثل «المرا من غير زوجها متل الطير المقصوص جناحها» إلى «حنَّا من غير قمُّور متل الطير المقصوص جناحها». يتأنَّى لحظةً ويتابع «وهادا كيف بيصير؟ يلي زوجها معها بتدوِّر القمر بأصبعها. ما أنا القمر معي».

لم يته تفكير حنَّا إذن، عرف كلَّ شيء، عرف أنَّ أبي زارني وقت الغداء وأكلنا عدسًا ولبنًا مع خيار، ولم يخبرني بشيء. انتظر أبي وقت القهوة والشاي والنارجيلة ليخبرني. جلس وسحب نفسًا عميقًا وقال إنَّ بحوزته رسالةً لي من بلاد الإنكليز، وصلته إلى البطريركيَّة الأرمنيَّة حيث يعمل قوَّاصًا بعدما ترك قونسلاتو بريطانيا العظمى سنوات بعد إبعاد ريتشارد. مدَّ الرسالة منتظرًا أن أفضَّها وأقرأ فحواها بصوتٍ مرتفع، وفعلت. فجاء الصمت وجلس بيننا كعادته.

✹✹✹

على مدى العمر تقريبًا كان الصمت ثالثنا أنا وأبي، لا تكسره إلَّا تلك المواجهات العائليَّة القاسية الممتلئة باللوم المتراكب المتطاول والحزن والأسى. لحسن الحظِّ أنَّ تلك المواجهات لم تكن كثيرة، أصلًا ما كان مسموحًا لي أن تكون كثيرة. واجهته مرَّتيْن في حياتي: حين أردت سماع موافقته «التلقائيَّة» عن قرار إيزابيل اصطحابي مع أمتعتها، وحين استقبلني مع صناديق ملابسي التسعة في بيروت بعد ثلاث سنواتٍ وثلاثة أشهرٍ بالضبط. وفي المرَّتيْن تعرَّج الكلام إلى دروب الألم. بدلًا من السؤال عن الموافقة التلقائيَّة المفروغ منها إنكليزيًّا، سألته عن أمِّي. قلت إنَّني أريد أن أعرف أين كان حين كانت مرميَّةً في أرض الديار، ومن وضعنا، أنا وأخويَّ حنًّا ونخلة وعمِّي سمير، في غرفة جدَّتي هيلانة، وأين كانت جدَّتي هيلانة؟ وكيف ظهر أمام بيت الأمير عبد القادر فجأةً صامتًا غير قادرٍ على ردِّ عيني أمِّه هيلانة عنه حاملًا أختي الرضيعة؟ ولماذا قرَّر أخذنا إلى قرية المسميَّة في اللجاة؟ أكان يعرف دله مسبقًا قبل أن يتزوَّجها؟ وأين كان حين جزَّت لي زوجته دله شعري الطويل بعد عودتي من الكنيسة يوم مناولتي الأولى؟

كنت أسأل وأبي ينكمش ويقطِّب حاجبيْه وتنفجر عيناه بالسخط. يقذفني بجملٍ قاسيةٍ عن تحمُّلِه ما لا يُحتمَل في التاسع الملتهب من

تمُّوز ذاك، وكيف أنَّ المسدَّس الطويل الذي اشتراه بمبلغٍ باهظٍ ليدافع عنَّا لم يعمل. وأنَّه لم يستطع النزول من المشرقة إلى أرض الديار لإنقاذ أمِّي لأنَّ أختي الرضيعة ريثَّا كانت تنام على حضنه. ففكَّر أن يودعها لدى جارتنا سلمى. قال إنَّه صعد من المشرقة إلى سطح الدار وأراد أن يصل إلى سطح دار الجيران، ليودع أختي الرضيعة ويعود ليدافع عنَّا. رجلٌ ثلاثينيٌّ يحمل رضيعةً ويركض من سطحٍ إلى آخر، فيرى فراغاتٍ بين سطوح الغرف المتلاصقة. يدور حول نفسه ويبحث عن مسربٍ على السطوح يُفضي إلى درجٍ ينزله، فلا يرى.

كانت الغرف تنخفس واحدةً وراء أخرى، والغبار الخزفيُّ يملأ سماء باب توما الزرقاء، ويشكِّل غيومًا من طينٍ جاف. فتوقَّف عن البحث عن شيءٍ يفضي إلى أرض ديارٍ ما، ورفع عينيْه ورأى النيران تطوي البيوت، تقلع عنها غرفها غرفةً غرفةً كما تُقلع العيون. شمَّ رائحة اصطلاء التبن والقشِّ والطين بالنار، تنشَّق رائحةً بنِّيَّةً كتيمةً مثل الفخَّار المشويّ. وشاف بعينيْه كيف تتعرَّى البيوت وتظهر عواميد الخشب مترنِّحةً ثمَّ تنداح. قال إنَّه تحمَّل ما لا يُحتمل وهو يقفز بين سطوح الغرف المخفوسة، وكيف شاف من علٍ من «نظرة طائر» كلَّ الذين ذُبِحوا. كان يتفرَّج على البلطات والفؤوس والمناجل والسكاكين وهي تسلِّم سلامًا حارًّا على جيرانه وأصدقائه واحدًا واحدًا وتعرف أسماءهم اسمًا اسمًا. ورأى رجالًا وشبابًا، بل وأطفالًا، يحصدون الأثاث والأبواب، الصناديق والكراسي، الطاولات والثريَّات، الثياب والأواني، ويركضون بما يحملون. رآهم على الجمال، على البغال، راجلين، راكبين وكيفما اتَّفق. كيفما اتَّفق كانوا يفعلون ما لا يُحتمل. سمع أصوات كلِّ شيء؛ خبطات الأقدام، الأجراس الفولاذيَّة وهي تهوي، الصراخ والعويل.

صوت الهواء تحرّكه بلطةٌ أو فأس، وأنين بابٍ يتكسَّر، ولغةٌ جديدةٌ لا تنتمي للغات البشر. قال إنَّ لغةً جديدةً قبيحةً طغت وفحَّت وصمَّت أذنيه. لها هسيسٌ معدنيٌّ وألفاظٌ مسنَّنةٌ كأنَّها محض إبرٍ ومخارزٍ وأشواك، تلفُّ الحيَّ وتنقضُّ عليه. قال إنَّه تحمَّل ما لا يُحتمل، سجينًا على سطوح باب توما مجبورًا على الفرجة، حاملًا بين ذراعيْه رضيعته، يضمُّها بقوَّةٍ إذ لا يقدر أن يصمَّ أذنيْه عن الصراخ العالي لكلِّ أهله وناسه، ولا أن يغمض عينيْه لئلَّا يرى كابوس ذبحٍ لا نهاية له. تفرَّج غصبًا عن عينيْه المغمضتيْن وسمع غصبًا عن أذنيْه الصمَّاوتيْن، وتنفَّس غصبًا عن أنفه رائحة الجريمة.

بقي أنطون فتَّال معلَّقًا على السطوح، أسير «نظرة طائر» القاتلة تلك، وصارت عيناه قتيلتيْن. تلمَّس بين الدخان البنِّيِّ سطوح حيٍّ لم تنخفس غرف بيوته ولم تُقتلع عيونها. شدَّ المسير فوق سطوح على طرف القيمريَّة التي يعرفها بيتًا بيتًا، مدرسةً مدرسةً، كنيسةً كنيسةً، جامعًا جامعًا، خانًا خانًا، سوقًا سوقًا، مشغلًا مشغلًا. رأى مشغل الحرير حيث يعمل فتَّالًا وقد احترقت أنواله الستّ. رأى الأنوال سوداء زرقاء، فقد انخفس نصف سطح المشغل، وبدا مثل كتابٍ مائلٍ على الأرض المبلَّطة بالألوان. وتحته انكشفت الأنوال المتشظِّية بين خيوط الحرير بألوانها القوس قزحيَّة، فأيقن أنَّه في هذه الساعات القليلة فاقدٌ لكلِّ شيء: العائلة والأهل والبيت، وعمله فتَّال حرير.

تقرَّى السطوح في عتمة تمُّوز اللَّاهب، ولمح خيط ماءٍ قاتمٍ لأحد فروع بردى، فعرف دربه. صار يقارن دروب أرض الشام مع دروب أسطحتها، ورنَّت في خاطره المنهك صورة المسيح يسير على الماء. لاح بيت باشا المغاربة الأمير عبد القادر في زقاق النقيب في العمارة

الجوَّانيَّة مثل نجمةٍ للهدى. اهتدى بضوء النجمة وسار في قلب العتمة، متَّبعًا وجيب النهر الناحل، على ذراعيْه رضيعته وفي عينيْه أسف القتيل.

ثمَّ جاء الصمت وجلس بيننا، فرأيت ثوب الحرير الأزرق مقتولًا على جسد أمِّي، نظرت إلى سماء تمُّوز الزرقاء، وطرت مع أبي من سطحٍ شاميٍّ إلى آخر. تفرَّجتُ على الغرف تنخفس وتفطس ثمَّ تموت، وتهبُّ من غبارها الخانق لمعات كِسرات فخَّار زرقاء. ورأيت الأشجار تشهد الجحيم الدَّائر حولها، وهي تبكي وتبرق بأخضرها المتعدِّد من الغامق المسوَّد إلى الفاتح المبيَّض، يطغى على لون الزهور: بيضاء قرمزيَّة حمراء زهريَّة صفراء برتقاليَّة. أمَّا الأزرق فمنسكبٌ بهيٌّ في عناقيد اللحلح المترنِّح والنار تلسعه، أو هو قليلٌ وغامقٌ في زهور «حبال الصبر» المدَّادة. جنانٌ صغيرة، بقع أرض الديار تلك المفتوحة للسماء. جنانٌ صغيرةٌ في قلب جحيمٍ تمُّوزيّ، تتقلَّب في جمره وتشوى كالخزف الأزرق.

❋❋❋

كرَّر حنًّا: «ما نسيتِك. قلتلك أنَّها ما رح»، وتوقَّف عن الكلام مُستفسِرًا. رشفتُ قهوتي ببطءٍ مقصود، ركنت الفنجان وصحنه على الطاولة. ثبَّتُّ عينيَّ في عينيْه، وقلت: «وصيَّة إيزابيل صارت، هي الرسالة والمصاري. بس في ريتشارد.. لازم أعمل». توقَّف حنًّا عن ارتشاف قهوته وقبل أن يضع الفنجان قال بثباتٍ وصوتٍ ملعلع: «لا». كنت أنتظر جوابه هذا. جوابٌ متوقَّع، وقد تدرَّبت كثيرًا لأجد جوابًا لجوابه ووجدت. ثبَّتُّ عينيَّ في عينيْه: «رح أكتب بالإنكليزي». «ما في شي ينكتب، ما حدا بيكتب عن هيك شي، ما بيصير. ما بيصير ينكتب عن هيك شي، قلتلك ما بيصير. لا بالإنكليزيّ ولا بالعربيّ ما بينكتب عن هيك شي، ما بيصير». صمتُّ، شددت شال الصوف على كتفيَّ، نظرت إلى السماء الغامقة: «صار برد منتعشى جوا». نهضتُ قبل أن أنهي قهوتي. اتَّجهت نحو المطبخ، وقفت عند بابه وقلت لنفسي «رح أبقى ساعتيْن هون».

ساعتان هانئتان كي أفكِّر ولمرَّةٍ صحيحةٍ بـ «وصيَّة» ريتشارد وأقرِّر بنفسي، لينقضي هذا الأمر. فلينقضِ على الطريقة الإنكليزيَّة. وضعتُ على الطاولة خمس حزم بقدونس وبدأت بترتيبها وضمِّها بخيطان على مهل، كأنَّني أطرِّز.

في بداية خريفٍ بعيد، والمساء هادئ، نادتني ستّي إيزابيل. خرجتُ إلى أرض الديار، ولم أجدها. سمعتُ صوتها «هون هون كمُّور»، كانت في غرفة الطعام تتناول العشاء مع سيِّدي ريتشارد. دخلت ووقفت قرب الباب أنتظر طلبها. إلَّا أنَّ سيِّدي ريتشارد بادرني وهو يمسح فمه بالفوطة المطرَّزة: «جيبي كرسي واقعدي». كنتُ أبعد الكرسي إلى الوراء لأجلس مثلما طلب منِّي، حين انتقل إلى الإنكليزيَّة: «القسُّ وليام راضٍ جدًّا عن تقدُّمك بالإنكليزيَّة، بالأحرى تحدَّث عن تمكُّنك منها. لديْك الآن لغةٌ ثانيةٌ غير العربيَّة. بدءًا من الغد، ونحن في طريقنا إلى دمشق، أتحدَّث أنا بالعربيَّة وأنتِ تُجيبين بالإنكليزيَّة». صمت ريتشارد قليلًا، وقبل أن يتابع أوقفته نظرةٌ من إيزابيل، نظرةٌ فيها خشيةٌ ورجاء. ثمَّ التفتت صوبي، قائلة: «بإمكانك الانصراف الآن». حين كنت أهمُّ بالوقوف رفع ريتشارد يده، فتسمَّرتُ على المقعد. «يبدو أنَّ الناس حين يأتون إلى دمشق يصابون بمرضٍ أسمِّيه «الأرض المقدَّسة في الدماغ». حتَّى الغريب العابر في هذه الأرض يبدو عرضةً لذهاب العقل. إفساد المشاعر المسموح بها هذا، هو حمى الهذيان التي تجعل هؤلاء المرضى يثرثرون عن الحدائق المعلَّقة وروض الزهور، في حين أنَّ كل ما رأوه كان ذاويًا وقاحلًا. تحت «اللؤلؤة الغاطسة في الزمرُّد» ثمَّة دمٌ وعار. بإمكانك الانصراف الآن».

انصرفت وانصرف تفكيري إلى المعنى من كلِّ هذا الاستدعاء الغريب. لم يتلكَّأ المعنى وجاء في الصباح.

أربعة صباحاتٍ في الأسبوع، كنت أمشي وراء سيِّدي ريتشارد من الصالحيَّة إلى الشام. أمامنا قوَّاصان؛ قوَّاصٌ نسيت اسمه، والقوَّاص حاج علي آغا بثيابه الملوَّنة وشاربيْه الطويليْن. وصوت عصا ريتشارد

بمقبضها الفضيّ ينقر الأرض عند كلّ خطوةٍ من خطواته الواسعة. وكنت أرفع طرفي القماشة البيضاء كالخيمة التي تلفُّني من رأسي إلى قدمي، لئلَّا أتعثَّر. ما إن يلوح السراي وقنصليَّة بريطانيا العظمى حتَّى يلتفت ريتشارد نحوي، ويقول: «سلِّمي على القسّ وليام». ويشير بيده للقوَّاص كي يرافقني إلى حيث يسكن القسُّ غير بعيدٍ من سوق مدحت باشا. أرتبك من منظري النافر، فأنا أمشي وأمامي قوَّاص. أشكر الغطاء الذي يلفُّني واهمةً أنَّ أحدًا لن يعرف من أنا.

أرتاح ما إن نصير في الشارع المستقيم، بعد سوق مدحت باشا بقليل، إذ يختفي حاج علي آغا. وأرتاح أكثر حين أصل باب بيت القسّ. أمسك السقَّاطة وأنقر نقرةً خفيفة. ينفتح الباب. أسرِّع خطوي من الدهليز إلى أرض الديار، حتَّى قاعة المكتبة حيث يكون القسُّ وليام جالسًا أمام الطاولة الكبيرة تعلوها تلالٌ من الكتب. يبدأ الدرس بصوت القسّ يقرأ، ويكون عليَّ تدوين الأفعال. بعد أن ينتهي، يبدأ ببناء جملةٍ جديدةٍ من كلّ فعلٍ مُدوَّن، ويكون عليَّ تدوين كلّ «متمِّم» للفعل. يأخذ القسُّ الأوراق التي دوَّنت عليها الأفعال وفعلها. يصحِّح الأخطاء الإملائيَّة وهو يشرح كلَّ كلمة. ثمَّ يعطيني أوراقًا جديدة، ويطلب منِّي أن أكتب لساعتيْن نصًّا مستوحى من النصّ الذي قرأه في البداية. أنصرف لفرضي وينصرف هو لكتبه. لا أتوقَّف عن التمرين اللُّغويّ إلَّا حين أسمع صوت طرق معدن سقَّاطة الباب، أتغطَّى بالأبيض وأخرج من بيت القسّ. أسير والقوَّاص أمامي من حارة بيت القسّ إلى شارع المنكنة حتَّى القنصليَّة. ومن القنصليَّة حتَّى الصالحيَّة يسير موكبنا: القوَّاصان ثمَّ ريتشارد وعصاه، ثمَّ أنا.

لكن ذلك الصباح الحامل المعنى لم يفسِّر استدعاء الأمس وكلامه الغريب فحسب، بل اقتلع وهم الطمأنينة التي نسجتُها لنفسي

منذ بدأت بخدمة ستّي إيزابيل. كنت أسير وراء سيّدي ريتشارد في طريق الصالحيَّة، حين غرز عصاه في الأرض والتفت إليَّ: «في عندك فرض اليوم. تعي امشي هون جنبي» وحرَّك عصاه ورسم قوسًا حطَّ قربه: «هون». تقدَّمت قربه، فسار وسرت إلى جانبه. «في فرض مهم بدّك تنفّذيه. بتشوفي الناس بباب توما. ناس بتعرفيهون. سكنوا بالبيوت الجديدة. بتحكي معهون. احكي عن حالك مشان بيحكوا عن حالهون». كنت أصغي من دون أن أفهم ما يريد. توقَّف وغيَّر اللُّغة: «هل تفهمين ما أقول؟». «ليس تمامًا». «حسنًا، سيكون عليَّ الشرح لمرَّةٍ واحدةٍ بالإنكليزيَّة. أريد منك أن تزوري الناس في باب توما كلَّ يومٍ بعد الدرس مع القسّ وليام. ناسٌ تعرفينهم، جيران، أقارب، أصدقاء، غرباء، معارف، لا يهمّ. المهمُّ أن يكونوا ساكنين في البيوت الجديدة. تحدَّثي معهم. تحدَّثي عن نفسك، ليتحدَّثوا عن أنفسهم. اسأليهم عمَّا حدث يوم ماتت أمُّك. اجمعي قصصهم عن ذلك اليوم والأيَّام القليلة التي تلت. وحين تصلين إلى القنصليَّة تدخلين إلى مكتبي. تجلسين أمام طاولةٍ في الزاوية وتدوِّنين كلَّ يومٍ قصَّة. فهمت؟ تجمعين القصص من الناس وتدوِّنينها. فهمت؟ هذه مهمَّةٌ ستقومين بها كلَّ يومٍ بعد الدرس مع القسّ وليام، يجب أن تكون لديْك كلَّ يومٍ قصَّة. لديْك كلَّ أسبوعٍ أربعة دروسٍ مع القسّ وليام، إذن تُدوِّنين أربع قصصٍ أسبوعيًّا. هذه مهمَّةٌ عليك تنفيذها».

***

انقضت الساعتان الهانئتان، ولم ينقضِ الأمر. جهزَ العشاء، وبقيت الجملة الإنكليزيَّة «هذه مهمَّةٌ عليك تنفيذها» تدور في رأسي، لكن ليس بصوت ريتشارد، بل بصوتي. جهَّزتُ طاولة العشاء مبتسمةً، فقد جهَّزتُ أيضًا حبال الصمت المرتخية فوق كلماتنا، أنا وحنًّا، تجيء مع سيرة ريتشارد وإيزابيل. وحين لاحت في خيالي عينا حنًّا المستفسرتيْن، وخشيت أن تقطعا حبال الصمت وتجرًّا الكلام. أغمضتُ عينيَّ وخفضت رأسي، ثمَّ رفعته وهمست لخيال عينيْه الخضراوين: «أنا قرَّرت. ما فيك تعمل شي، بح».

على طاولة العشاء بادرتُ حنًّا مبتسمةً: «رح روح بكرا الصبح زور عمّي سمير ومرتو». هزَّ حنًّا رأسه ثمَّ نظر إليَّ، أخفضت بصري لأتجنَّب سيرة الاثنيْن الراقدين في ضريحٍ واحد. وحين رفعتُ عينيَّ ثانيةً لاقتني نظرة حنًّا المستفسرة. نظرةٌ فيها أكثر من سؤال، لكنَّ أسئلتها الوفيرة تدور حول أمرٍ وحيد، أمَّا أجوبتي عنها المحضَّرة جيِّدًا، فلن أنطقها. توَّهت الأسئلة وأجوبتها، وقلت: «صار زمان ما زرتو، ما بطول برجع ع الخمسة».

جاء الصباح وطقوسه. نظرْتُنا كأنَّني معلَّقةٌ في السقف الخشبيِّ، ورأيتنا:

«زوجان هادئان يشربان قهوتهما ببطء. كلامٌ مقتضبٌ خفيفٌ لتنظيم يومٍ آخر من أيَّام الشتاء الشاميِّ، ثمَّ يفترقان، هو إلى أعماله الرائجة التي لم تعرف ركودًا يومًا، وهي إلى نفسها، ثمَّ إلى زينتها. تتلكَّأ في اختيار الثياب؛ تتحسَّسُ قماشها، وتخمِّن من ملمسها مدى مناسبته للطقس والمزاج. لحظاتٌ قليلة، ثمَّ تبدأ بظهر كفِّها نفض الملابس المعلَّقة. وعند كلِّ ضربةٍ خفيفة، تتذكَّر عمر كلِّ ثوبٍ وكيف اقتنته».

أقفُ شاردةً وأنفض ثيابي، ثمَّ أنتبه إلى أنَّني بتُّ أُحادث نفسي بالعربيَّة الفصحى، فعرفت أنَّني بدأتُ الكتابة في ذهني. ابتسمت، وحين صفقت باب البيت ورائي، قرَّرت التدرُّب على الكتابة في ذهني. أينما وقع نظري تنبع الكلمات وتشكِّل جملًا مترابطةً وسليمةً حدَّ أنِّي لو نزَّهتُها سارحةً بارحةً بين العربيَّة الفصحى والإنكليزيَّة، لرجعَتْ إليَّ مسرورةً من مشوارها اللُّغويّ.

لا يبعد بيت عمِّي عن بيتنا كثيرًا، فالحيُّ أصلًا صغير. في طرف الشام من شرقها، وله من الأبواب ثلاثة: باب توما وباب شرقيّ وباب كيسان. تصوَّرت الأبواب ما إن لفظتها، إذ ما زلت في أوَّل الطريق، أتعرَّج مشيًا مع تعرُّجات الحواري. أنظر إلى أبواب البيوت الخشبيَّة المشغولة، وتنهض أمامي أسماء أهلها، ووراء كلِّ اسمٍ قصَّة. خمَّنت عدد القصص التي أعرفها، فوجدتها تفوق العدَّ لكنَّها نائمةٌ في أوراق الصندوق الخشبيِّ المقفل، وأنا قرَّرت أن أوقظها، وقبل أن أفعل أردت رؤية عمِّي.

«عمِّي» لفظٌ صغيرٌ رفَّ في الهواء فلعلع الصوت الضاحك: «أنا يلي بيخبِّر القصص، أنا أحسن واحد بيخبِّر قصص». تعرَّجتُ

مع تعرُّجات الحواري، واخترت دربي مقتربةً أكثر ما استطعت ناحية السور وبقاياه. أحفظ انحناءات الحواري كما أحفظ خطوط يدي، أعلم كيف تتقوَّس بحنان، لتعطي فعل «دلف» معنى أرق. تلتفُّ وتتشعَّب كنباتاتٍ غير مشذَّبة. تضيق وتنفرج قليلًا، وتميِّل زوايا البيوت. أميل مع البيوت المائلة المتلاصقة، وقلبي أبدًا جهة السور، لأنَّ بيت عمِّي مرتاحٌ على السور بعد باب شرقيّ بأربعمائة خطوةٍ وخطوة. معلَّقٌ فوق الأحجار القديمة، وغرفه الطينيَّة متراكبةٌ على كتف السور. أنت ترى هذا إن خرجت من الباب الشرقيِّ صوب باب كيسان ونظرت الشام من خارجها. ترى غرف البيوت بلونها الشبيه بلون الغروب البارد، تجمع الهشَّ في الأعلى إلى الصلب في الأسفل، فيمتزجان. يصير الصلب هشًّا لفرط جمال البيوت، والهشُّ صلبًا لاستناده على جملةٍ من الإنجيل: «فأخذه التلاميذ ليلًا وأنزلوه من السور مدلِّين إيَّاه في سل». أحفظ الجملة بصوتيْن: صوتي وصوت عمِّي. الجملة منِّي تطلع من الكتاب المقدَّس صافيةً من غير شوائب. وتطلع من عمِّي مزدانةً بقهقهته العذبة وهو يكرِّر لي ولزوجته سعيدة، السعيدة دائمًا منه، روايته الخاصَّة عن السلَّة النازلة من السُّور الشاميِّ حاملةً بولس الرسول لينجو. يصرُّ عمِّي سمير أنَّ بولس الرسول نزل تمامًا من كتف بيته. يأخذنا أنا وسعيدة إلى الغرفة العالية، يفتح شبَّاكها ويدلِّي رأسه منها، ويمينه السَّمراء تمتدُّ إلى الأسفل وتشير. أرسم إشارة الصليب وترفُّ عيناي من دون إغماض، فألمح السعادة على وجه زوجته سعيدة وهي على وشك أن تذوب سرورًا، إذ لا شيء في مرمى نظرها إلَّا عيني عمِّي سمير. يغلق عمِّي الشبَّاك وترنُّ جملته الأثيرة بين صوتي ضحكهما معًا: «ولقيت السلَّة كمان».

بقيت من الأربعمائة خطوةٍ وخطوة، أربعةٌ وأربعون خطوةً لأصل وأدلف البيت، بيت الحبِّ الذي لا ينتهي ولا ينقضي؛ الذي لفرطه أخال نفسي دوريًّا فضوليًّا يقفز فرحًا بما يرى. فأنا أرى من الزهور ألف زهرةٍ وزهرة، كلُّها ريَّانةٌ ممتنَّةٌ ليد سعيدة الخضراء. سعيدة وزهورها كلُّ القصَّة. تزرع بيديْها، وتربِّت على التراب بحنان، وتروي بكرم، وتشذِّب بحذر، وتؤلِّف أغنياتٍ خفيفةً لكلِّ نبْتٍ جديد. الألوان كلُّها في أرض الديار هذه التي كنت أجدها مرَّةً أصغر ومرَّةً أكبر كلَّما زرت العاشقين. فعشُّ الحبِّ هذا يغيض ويفيض بأزهار سعيدة، تنبت وتعلو على إيقاع الفصول. شأنها في الغيض والفيض شأن نهر التيمز اللندنيّ. يكاد يغمر فسحات الحانات والمقاهي على ضفَّته جهة تشيزيك والشمس تجلس في السماء، ثمَّ يكاد يغور في سريره والشمس تتأهَّب لنومها. وزهور سعيدة تتحرَّك في حلقاتٍ تكبر وتصغر حول الحبِّ المرتاح. تكبر حلقات الزهور فتختفي جدران البيت، يتبخَّر السور، ويمتدُّ العشق صوب زنَّار الشام، لتصير أرض الديار قطعةً من غوطتها. تصغر حلقات الزهور، فتندمج بصورتها فوق حوافِ صحن البورسلان أمامي. آخذ اللقمة الأخيرة، فتظهر صورة روميو وجولييت. رفعت رأسي، وقلت لسعيدة: «ما في أطيب من هيك، يسلمو إيديك». وهي كانت واقفةً تتهيَّأ للمزيد كعادتها. تبتسم وتقول شيئًا ما، فأتملَّى تناغم لون ثوبها البنفسجيِّ مع شجرة الفتنة وراءها. تطلُّ الزهور البيضاء الفوَّاحة من كتفيْها، وتوحي أنَّها تُكلِّلها أيضًا. وليس الإيحاء وهمًا أو خيالًا، الإيحاء نصف القول. كلماتٌ تشير إلى المعنى غَبَّ تكوُّنه. الفتنة كلَّلَت سعيدة بإكليل الزواج. فتلك الشجرة الساحرة جاءت في موكب العرس الماشي من زحلة إلى الشام، منذ ثمانيةٍ وعشرين عامًا. أصرَّ عمِّي أن يأخذ شجرة

الفتنة من بيت تلك التي فتنتهُ في ظلالها: «بجيبك أنت والفتنة، هيك بضل مفتون للأبد فيكِ وبشجرتك».

كم مرَّةً سمعت عمِّي يُخبِّر قصَّة الشجرة؟ مرَّاتٍ تفوق العدّ. ساهمةً كنت حين جاء صوت عمِّي «في بعيونك حكي جديد». هززت رأسي مبتسمة. لم ينتبه عمِّي لابتسامتي، فقد خطفته حبَّات العنب تعلو جاط الفاكهة الكحليِّ المحمول بيدي المكلَّلة بأبيض الفتنة. وقبل أن تضع سعيدة الجاط على الطاولة، سرق عمِّي حبَّة عنبٍ من هامة الفاكهة، نتف أخضرها ومدَّها صوب شفتي سعيدة المضمومتيْن. ألقمها الحبَّة، ورأيت بعينيَّ قبلةً ريَّانةً ترتفع من صحن روميو وجولييت وتندغم بمشهد العاشقين.

ولو تصوَّرتُ عمِّي يُخبِّر قصَّة الفتنة، لمزجتُ روايته المحكيَّة بالفصحى مبعثرتيْن تنفردان وتتآخيان. قال عمِّي «أنتِ ما انتبهتِ، كنت زغيرة. سعيدة كانت بنت جيراننا بالجورة» ثمَّ يضحك ويكرِّر «كانت بالجورة».

فأرى تلك الناحية في حيِّ باب توما الناظرة إلى باب السلام، عند السور المنحني موازيًا أحد فروع بردى وقد نحل مثل شلَّة الحرير. نحن في أقصى شمال شرق الشام، وشمال شرق المدن الكبرى يكون غالبًا الأفقر، تختلط فيه الورش بالبيوت والمشاغل. ولو ذكَّرتني يا عمِّي بإقامتي الإنكليزيَّة كما دأبُك، لرويت لك عن الشمال الشرقيِّ اللندنيّ، الذي شفته مرَّةً وحيدة، وعلَّمني بؤسه البادي قراءة المدن، تعلَّمتُ أنَّ شرق المدن للفقراء وغربها للأثرياء غالبًا. ليست تلك قاعدةً صحيحةً بدقَّةٍ بل بالإجمال، والدرس لا يأتي من القاعدة، بل

من وجودها، فأنّى وجدت القاعدة سليمة، عرفت أنَّك في مدينةٍ كبرى. في لندن رأيت الشام مدينةً كبرى. وما إن لاحت الجملة في ذهني حتّى ابتسمتُ للمفارقة؛ مدينةٌ كبرى ولها جورة. وفي الجورة كان بين من كان الدبّاغون.

«وكنت روح عند أهلها، اخترع حجّة وروح لشوفها» ثمَّ يضحك «زرت أهلها كتير، زرتهون عن عمري كلُّو». يتوقَّف ويتابع بنبرة المكر خاصّته «هيك لحد ما إجا يوم الطوشة.. لا تعقدي حاجبيْك يا قمُّور. بعدين بتحكي، الآن دعيني أخبرك القصّة. هي راحت مع أهلها على القلعة، في ناس راحوا ع بيوت مسلمين ونحنا متل ما بتعرفي عند باشا المغاربة... له له له راحت عليِّي». يتوقَّف ويزيد جرعة المكر في نبرته: «وكيف تقولين «له له وراحت عليِّي» بالعربيّة الفصحى يا قمُّور؟» أجيب «هالني الأمر وظننته مقضيًا لا ريب».

إذ ثمَّة قاعدةٌ صحيحةٌ بالإجمال، تقول إنَّ جلَّ من كانوا في بيت الأمير عبد القادر، ظلُّوا في الشام، أعادوا إعمار باب توما، وسكنوها. وسكن بعضهم في حيِّ القنوات خارج السور وراء جامع الدرويشيَّة. وتتابع القاعدة أنَّ جلَّ من كانوا في القلعة، تركوا الشام نحو خاصرتها، متَّجهين غربًا إلى زحلة وبيروت وجزءٍ من جبل لبنان. لهذا، هال الأمر عمِّي وظنَّه مبرمًا مقضيًا. وعمِّي ليس إنكليزيًّا، وبناءً على ذلك، فإنَّ قضاء الأمر أو انتهاءه سيتبدَّد.

ابتكر عمِّي البدد. مثلما يحلُّ قطع الحرير ويصنِّفها إلى أنواع: الرفايع والزغبه والبزله والمشاقه، ثمَّ يلفُّها على الطاق، وتصير لديْه شمُّوطات من كلِّ نوع، حلَّ عمِّي الطرق الطويلة المتشعِّبة بين قرية

المسميَّة في اللجاة حيث سكنّا سبع سنوات، وبين زحلة حيث صارت تسكن سعيدة وأهلها.

انظرْ إلى الخريطة، ابحث جنوب الشام عن قرية المسميَّة في الرُكام البازلتيّ القديم، حيث مرَّت إمبراطوريَّة روما ثمَّ راحت. ارفعْ بصرك، ستدلُّكَ الأشجار الزمرديَّة على واحة الصحراء، الشام. أنت لن تخطئها، فهي كما تخبِّر الكتب ريشة طاووسٍ من الجنَّة. ارفع بصرك ثانية، واتبع نهرها منها إلى منبعه في جبال لبنان، وبعد الجبل، ثمَّة عروسٌ اسمها زحلة، وفيها بيت العروس سعيدة. انظر الخارطة «نظرة طائر»، وتخيَّل الدروب شلَّاتٍ حريريَّةً ملفوفةً على شمُّوطات. خذ الشلَّات إلى الفتَّال، يبلُّ الحرير بالماء ثمَّ يفتله على مواسير، يُركِّبها على حلقتيْن من جلخات صندوقٍ مخصوص، يحرِّكه دولابٌ كبير، ويشغل «شكّ الدولاب». وإذ أنهى الفتَّال عمله، احملْ الحرير المفتول إلى المسدِّي ثمَّ المزايكي فالملقي فالحائك فالدقَّاق. هل انتهيت؟ تفرَّج إذن على شال الحرير الممتدِّ من المسميَّة إلى زحلة، ممسوكًا بأنامل عمِّي، رائحًا راجعًا غاديًا قافلًا بين المكانيْن.

«وصلت ع زحلة بحجَّة الحرير، صرت فوت ع الدكاكين بيع الحرير وأسأل عن أهل سعيدة» يضحك ويقول «لصير سعيد». صار البدد يتلحلح كلَّما ألقى سمير فتَّال السُّؤال، وبدأ يتبدَّد حين رنَّ السُّؤال في باحة الكنيسة الزحلاويَّة «أينها السعيدة؟».

«الخوري عم يحكي ويدلّني ع طريق بيت أهلها، وأنا مش شايف شي، لا مبلى شايف، شفت البيت، تصوَّرتو براسي. صحي أنا مفتون «من رأسي حتَّى أخمص قدمي» بس ما خطر ببالي تكون سعيدة بس أوصل واقفة متل الأميرة بالجنينة ووراها فتنة. كأنَّها تنتظرني».

قالت الشجرة إنَّ مزاجها كان رائقًا في نهاية ذاك الربيع الزحلاويّ حين نظرت سمير وسعيدة في خلفيَّة المشهد. خبَّرت ظلَّها، أخاها الصَّغير، عنهما، وطلبت منه تخفيض حرارته ليتنشَّق العاشقان رائحة أزهارها الفتَّانة. قالت الشجرة إنَّ رائحة أزهارها ستسكن منذ هذا اليوم في ذاكرتيْهما. سيظنَّان كلَّما هفَّت الرائحة أنَّني شجرة الفتنة كنت في خلفيَّة المشهد، لكنَّني المشهد كلُّه. وحياتي السرِّيَّة كاملةٌ ومكتوبةٌ في نسغي. أقف أعلى من البشر أنا الباسقة السامقة، أنظر بأوراقي، أتحدَّث بجذوري وأشمُّ بأطرافي متناهية الصغر.

وقفت شجرة الفتنة وسط الحديقة الصَّغيرة، ورأت عمِّي قادمًا من بعيد. فأرخت غصنيْن على هالة الحبِّ تجلِّل قامة سعيدة. زادت الشجرة جرعة الأخضر وزيَّنت الكتفيْن بضمَّتيْن فوَّاحتيْن. وإذ رأت شجرة الفتنة عيني عمِّي البنِّيتيْن البرَّاقتيْن تذوبان مثل قهوةٍ قديمةٍ فترمشان خمر الحبّ، قرَّرت أن تتسامق وترتفع. تسحب من تحتها جذرها العميق الملتحف بالتراب، وتستعير من الحمامة جناحيْها، وتطير شامخةً فوق موكب العرس الذي حدست به ماشيًا من زحلة إلى الشام. قالت الشجرة إنَّها سمت وعلت وسبحت في الهواء السائر بين المدينتيْن. ارتاحت في أرض الديار الشاميَّة تلك، لم تحسَّ بالغربة البتَّة، فما كانت يومًا في خلفيَّة المشهد. قضي الأمر، قرَّرت شجرة الفتنة وبدَّد عمِّي كلَّ البدد.

نظرت شجرة الفتنة إلي، وقالت مع عمِّي: «في بعيونك حكي جديد». «مزبوط جديد وكتير كمان» قلت. أعلمتُه بوفاة إيزابيل ورسالتها وجنيهاتها الإنكليزيَّة، واخترت لذلك جملًا خبريَّةً واضحة، لا تحتمل التأويل لئلَّا يُقاطعني. وكان نبر صوتي جدِّيًا لئلَّا تنهمر منه تعليقاتٌ

تخفِّف ثقل الكلمات وهي تنزل من ذهني لتخرج من فمي موجوعة. «القصَّة مو هون، القصَّة حنَّا» وصمتُّ كي أسمع سؤاله المنتظر. بادلني عمِّي الصمت بصمتٍ أقوى. «يعني القصَّة القديمة نفسها. ما وافق أنو أكتب، وأنا بدي. بدي، بس ما بقدر زعِّل حنَّا»، قلت.

وضع عمِّي راحته على شعره الأبيض، وقال بمحكيَّةٍ لا تعجبني كلماتها وأريدها عربيَّةً فصحى، جملًا عن القصَّة القديمة إيَّاها، التي جعلته أبيض الشعر في السادسة عشرة من عمره. أتذكَّر بدقَّةٍ سواد شعر عمِّي لامعًا مساء رؤيتنا الأمير عبد القادر ضيوفًا ناجين من مقتلة باب توما، وأسهو عن قصدٍ عن وقت ابيضاضه. فيأخذني صوت عمِّي: «بدك تكتبي عن يوم يلي شبت؟». أجبت «لا».

لا، فقد ابيضَّ شعر عمِّي في قرية المسميَّة حيث سكنَّا سبع سنوات، لم يبيضَّ في الشام. وأنا انتبهت إلى اللَّون الأبيض حين قال لي واضعًا راحته على شعره مثلما يفعل الآن، ليخفِّف عنِّي سوء ما فعلته بي دله زوجة أبي بعد الظهر ذاك: «لا تبكي قمُّور، بكرا بيطول شعرك، شوفي كيف شعري صار أبيض ما عاد يرجع أسود، بح» وضحك عمِّي. لم أسمع صوت ضحكه فأنا ما زلت أسمع صوتي باكيةً أقول لأبي «دبحتلي شعري، دبحتلي شعري بالسكين». تتَّسع عينا أبي المغمَّستيْن بالاستسلام لشروخهما العميقة. عينان منكسرتان صامتتان، ثمَّ جملٌ سخيفةٌ تصدر من شفتيْه، تُسخِّف شكواي وتستخفُّ ببكائي. تجيء عينا عمِّي الذائبتيْن بقهوتهما، تتَّسعان بالحبّ. يأخذ بيدي صوب زاوية الأشجار خارج البيت البازلتيّ، ويجلسني على الأرض قربه، ثمَّ يغيب لدقيقتيْن ويعود حاملًا شال حريرٍ أخضر، ويلفُّه على رأسي، وتنبع من

كفَّيْه قطرات ندى وهو يُرتِّب الحرير فوق شعري القصير المنفوش ألمًا: «ما تزعلي بكرا بيطول شعرك وبيصير متل الحرير».

ما زلت أذرف الدمع، وأحسُّ قبضة دله المحكمة تشدُّ شعري. تأخذه كلُّه بقبضتها الضخمة، وبقبضتها الثانية شيءٌ معدنيٌّ يجزُّني. صوتها القبيح يفحُّ: «ألف مرَّة قلتلك بالكنيسة ما بتفردي شعرك، بس أنتِ حمارة وما بتفهمي». تجزُّ وتجزُّ وترمي الخصلات بقوَّةٍ على التراب: «يا حمارة، يا حيوانة، ما بتفهمي. روحي من خلقتي ما أبشعك». ورحت بسرعةٍ لئلَّا تضربني، وتمنَّيتُ من قلبي لو أنَّ الكنيسة التي فيها أصغينا أنا وجدَّتي هيلانة وأخوي حنَّا ونخلة وعمِّي الصَّغير وأبي وزوجته القاتمة، إلى صوت الخوري يقرأ من الإنجيل بعد دفن أختي ريتَّا، لو أنَّني أختفي مثل ريتَّا، لئلَّا تنظرني عينا دله القبيحتيْن. تخفض دله رأسها، وتصوِّب إبرتيْن حادَّتيْن ناحيتي أينما كنت، فأشعر بالكراهية تلحقني وتنقضُّ عليَّ.

وضعت راحتي على شعري الأسود، وأرجعته إلى الوراء: «رح أكتب بالإنكليزيّ مو بالعربيّ». كنتُ على وشكِ إخبار عمِّي عن خطَّة الكتاب، لأنَّ الكتاب كلَّه تقريبًا جاهزٌ ويسكن في ذهني، تلزمه فقط تفاصيل أساسيَّةٌ عليَّ حسم أمرها، قبل أن ينزل من ذهني وينسكب حبرًا على الورق.

كنت على وشكْ، لكنِّي لم أفعل، فقد نبَّهني صوتُ عمِّي: «مو عن يوم الشيب؟ لكن شو؟». وأضاف: «شكلِك مقرَّرة، اخترتِ اللُّغة كمان. بيجوز حنَّا ما يزعل إزا بالإنكليزيّ، ما بعرف أنتِ أدرى بجوزِك». استدرك، ثمَّ سأل بالفصحى أو لعلِّي توهَّمت: «ستكتبين

مثلما أملى القنصل البريطانيُّ ريتشارد بورتون؟ تأخذين قصص باب توما التي قطفتيها من أفواه الناس المتألِّمة. تُصنِّفينها وترتِّبينها، قصَّةً وراء قصَّة، قصَّةً طالعةً من قصَّة، وتصير لديْك مجموعة قصص دمشق التي انجرحت عام 1860؟».

أرأيت مدينةً مجروحةً؟ أرأيت مدينةً جرحت نفسها؟ تعال إذن وتفرَّج على المذبحة.

✺ ✺ ✺

انحسرت الشمس عن ثلاثة أرباع أرض الديار في بيت سمير وسعيدة، عمَّا قليل ترنُّ الساعة الخامسة، وعليَّ أن أرجع عند حنًّا.

رجعت عند حنَّا الباهي في تمام الخامسة. فتحتُ باب البيت، وسمعت صوت خطوي في الدهليز المعتم، وقبل أن أصل أرض الديار رسمتُ إشارة الصليب.

دلفتُ أرض الديار. فتح حنَّا باب القاعة الرخاميَّة ومشى باتِّجاهي: «رجعتِ؟ كيفو عمّك ومرتو؟». أجبت «بيسلمو عليك». ثمَّ نظرتُ إلى الباهي نظرةً إنكليزيَّة، نظرةَ من أُذِن لها بالانصراف. بإمكاني الانصراف، انصرفت إلى غرفتنا في الأعلى، وانصرف ذهني كلُّه إلى الكتاب الساكن فيه. وقفت أمام الثياب المعلَّقة، وبظهر كفِّي نفضت الأثواب واحدًا واحدًا، وعند كلِّ ضربةٍ طلعت الجمل المترابطة واحدةً واحدة.

كنت جالسةً أمام طاولة الزاوية في القنصليَّة البريطانيَّة، في مكتب القنصل ريتشارد بورتون. أكتب بالريشة، أغمسها بالحبر الداكن، وحين أرفعها تذرف دمعتيْن. «هذه مهمَّةٌ عليك تنفيذها»، قال سيِّدي ريتشارد، وها أنا أنفِّذ المهمَّة. أجلس في قنصليَّته لأكتب بالعربيَّة وفقًا لتعليماته

الإنكليزيَّة: «تدوِّنين مثلما تسمعين، لا إضافات ولا صفات. معلوماتٌ فحسب. تُغفلين الأسماء، لكن تُحدِّدين الجنس والعمر. تكتبين عن المكان بدقَّة. أين تمَّ الأمر؟ في أرض الديار؟ في الإيوان؟ في القاعة الرخاميَّة؟ في المطبخ؟ في غرف النوم؟ وكيف حاولوا النجاة؟ أين اختبأوا؟ في البئر؟ في القبو؟ في الخزانة؟ على السطوح؟ ومن رأوا من القتلى والقاتلين؟ ما كانت الأدوات المستعملة؟ فأس؟ بلطة؟ منجل؟ سيف؟ سكِّين؟ خنجر؟ أكان من بنادق؟ وكيف نُهِبت البيوت؟ القطع الكبيرة أم الحليُّ والنقود أوَّلًا؟ وهل خُلِعت الشبابيك أم الأبواب أوَّلًا؟ وكيف احترقت الدور؟ كيف أُضرمت النار؟ بماذا قُدِح زنادها؟ وإلى أين هربوا؟ لا تكتبي عن الصراخ ولا العويل، لا أصوات. لا أريد سماع أيِّ صوت. فهمت؟ تجمعين المعلومات التي ذكرتها لك وتضعينها في جملٍ منفصلة. لأنَّك تجمعين لا تكتبين».

كنت جالسةً أمام الطاولة الخشبيَّة في غرفة الظلال في الطابق الثاني في بيتنا الشاميِّ، أنا وحنَّا. أمامي صندوقٌ مفتوحٌ وكتبٌ وأوراق المخطوط القديم وأوراقٌ جديدة. أغمس الريشة بالحبر الداكن، أنتظرها لتذرف دمعتيها وحدها وأكتب بلغة شكسبير.

«وضعتني أمِّي لصق البحرة أنا وسلحفاتي الصَّغيرة، غطَّستها في الماء كي تخرج من جسمها الصَّلب وتبترد قليلًا، لكنَّها لم تخرج».

حدَّقتُ في الجملة الأولى، قرأتُها مرَّتيْن قبل أن أمرَّ بأظافري على حاجبي. لا أستطيع محوها، ولا يعجبني الدرب الذي تخطُّه. غمستُ الريشة ثانية. تناولت ورقةً جديدة، ووضعتها فوق الأولى. فغامت الكلمات الإنكليزيَّة.

أخذت إحدى أوراق المخطوط القديم تلك التي كتبتها للمرَّة الأولى بـ «نجاح» في القنصليَّة، وبدأت أقرأ بالعربيَّة الفصحى:

امرأةٌ في الثلاثين. سبع ضربات خنجر. اثنتان في الصدر. اثنتان في البطن. وثلاثٌ أسفل الرقبة. على أرض غرفة النوم. قرب خزانة الصدف.

رضيعة. خمس شهور. ضربة خنجر. في الصدر. فوق جسد امرأةٍ في الثلاثين.

طفلٌ في السابعة. ضربتان من بلطة. ضربتان على الرأس. على أرض غرفة النوم. قرب خزانة الصدف.

طفلةٌ في الخامسة. ضربتان من بلطة. ضربتان على الرأس. على أرض غرفة النوم. قرب خزانة الصدف.

رجلٌ ثلاثينيٌّ. ضربة سيفٍ بتَّار. رأسٌ مفصولٌ عن الرقبة. قرب الإيوان. أمام باب القاعة.

رجلٌ ستينيّ. سكِّينٌ أو خنجر. ضربةٌ في القلب. أرض الديار. تحت عريشة اللحلح.

امرأةٌ في الستِّين. سكين. عشر ضربات على الظهر. لصق البئر.

حين انتهيتُ من القراءة، غامت الكلمات العربيَّة التي أملتها تعليمات ريتشارد الإنكليزيَّة، ورأيت نفسي في القنصليَّة متلهِّفةً للكتابة أوَّل مرَّةٍ بعد أوَّل زيارةٍ لمن زلزلهم التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر.

أتذكَّر حين دخلت مكتب القنصل سيِّدي ريتشارد، أنَّ قلبي كان يهدأ من نبضاته المخضوضة بسبب الزيارة الأولى، فلم أنتبه

لنظرة ريتشارد الجانبيَّة، تلك التي بطرف العيْن، بجفنٍ نازلٍ قليلًا كأنَّما استعلاءً. برمشه الفولاذيِّ أشار إلى مكتب الزاوية حين كنت أهمُّ برفع الغطاء عن وجهي. ومثل دمى المسرح اللندنيِّ المعلَّقة بخيطان واهية، مشيت صوب المكتب الخشبيّ، على سطحه ريشةٌ ودواةٌ وأوراقٌ بيضاء شاحبة. جلست أمامه، غمست الريشة بالدواة ورحت أكتب بسرعةٍ إذ حفظتُ كلَّ ما قالته لي ندى وردة.

حين كفَّت الريشة عن إصدار صوت حفيفها على الورق، كان ظلُّ سيِّدي ريتشارد قد ارتسم فوق مكتب الزاوية، وقبل أن أرفع رأسي كان يمسك الورقة بيده. لا أتذكَّر شيئًا ممَّا كتبت، لا أتذكَّر إلَّا الأفعال: سمعتُ، رأيتُ، شعرتُ، أحسستُ، خبَّرتني، قالت لي. أتذكَّرها واضحةً بصوت سيِّدي ريتشارد يردِّدها بصوتٍ مرتفعٍ غاضب، ويغصُّ صوته عند الحروف العربيَّة العميقة. ثمَّ انتقل إلى الإنكليزيَّة وبطريقةٍ باترةٍ قال: «You certainly shall not transcribe these using a first person verb».

انحفرت الجملة الإنكليزيَّة في ذهني. فهمتها على نحوٍ مؤكَّدٍ من نظرة ريتشارد وإنكليزيَّته المنبورة وصوت الورقة تتمزَّق بيديْه. كرَّر الجملة الإنكليزيَّة ثانية، ومدَّ أمامي ورقةً بيضاء.

والآن ورقةٌ بيضاء أمامي هنا في غرفة الظلال، أغمضت عيني لأتذكَّر، فرأيت نفسي أسير في «الطريق المستقيم»، ورائي شارع مدحت باشا والكنيسة المريميَّة أمامي. رأيتني أدلف في أوَّل زقاقٍ لمحته، ثمَّ أتعرَّج مع الزقاقات الناحلة كالرماح في حارة السبع طوالع. وقفت أمام بابٍ موارب، وكدتُ أدخل في دهليز داره، إلَّا أنَّ ندى وردة وقفت بالباب.

«عندكِ مي تشربيني؟» ورسمتُ إشارة الصليب فورًا، لتعرف أنَّ الغطاء الأبيض الذي يلفُّني ليس غطائي تمامًا.

دخلتُ دار ندى وردة لأشرب الماء، مشيت عشر خطواتٍ في دهليزه، ونبتت في ذهني عشرة أسئلة. قالت ندى وردة إنَّ حبيب وردة هو أخو زوجها، واسم زوجته ماري عنحوري، وأطفاله الثلاثة نعمة وريم ورانيا وردة، وأمَّه فاديا بولاد وأباه أنطوان وردة، قضوا جميعًا في البيت الكبير الذي كان في إحدى الحواري المتشابكة وراء الطريق المستقيم، في التاسع من تمُّوز، تمام الثانية بعد الظهر.

غمست الريشة في دواة الحبر، وكتبت:

في التاسع من تمُّوز، تمام الثانية بعد الظهر، نزلت ندى وردة إلى قبو البيت أسفل إيوانه المرتفع. ورأت في عتمة النور التمُّوزيِّ في القبو كيف تشفُّ تخريمات الرخام الملوَّن التي نحتتها أصابع والدها أنطوان وردة. حين كانت ندى تفكِّر بأيِّ الخوابي ستخفي نفسها، خطفتها تخريمات الرخام التي لمَّا ينتهي أبوها المرخمجيُّ من صفِّها في الشقوق المُهندَسة، فصارت ندى أباها.

يعرف رخام دور الحيِّ أصابعي العشر القويَّة، يتذكَّر الرخام الأبيض المتَّشح رمادًا، كيف انتقيتُه، وبدأت أفصِّل منه ألواحًا دقيقة القياس. أمرِّر الدبق على أطرافها لألصقها على حافَّة الإيوان. تطفر من الدبق نقطُ ثلاث وتروح تسكن غصن مشمشةٍ لأسر العصافير. طلقة، طلقتان، قُتِل نعمة وردة. أنحتُ عدساتٍ من رخامٍ أحمر بإزميلٍ دقيق، ضربةٌ ضربتان، قُتِلت ريم وردة. أُشكِّل بالمعدن قطعةً دقيقةً كأنَّها سروةٌ سوداء. ضربةٌ واحدة، قُتِلت رانيا وردة. كنت أسمع الأصوات جيِّدًا،

أحفظ وقعها، سمعتُ صوت الخنجر يدخل في لحم ماري عنحوري سبع مرَّاتٍ ثمَّ يخرج ساحبًا قطعةً من قلب ابني الحبيب حبيب. يهوي السيف على رأسه، يبتره عند منبت رقبته. سمعتُ صوت ضربة الإزميل الأخيرة، شعرتها داخلةً إلى قلبي القتيل، فتمدَّدتُ على بلاطات الرخام التي هذَّبتُها ورصفتها بأصابعي العشر، وتمنَّيت لو أنَّ الرخام يدفنني. عيناي مفتوحتان وأنا ممدَّدٌ على رخامي الصقيل، أتأمَّلُ عناقيد اللحلح الزرقاء تتمايل كأنَّها تُهدهِدني على سرير المذبحة. أغمضت عينيَّ لئلَّا أرى كيف سحبوا زوجتي فاديا بولاد من مكمنها في البئر، وسكاكينُ عشرةٌ تنقضُّ على ظهرها المرعوب. كنت أسمع صوت المعدن الحادِّ يفتك بأسرتي، وطرقات إزميل الرخام تُحاول تبديده. لكنَّ الصوت المعدنيَّ كان أقوى من جمال تشكيلات رخام إيواننا. معدنٌ يرنُّ في أرض ديارنا مُعلِنًا قتلنا جميعًا إلَّا ندى. كنت أسمع الأصوات جيِّدًا، أحفظُ وقعها؛ هذا صراخ نعمة، وهذا بكاء ريم، وهذه حشرجة رانيا. وأرض الديار تميد وتميد لئلَّا تسمع عويل ماري الذي لم يتوقَّف. قُتلنا جميعًا وما غطانا إلَّا صوت العويل.

رفعتُ ريشتي فوق كلماتي الإنكليزيَّة. غطَّستها في حبر دواتها وتركتها تبكي وحدها. تناولت كتابًا لأقرأ العربيَّة الفصحى:

«وسال دم القتلى في شوارع دمشق غيثًا مدرارًا وعمَّ البلاء الهائل حتَّى لم يَعُد يُرى في حارة النصارى غير رأسٍ ينهال عليه الرصاص من بنادق العسكر انهيال السيل، وصدرٍ تدقُّه سنابك الخيل، وأجسامٍ أكلتها النار وصيَّرتها رمادًا وفحمًا أشدَّ سوادًا من حالك اللَّيل في ويلٍ في ويل».

حسر اللثام عن نكبات الشام، مؤلِّفٌ مجهول.

سحبتُ الريشة من دواتها، تقطر حبرًا. لم أمرِّر طرفها على الحافَّة الزجاجيَّة. رفعتها وقرَّبتها من عينيَّ وتكحَّلتُ بدموعها.

انتبهتُ إلى صوت خطو حنَّا قادمًا نحوي إلى غرفة الظلال، وما إن لاحت طلَّته البهيَّة حتَّى ابتسمتُ ساهمةً عن عينيْه الزعلانتيْن. ظننته سيستفسر عن الحبر في عينيَّ، لكنَّه لم يفعل. اقترب من طاولتي الخشبيَّة، فوضعت يدي على الكلمات الإنكليزيَّة. لم أسمع ما يقول حنَّا، بل سمعت صوتي شبيهًا بالعويل: «بيسموها طوشة، طوشة النصارى». كنت على وشكِ أن أدني منه الكتاب العربيَّ ليقرأ ويصدِّق عويلي، لكنِّي لم أفعل. دنا وجه حنَّا من وجهي، واتَّسعت عيناه الخضراويْن: «بس هي متل النكبة، هي النكبة. اكتبي نكبة، ما في كلمة طوشة بالإنكليزيّ». تصوَّرته سيردف ممازحًا إنَّه يعرف الإنكليزيَّة أكثر منِّي، فهو الترجمان، لكنَّه لم يفعل. وأنَّى له أن يفعل وعيناه ما كفَّتا عن الزعل القديم إلَّا لمامًا؟ لمامًا تبخَّر الزعل من عيني حنَّا، ولمعتا بحبٍّ مرح. كنت أخشى أن أزيد زعل عينيْه، أخالهما ستتكسَّران كالبلَّور الرَّقيق في ما لو سألته عن أمرٍ حقيقيٍّ يخصُّه. كنت أكتفي بالقدر الذي يريد الإفصاح عنه من الزعل، وكان هذا القدر موجعًا أكثر من الوجع نفسه. أصمت حين يفصح، ويطلع الوجع من قلبه أحمر قانيًا، يصعد في شرايين رقبته، ويرسم وجع قلبه على محيَّاه الرَّقيق. تصير عيناه ترمشان قهرًا، وينخفض صوته كأنَّه يختنق بسبب تلك الكلمات القادمة رأسًا من ذاكرته التي أصابها عطب الزعل المزمن. لحظتها أتمنَّى لو يصمت، فأنا لا أطيق رؤية وجهه متألِّمًا إلى هذا الحدِّ. تكاد الدموع تصعد إلى عينيَّ، فأنهرها لئلَّا أزيد الطين بللًا. أصمت حين يفصح وأتخيَّل نفسي أخبره عن أمرٍ حقيقيٍّ يخصُّني.

***

أراني في تريسته في القاعة الكبيرة حيث الأحد عشر مكتبًا خشبيًّا. وريتشارد بورتون يتنقَّل بينها ويكتب أحد عشر كتابًا في وقتٍ واحد. رفع القنصل البريطانيُّ المنكسر بعد دمشق، عيناه صوبي كأن لمامًا. وقال بإنكليزيَّته الصافية: «أعمل هنا على بعض الأمثال السوريَّة لأنشرها في كتاب. قد جمَّعها من أجلي حنًّا المسك ترجمان القنصليَّة في دمشق. عليك أن تنسخيها مرَّتين». ثمَّ صار ريتشارد يحادث نفسه ويردِّد: «Proverbia Communia Syriaca, Proverbia Communia Syriaca».

اقتربتُ من المكتب الحادي عشر، تناولت رزمة الأوراق، وانصرفت إلى مكتبٍ صغيرٍ في الزاوية، وما إن وقعت عيناي على خطِّ الترجمان الجميل، حتَّى وقعت في حبّه. أحببت حنًّا قبل أن يتزوَّجني. رأيتُ في تريسته كلماته التي خطَّها في الشام، فحدست به، وتصوَّرته. وحين بعد شهور، أعدت نفسي بنفسي إلى الشام، رأيت حنًّا أحلى ممَّا تصوَّرتُه.

ببطءٍ شديدٍ كنت أخطُّ الكلمات التي جمعها الترجمان في الشام، أنهيت نسخ المثل الأخير «متل خوري عين التينة»، ورحتُ أتأمَّل المعنى طالعًا من خطٍّ من عشقتُ توًّا. تاه المعنى، غام تاركًا

لانحناءات الحبر المنمنمة الواضحة على الورق أن تحوطني برقَّتها. وقبل أن أسرح مع شيءٍ يخصُّني وحدي، جاء صوت ريتشارد كأنَّه يحادث نفسه: «انتهيت؟ هذا عملٌ جيِّد، وخطُّكِ مقروء. ضرباتك بريشة الحبر واضحة، جيِّد. هذه الأمثال السوريَّة تُبيِّن كيف نشأت الحقيقة من التَّعليم الصامت للعالم، وكيف أخذت تجربة الحياة اليوميَّة بالتدريج شكلها ووضعها، وكيف أصبح تقدير التجربة ملموسًا في القول المأثور حتَّى اكتسبَت في النهاية حكمةُ الكثيرين الحياةَ من خلال ذكاء فردٍ واحد».

أصغيت لكلام ريتشارد المنمَّق المرتَّب. صفنت فيه، كيف أجملَ مائةً وسبعةً وثمانين مثلًا سوريًّا ببضع جملٍ إنكليزيَّةٍ دقيقة التعبير. ابتسمتُ من دون قصدٍ متوهِّمةً أنَّ ثمَّة فرصةً سانحةً للإصغاء، إلَّا أنَّ الأمور مع الإنكليز تجيء دومًا باترة. بلحظةٍ سحب النسختيْن من أمامي، وبلحظةٍ جاء صوت ستِّي إيزابيل «أين أنت كمُّور؟ سنتأخَّر». وقفت من فوري، نفضت ثوبي، وبلحظةٍ كنت قربها. «أحضري مزيدًا من زجاجات الماء المقدَّس، من يدري؟ قد يحتاجني كثر. أشعر أنَّني منذورةٌ أكثر من أيِّ يومٍ آخر لعمل شيءٍ مفيد». رسمت إيزابيل إشارة الصليب، وحين كانت عيناها تنخفضان بالإيمان لم تغفل تلك النظرة الراضية التي أحفظ معناها عن ظهر قلب. رمشت مسرورةً حين حطَّ بصرها على خصري وتأكَّدت أنَّ المشدَّ الإنكليزيَّ يضبطه، وأنَّ الصليب المعدنيَّ يحوط عنقي. «هيا» وانطلقنا خارج قصر تريسته.

أمشي وراء ستِّي إيزابيل بخطوةٍ واحدة، وأحفظ عن ظهر قلبٍ الأفكار التي تدور في رأسي وأنا وراءها بخطوةٍ واحدة. أتأمَّل قماش ثيابها الإنكليزيَّة الداكنة غالبًا، أروح أقارنها بما أعرف من القماش

الشاميّ بألوانه الواضحة. ثمّة خيوطٌ مختلفةٌ تشكّل قماشاتٍ متنوّعة الملمس، تتشابك بنعومة، بَيْد أنَّ ستّي إيزابيل تحبُّ التافتا الغامق بلمعته المنطفئة، وتحبُّ الدانتيل الأسود، إلّا أنّها تطمس كلَّ غوايةٍ نابعةٍ من ترف ثوبها وطيّاته المزركشة بخفر، من خلال الأبيض الذي يرسم ياقة ثوبها بإسراف طبقاتٍ ثلاث على الأقل، وبتلك القبّعات المكبوسة وشرائطها المرتخية، فتصير كما تحبُّ امرأةً متميّزةً بين الراهبة والإمبراطورة. أرستقراطيّةٌ شبه متأنّفة، تدوزن ابتساماتها بالتواضع والإيمان، وتحرص على رشِّ ما يحوطنا بالماء المقدّس، وهي تتلو لكلِّ شيءٍ تراه كلماتٍ خاصّةً به. تتهادى كأنّها على خيل، ثمَّ تتأنّى تحت وطأة جسدها الثقيل. وأنا وراءها بخطوةٍ واحدة، مرتاحةً لأنَّ طبقات ثيابي «الجديدة» صارت أقلَّ، والمشدَّ الإنكليزيَّ طمس كلَّ رغبةٍ بالانعتاق، وحوّلني فرسًا بلجامٍ ذهبيّ. أقف وبيني وبين ستّي إيزابيل خطوةٌ واحدة، لأنتظرها ترشُّ الماء المسيحيَّ على صبيّةٍ مرّت أمامنا ولاحت من سحنتها غوايةُ مَن على وشك الوقوع في الخطيئة. تنتهي إيزابيل بورتون من الرشِّ وتبدأ تمتمةً كاثوليكيّةً بالإنكليزيّة: «أُزيل الشيطان منك باسم الربِّ الأب العظيم وباسم سيّدنا يسوع ابنه وبقوّة الرُّوح القدس، ولتكن ماءً نقيًّا قادرًا على طرد كلِّ قوى الشرّ. آمين». ثمّة جملٌ تكرّرها كلَّ مرّة، وأخرى تبتكرها، تطلع عفو خاطرها المطمئنّ بقوّة الإيمان، فأبتسم عن قصدٍ متيقّنةً أنَّ ثمّة فرصةً سانحةً للإصغاء. تقول ستّي إيزابيل إنَّ المياه المقدّسة سلاحٌ روحيٌّ من الربّ، وإنّها خادمة الربِّ تتضرّع له من أجل طرد الشياطين وعلاج الأمراض. تستدرك أنَّ الربَّ رحيمٌ ورؤوفٌ وكثير الرحمة، إلّا أنّها لا تفصّل عن الأمراض التي تعالجها، في حين أنّها تفصّل كثيرًا عن الشياطين التي تريد طردها.

شياطين عشر للخطايا العشر، لكلِّ خطيئةٍ وصيَّةٌ وشيطان: للزنا شيطان الغواية، للسرقة شيطان الجشع، للصبر شيطان الغضب. تعدُّ الخطايا وشياطينها، وتقتبس للبراهين كلمات الكتاب المقدَّس. أُصغي للكلام المقدَّس المريح، تقاطعه كلمات ستِّي إيزابيل عن فخاخ الدنس التي تنصبها الشياطين، ثمَّ تُقصيه بضربةٍ واحدةٍ جملتُها الأثيرة: «المياه المقدَّسة سلاحٌ روحيٌّ من الربّ. آمين.»

الـ آمين هي هي بالعربيَّة الفصحى وبإنكليزيَّة الليدي إيزابيل بورتون، ما إن تلفظها حتَّى يرنَّ جرس الكنيسة، فترسم إيزابيل إشارة الصليب. لا يندغم صوت جرس الكنيسة الرنَّان بـ آمين إيزابيل، بل بلفظٍ واحدٍ نافرٍ من جملتها الأثيرة تلك: سلاح. أصفن كيف أنَّها «تتسلَّح» بالمياه المقدَّسة لتمشي في دروب تريسته في حين أنَّها في الشام تسلَّحت بشيءٍ قادمٍ رأسًا من عوالم الشياطين.

الشام منبسطةٌ ممتدَّةٌ أمام بيت الصالحيَّة، وقد صفقت ستِّي إيزابيل الباب توًّا، وأراني فيها كما الآن أمشي وأمامي ستِّي إيزابيل بخطوةٍ واحدة.

بدلًا من ثيابٍ إنكليزيَّةٍ قاتمة، كانت ملابس ستِّي إيزابيل من كلِّ لون. مقصَّبةٌ ولامعة، خشنةٌ ورقيقة وبين بين. فالليدي إيزابيل أمضت ساعةً على الأقل، وأنا أساعدها في تزبيط طبقات الثياب الشاميَّة متفاوتة الطول والأسماء، فضلًا عن القماشات المُطرَّزة والمخطَّطة والتي برسومٍ هندسيَّةٍ تلفُّ الخصر من دون أن تظهر انحناءاته، وفوقها كلِّها عباءةٌ كبرى وغطاءٌ للوجه. تريد ستِّي إيزابيل أن أرافقها إلى السوق، لتتبضَّع المزيد من الثياب الشاميَّة. كانت تسألني وأنا أجهِّزها لهذا «التنكُّر» عن أسماء

ثيابي وألقابها، وتكرِّر الأسماء من ورائي مرَّتيْن على الأقل، كأنَّها تحضِّر في رأسها قائمة الثياب الشاميَّة الواجبة.

صفقت إيزابيل بورتون باب بيت الصالحيَّة بقوَّةٍ تناسب كيف نهرت القوَّاص لئلَّا يرافقنا. صفقت الباب بيدٍ، وباليد الأخرى لاح سلاحها.

أمشي وراء ستِّي إيزابيل بخطوةٍ واحدة، فتنهرني ملوِّحةً بسوطها الجلديِّ اللَّامع أن أمشي إلى جانبها. تلويحةٌ من السوط في يد الإمبراطورة، صيَّرتْنا امرأتيْن شاميَّتيْن في طريقهما إلى الأسواق النسائيَّة في الشام، حيث القماش، كلُّ القماش.

كنَّا نمشي، هي متنكِّرةٌ وأنا لا، على العكس تمامًا من المشي في تريسته حيث أتنكَّر أنا وهي لا. وعلى النقيض تمامًا بين مرشَّة الماء المقدَّس هناك والسوط اللَّامع هنا. والمزاج كلُّه على النقيض أيضًا، مزاجي الغارقُ في ما أجهل، ومزاجها الذي بلورته المسارح اللندنيَّة، وغذَّت فيه شغفًا أبديًّا لنبر الكلمات بقوَّةٍ والوقوف كالرمح والتمخطر بالتنكُّر وثيابه التي لا حصر لها.

الدكاكين في السوق الكبير المتفرِّع إلى زقاقاتٍ لا حصر لها، متلاصقةٌ حدَّ أنَّك تتخيَّل أنَّ لها أبوابًا سحريَّةً تنقلك من دكَّانٍ إلى آخر برمشةٍ واحدة. فتنسى وجه البائع الشاطر وصوته الواضح، ولا يبقى في رأسك إلَّا صوت القماش وقد امتدَّ على الطاولات الخشبيَّة الرَّفيعة. يسحب البائع أثواب القماش المكدَّسة على الرفوف، وبضربةٍ من يده، تطلع أصواتٌ من مزيج القطن بالحرير، ومن الحرير منفردًا، ثمَّ القطن وحده، فالشاش فالصايا فالصوف فالكتان. لكلِّ قماشةٌ صوتها

يهبط على ركام الأنواع والألوان. وأصير أرفع صوتي بأسماء أنواعها، فقد نبَّهتني ستّي إيزابيل إلى ذلك مبتسمةً ونحن نمشي صوب أسواق الشام بإنكليزيَّتها المنبورة: «تسألين كلَّ بائعٍ عن اسم القماش ونوعه وخيوطه، وتكرِّرين كلَّ شيءٍ وراءه بصوتٍ مسموعٍ وواضح، فهمت؟»

يهفُّ صوت الحرير وقد انسفح على العطافيَّة، فأتصوَّر إيزابيل تضرب بسوطها. يهوي السوط على صايات الديما، فتردُّ المسنَّنة والمتمَّنة خصلات الجلد اللَّامعة عن لونيْهما الأزرق. هذا برنجك، وهذه الألاجا بديعةٌ مثمَّنة، هذا ثوبُ صالحاني، هذا إزارٌ حرستاني، وهذا هو البروكار الشهير. تكرُّ الأسماء واضحةً من فمي، وتصير إيزابيل أذنتيْن كبيرتيْن وسوطًا جلديًّا لامعًا ممسوكًا بيمناها البضَّة المتعرِّقة، كأنَّها تلتهم القماش بأذنيْها. تحرِّك سوطها على حضنها بنعومةٍ فائقةٍ لأكرِّر لها بصوتٍ مموسقٍ الأبيات الشعريَّة التي يلقيها البائع الشاطر وهو يفرد الحرير المقصَّب: «وحائكٌ يا صاح قد أبصرته/ كالبدر في كفَّيْه ماسوره/ فلم أرُح إلَّا وروحي كما/ عاينَت في كفَّيْه مأسوره». تهزُّ إيزابيل سوطها كمروحة. يلتفت البائع إلى الإنكليزيَّة المتنكِّرة بالثياب العربيَّة، القابضة بكفِّها على النقود: «وخيوط هذا الشيب لا تنسج بها/ حلل المعاصي فهي ما خلقت سدًى». تنفر كلمة المعاصي من ألفاظ الفصحى، فلا أردِّد البيت الشعريّ. أتركه معلَّقًا فوق ركام الأقمشة وألوانها القوس قزحيَّة. أكون على وشكِ رسم إشارة الصليب لأتَّقي فخاخ شيطان المعاصي لئلَّا ينبت في ذهني، ثمَّ أحدِّق في سوط إيزابيل مرتاحًا في حضنها، فأتصوَّره ممسوكًا بيدي طاردًا الشيطان، كلَّ شيطان.

***

كان في مقدوري على الدوام طرد كلِّ الشياطين تقريبًا، إلَّا أنَّني ما كنت يومًا متوهِّمةً أنَّ قوَّةً ما تخصُّني، تعينني على النجاة من فخاخهم. كنت ضئيلةً جدًّا، وروحي كانت ضعيفةً إلى درجة أنَّني ظننت أنَّهم لا يأبهون لأمري ولا ينصبون الفخاخ لروحي المتموِّجة أصلًا. هذا ما كان يتراءى لي في بيت الصالحيَّة، وفي بيت القسِّ وليام، بل وفي القنصليَّة البريطانيَّة أيضًا حين كنت أجلس أمام طاولة الزاوية في مكتب القنصل البريطانيّ، مخفضةً رأسي على الدوام، أكتب أو لا أكتب سيَّان. بَيْدَ أنَّ الكلمات منمَّقة الوقع والمرتَّبة حدَّ الإتقان، سحرتني باستمرار، ما إن أسمعها حتَّى أرفع رأسي وأصغي بكلِّ جوارحي. لئن كان لديَّ من طمعٍ لا أتغلَّب عليه، فهو الطمع بها. كنت أطمع وأطمع بجمالها، وبتربيتها الرَّقيقة لي تربيةً تمدُّني بثقةٍ قويَّةٍ أن لا شيطانًا ماكرًا نصب فخاخها أمامي. ثمَّ أستدركُ أنَّ بلى ثمَّة شيطانٌ للكلمات، وقطعًا لا علاقة له بشياطين إيزابيل الخاسرة على الدوام أمام الماء المقدَّس منثورًا من مرشَّتها، إنَّما هو شيطانٌ مختلف، وأنَّى له ألَّا يكون، فهو ليس إلَّا شيطان ريتشارد بورتون.

لم تسحرني الإمبراطوريَّة في بلاد الإنكليز، وإنَّما صعقتني، ثمَّ أردتني بضربتها العظمى الأخيرة. لكنِّي سُحِرت تمامًا بتلك الحافَّة

المركونة قرب البحر كسقطٍ من المتاع: تريسته. هناك تركتُ ذاكرتي الحلوة على هواها، تسرح وتمرح في أيَّامٍ قليلةٍ متقطِّعة. وهناك أيضًا حفرت ذاكرتي المرَّة مشهد تريسته الأخير قبل رجوعي إلى الشام.

شيطان ريتشارد ما كان ليظهر إلَّا هناك، على الحافَّة المركونة في تريسته، فأراني في القاعة الكبيرة حيث الأحد عشر مكتبًا وقد احتلَّت الكتب المكان كلَّه. كتبٌ فوق المكاتب، كتبٌ فوق الكراسي، فوق المقاعد، فوق الطاولات. كتبٌ جالسةٌ على رفوفٍ لا حصر لها، وكتبٌ من الأرض حتَّى السقف العالي، أخالها أيضًا معلَّقةً مع الثريَّات البلوريَّة والنحاسيَّة. وكتبٌ كثيرةٌ غير منظورة، لا أراها، بل أعرفها تطلع باستمرارٍ من رأس القنصل البريطانيِّ المخيف الأليف.

مدَّ ريتشارد أوراقًا أمامي، قائلًا: «الخطُّ المقروء يحتاج تدريبًا باستمرار. أريد نسختيْن من هذه الأوراق. انتبهي لتعليماتي الدَّقيقة. تكتبين الجملة الأولى، ثمَّ تتركين فراغًا، ثمَّ الجملة الثانية، وحين تنتقلين إلى السطر الثاني، يجب أن يكون الفراغ مساويًا للفراغ الأوَّل. أريد للفراغات أن تكون دقيقة القياس». لمعت عيناه القويَّتان وابتسم ينظرني ويحادث نفسه: «لكتابة الشعر العربيِّ والعثمانيِّ والفارسيّ، شكلٌ لا تخطئه عين. عمودان من الكلمات وبينهما فراغٌ بهيّ، ليركن المرء إلى استراحة الإيقاع بين شطريْن، ثمَّ ترنُّ القافية».

نظرتُ أوراق الشعر العربيِّ فرأيت في رسمها عمودَيْن من الكلمات وبينهما الفراغ البهيّ. وإذ تطابق الرَّسم مع الوصف الإنكليزيّ، حسمت أمرًا يخصُّني وحدي.

كنت أنسخ على مهلٍ شديدٍ شعر العربيَّة الفصحى، وأقرأ بيني وبين نفسي كلَّ بيتٍ ما إن أنتهي من خطِّه. وحين تنتهي أبيات القصيدة، أقرأ بيني وبين نفسي القصيدة كلَّها وأزيِّنها بأصوات حركاتها. ثمَّ صحوت على صوت ريتشارد: «هذا جيِّدٌ فعلًا. تنسخين بمهارة» وإذ لاحت منِّي طرف ابتسامةٍ بتر حديثه فجأةً وقال بنبرٍ عربيٍّ متألِّق: «اقرأي». صدر الأمر لا من كلامه فحسب، بل من عينيْه اللَّتيْن تراقص فيهما جنِّيٌّ صغير. فخضعتُ من فوري وبدأت أسمع صوتي ضعيفًا يقرأ: «دع جمال الوجه يظهرْ/ لا تغطي يا حبيبي/طول ليلي فيك أسهرْ/ زاد شوقي ونحيبي». انتفض ريتشارد ونبر كلماته الإنكليزيَّة بقوَّة: «لا، لا! ليس على هذا النحو الكئيب كمحادثةٍ باهتةٍ تفتقر إلى الذكاء، بل بصوتٍ مرتفع، وبقوَّةٍ وسمو».

خرج جنِّيُّ ريتشارد من عينيْه اللَّماحتيْن المشتعلتيْن دومًا وأعانني على القراءة، ونبر صوتي بثقة: «كان قلبي عنهُ غافلْ / وهو لا يغفلُ عني /فانثنى يختالُ رافلْ / بثيابِ النَّفس منِّي / فأنا للحقِّ مظهر / بين أهلي كالغريب / كلُّ شيءٍ عقدُ جوهر / حلية الحسْن المهيب».

تراقص الجنِّيُّ الصَّغير في العينيْن الثاقبتيْن مسرورًا من فخِّه وقد أحكمه حولي. وحين أغمض ريتشارد جفنيْه على الجنِّيِّ النابت توًّا من الكلمات، حادث القنصل البريطانيُّ نفسه: «هذا شاعرٌ سوريٌّ من بلادك، عبد الغني النابلسي من دمشق. وقد وضعتِ الحركات الصَّغيرة على الكلمات، وهذا أمر مثاليٌّ حقًّا. أين تعلَّمتِ هذا؟».

فتحتُ فمي لأسمع صوتي للمرَّة الأولى يُخبر شيئًا عنِّي: «في مدرسة الكنيسة، في المسميَّة، وقبلها في مدرسة الكنيسة، في باب توما».

«لا بدَّ أنَّ من علَّمكِ كان موهوبًا ليترك فيكِ كلَّ هذا الأثر الذي كان واضحًا لي على نحوٍ مؤكَّد، ها أنت تعرفين الإنكليزيَّة والعربيَّة، فصحى ومحكيَّة. باب توما، بابِ توما. الأوراق التي دوَّنتِها عمَّا جرى في الحيِّ سيِّئةٌ للغاية، لا تصلح لشيء». تأفَّف ريتشارد ونبر: «لن تكون مفيدةً لي كما أردتُ». سهمت ولم أنتبه تمامًا للملاحظة القاسية الصحيحة التي تفرَّعت مثل نباتٍ غير مشذَّب: «خاليةٌ من المعنى، غير مترابطة، كأنَّها جريمةٌ نافرةٌ حدثت مصادفةً لا في دمشق بل في شرق لندن الثقيلة ذات الضباب المزعج. لا تحيل على أيِّ شيء، تفتقر إلى قوامٍ وبنية، لا زمان لها، ولا مكان أيضًا. كأن لم تكن، كأن لم تدوَّن. قرأتها بقرفٍ فهي جاهلةٌ ومجهِلة». كانت كلمات القنصل البريطانيِّ تطلع من فمه فتحرِّك شاربيْه الطويليْن، وتضيء الندوب العميقة في وجنتيْه النحاسيَّيْن، وتجعل عينيْه مثل المسدَّس المركون على المكتب، وشرر الطلقات يخرج منهما.

تلقَّيتُ الطلقات، إلَّا أنَّ الطلقة الأخيرة هي التي شلشتني. ما زلت أذكر إصابتها بدقَّة، أستعيدها وأنا جالسةٌ في غرفة الظلال في الشام، وأمامي أوراق المخطوط القديم وصوت ريتشارد يرتفع ساخطًا: «لو أنَّك تذكَّرت ما حدث لأمِّكِ بدقَّةٍ وتخلَّيت عن مخاوفك التي لم يَعُد لها من معنى، فهي قديمةٌ وقد مضت، لأنجزتِ تدوينًا مفهومًا على الأقل، لا مُفكَّكًا وجاهلًا على هذا النحو السيِّئ جدًّا». ثمَّ تذكَّرت كيف كان صوتي ضعيفًا فارغًا ورأسي خفيضًا منكسرًا: «سأحاول مرَّةً ثانية».

***

وها أنا أعيد الكتابة للمرَّة الثالثة في غرفة الظلال الشاميَّة، وقد حسمتُ أمري واخترت الإنكليزيَّة لعلَّها تخفِّف وهج الرعب وصوت الويل يلفُّ حيَّ باب توما ذبيحًا في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر.

غمست الريشة بحبرها، ثمَّ ركنتها في دواتها، إذ لاح طيف قصَّةٍ مدماةٍ تتهادى في خرائب باب توما، تنتقل من فمٍ إلى آخر وتصل فم جدَّتي هيلانة.

أرى هيلانة بولاد حيث كنَّا في المسميَّة، في الباحة أمام البيت البازلتيّ، جالسةً على المرتبة الحجريَّة، يداها في حضنها، ورأسها يتحرَّك، وفمها يتكلَّم مع من لست أنظره. تشهق وتندب وحدها، وتخبر نفسها عن ابنة أخيها جنان بولاد وما قالته لها عشيَّة التاسع من تمُّوز كيف أنَّ زوجها شحادة العكِّي الموهوب في كلِّ أمرٍ قد عرف بنفسه أيَّ بلاطاتٍ في زوايا أرض الديار يمكن رفعها. نظر شحادة العكِّي جيِّدًا واختار بلاطاتٍ نبتت على أطرافها أعشابٌ لا يروِّض نموها أيُّ حجر. بقبضته الناحلة، سحب النبات البريَّ من جذره القويّ، فتململت البلاطات وصارت قطعة سكَّر. حفر شحادة عجين الأرض بيديْه، ثمَّ

تناول صرَّة المال الأولى وزرعها في عجين الأرض، ثمَّ أعاد البلاطات إلى مكانها، فلمعت مثل قطع الحلوى. رفع شحادة العكّي رأسه ونظر جيِّدًا حوله في القاعة، وبخفَّة قطٍّ اختار قطعةً خشبيَّةً جداريَّةً مشغولة، وبإزميلٍ حادٍّ رفع طرفها، وضع صرَّة المال الثانية بيد، وباليد الأخرى مسح أطراف الخشب المشغول بشيءٍ يُشبه القطر وأحكم إلصاقه. وقف شحادة العكّي في مطبخ داره ونظر حوله جيِّدًا، فرأى حبَّات زيتونٍ أخضر تبرق في الدورق الزجاجيِّ الكبير، وعندما فتح الغطاء فاحت رائحة عكا، فتذكَّر أمَّه هناك، لكأنَّه في تلك اللَّحظة شافها وهي تمدُّ له الدورق وفيه تلك الحبيبات الخضراء الغاطسة في زيتها. تنسَّم رائحة أمِّه في الزيتون، وبكفٍّ مشتاقةٍ راح يُفسح مكانًا لصرَّة المال الثالثة.

لم يكن شحادة العكّي بمفرده حينما أخذ يتنقَّل في بيته الشاميِّ وينظر جيِّدًا حوله، كانت معه ستُّ عيونٍ تتبعه مثل سرب الحمام. تفرَّجت عيون زوجته جنان بولاد وابنه البكر يعقوب والصَّغير نعيم عليه وهو يتنقَّل كالدوريِّ بين الزوايا ليجد الخبايا. ثمَّ جاء سربٌ أسود بعيونٍ لا حصر لها وأيادٍ تفوق العدَّ ماسكةً ما لا رأته عينٌ من معدنٍ فحيحٍ ولا سمعته أذنٌ من لغةٍ بتَّارة. طار الأثاث كلُّه، الثقيل والخفيف والأكثر خفَّة، ونُزِعت الستائر من كلِّ الغرف، فصار البيت عاريًا إلَّا من شحادة العكّي وزوجته وابنيْه. رعد السرب الأسود مهدِّدًا بتعرية الروح من جسد شحادة الناحل، فمضى العكّي إلى الزاوية الأولى حيث عجينُ الأرض خمَّر الصرَّة الأولى وافتدى روحه بقطعة سكَّرٍ تلمَّظ بها وهو يهوي تحت الضربات المعدنيَّة. رعد السرب الأسود: «أيا يعقوب كم تشبه أباك»، فأزال الصبيُّ القطر السكريَّ عن الخشب المشغول، وافتدى روحه تحت عيني أمِّه بقطرةٍ واحدة. ركعَت جنان بولاد على

أرض بيتها، ورأت نعالًا سوداء لا حصر لها، فلثمتها كلَّها علَّها تفتدي بفمها القتيل ابنها نعيم. والتفتت إلى الزيتون الأخضر، فكسرت دورقه ومدَّت الصرَّة الثالثة متوهِّمةً أنَّ الزيت القادم من الأرض المقدَّسة يحمي صغيرها. سال الزيت العكَّاوي من ذراعيْها تضمَّان بقوَّةٍ ابنها. إلَّا أنَّ السَّرب الأسود جُنَّ لمرآها، فصلب صغيرها على صدرها بالسيوف والبلطات. انتحبت جنان لمرأى نعيم مقطَّعًا في حضنها، فمدَّت ذراعيْها ثمَّ ساقيْها ثمَّ رقبتها ثمَّ جسدها كلَّه، وطلبت من السَّرب الأسود صلبها.

توقَّفت هيلانة عن الكلام ورسمت إشارة الصليب من بين دموعها. التقت عيناي بعيني جدَّتي المنتحبة، فلم تُخفِ دموعها ولا أخفضت نحيبها. سمَّرتني بمنظرها.

ما زلت مسمَّرةً أمام طاولة غرفة الظلال. ونحيب جدَّتي في أذني يرنُّ بالعويل. هززت رأسي لأنفض الصَّوت، ثمَّ تناولت كتابًا، وقرأت:

«ولو أردنا تعداد القبائح التي جرت واحدةً فواحدة، اقتضى لها مجلَّدٌ كبير. ولكنَّنا لكيلا يملَّ القارئ سنذكر منها قليلًا من كثيرٍ فنقول إنَّ رجلًا من نصارى الشعب الدمشقيِّ يُقال له شحادة العكِّي احتفر لماله في بعض الزوايا وطمره في ثلاث خبايا. فلمَّا فرغوا من نهب بيته طلبوا منه ثمن دمه لكي يعفوا عنه ويتركوه. فأظهر لهم إحدى خباياه، فأخذوها وقتلوه. وكان له امرأةٌ وولدان. فقبضوا على الأكبر وطلبوا منه نظير أبيه. فأظهر لهم خبيَّةً ثانيةً فأخذوها وقتلوه ثمَّ طلبوا كذلك من أخيه. فتقدَّمت أمُّه ووقعت على أقدامهم تقبِّل النعال وتوسَّلت إليهم أن يعفوا لها عنه، فلم يقبلوا ما لم تفده بالمال. فأدرت إلى الخبيَّة الثالثة وكان فيها باقي أموالهم مع حلاها. فأخذوها وهمُّوا بقتله، فوضعته في

حضنها وضمَّته إلى حشاها، وجعلت تتوسَّل إليهم فلم يسمعوا تلك التوسُّلات بل قطَّعوا الولد بالسيوف والبلطات. وأصابت الأمَّ بعض ضربات، فقطعت اللَّحم وكسرت العظام. ثمَّ أحرقوا البيت وتوجَّهوا بالسَّلام».

نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان،

اسكندر بن يعقوب أبكاريوس.

أغلقتُ كتاب العربيَّة الفصحى، ووضعتُ ورقةً بيضاء فوق الكلمات الإنكليزيَّة لتغيم وتنام. نظرت إلى غلاف الكتاب، قرأت اسم المؤلِّف جيِّدًا وحفظته. سألت نفسي كيف وصلت إليه قصَّة شحادة العكِّي وزوجته جنان بولاد وطفليه يعقوب ونعيم؟ تخيَّلت فورًا سلسلة أفواهٍ داميةٍ تنتحب بثلاثة حروف؛ هاءٌ وحاءٌ وألف. سلسلة أفواهٍ تخرج من باب توما، تمشي في الطريق المستقيم، صوب شارع مدحت باشا، لتصل الساحة حيث القنصليَّة البريطانيَّة غير بعيدةٍ من سوق الخيل، ثمَّ السراي ومبانٍ أخرى قويَّة التشييد. في أفق الساحة نهرٌ تسبح فيه رؤوسٌ مقطوعةٌ لها زعانف شوكيَّةٌ وأطرافٌ مبتورةٌ لها أجنحةٌ وطاويط. والأفواه تصرخ وتتلمَّس الدرب وتمشي بمحاذاة النهر الوحشيّ، لئلَّا تمتدَّ أيادي الشجر الكثيف وتخنقها. ثمَّ تمرُّ في الربوة، ثمَّ دُمَّر ثمَّ الهامة. وفي الوادي تنتحب لكنَّها لا تضلُّ طريقها، تقطع جبال لبنان وتصل بيروت.

وقفت سلسلة الأفواه الشاميَّة أمام حافَّة شبَّاك بيتٍ حجريٍّ بيروتيّ، ورأت رجلًا يمسك ريشةً يتأنَّى قبل أن يخطَّ بحبرها، فرمت بنفسها في الدواة الزجاجيَّة، امتزجت بالأسود الكحليِّ ثمَّ ماتت مطمئنةً أن بعثَها سيكون من الكلمات.

تأمَّلتُ غلاف الكتاب المركون، ثمَّ رفعتُ بصري صوب الكتب القليلة التي وضعتها أمامي. وإذ بدت مكتبة حنًّا الجداريَّة ضئيلة التأثير، لاحت في خاطري الغرفة الكبيرة ذات الكتب الوفيرة في تريسته، حيث كنت أجلس وأكون تحت الطلب لأنسخ المخطوطات. انتظمت ساعات النهار حول النسخ، كما لو أنَّ مهمَّةً جديدةً أضيفت إلى قائمة مهامي على نحوٍ غير متوقَّع. وفي تلك الساعات التي أمضيتها في النسخ جالسةً مع القنصل البريطانيِّ في غرفةٍ واحدة، تعلَّمت أمورًا شتَّى أوضح وأفضل بكثيرٍ ممَّا تعلَّمته في بلاد الإنكليز التي ما كان فيها من فرصةٍ لأيٍّ شيءٍ خلا الاندهاش بكلِّ ما يحوطني وكلِّ ما أُبصره وأسمعه وأتذوَّقه وأحسُّه. لكأنَّ حواسي فاضت عن العدد الواجب خمس حواس أو ست سيان. نبتت في رأسي الأحاسيس والأفكار التي ما قادتها إلَّا المقارنة. كانت المقارنة تأتيني عفو الخاطر وتصعقني إذ تكشف لي حياةً أخرى؛ ليس لي فحسب، بل ولريتشارد وإيزابيل أيضًا.

* * *

يتغيَّر الزوجان الغريبان على إيقاع الأمكنة، فمقابل تلك القوَّة العظمى التي كانت تغلِّف هيئتهما وتصرُّفاتهما في الشام، ظهرت لهما في بلادهما الإنكليزيَّة هيئاتُ أخرى وتصرُّفاتُ مختلفة، والأمر لا يتعلَّق بالمزاج وحده، بل بتلك المظاهر التي كانا يحرصان عليها. مظاهر وأشياء ما خلتها البتَّة على هذا النحو. الأسبوعان اللندنيَّان المتكرِّران كلَّ بضعة شهور، كانا الأوضح في صقل تلك الطريقة بالتصرُّف. عرفت معنى أن يكون للمرء قصدٌ وجدول أعمال، وخطواتٌ يجب المضي بها للوصول للهدف أكان مخفيًا أم مُعلَنًا. عرفت معنى التَّخطيط والمجاملة والتحفُّظ والنظر إلى أبعد من القشور.

في الأسبوعيْن اللندنيَّيْن يكون ريتشارد مختلفًا، يحترم جدول الزيارات التي رتَّبَتها إيزابيل على نحوٍ دقيقٍ جدًّا، لكن يختطف نفسه إلى المدينة بصورةٍ بدت غامضةً على الدوام. يعود من زياراته الخاطفة تلك ممتلئًا بنفسه، مرحًا يطلق النكات والتَّعليقات اللَّاذعة في كلِّ حين. كأنَّ شيئًا في المدينة يشحنه بتلك الطاقة المشعَّة. فتخيَّلت لندن مكانًا للعجائب والأطايب، مختلفةً تمامًا عن تلك التي وطأتُها لأوَّل مرَّةٍ في خريف عام 1871.

السفر من دمشق إلى بيروت فالبحر فالمرافئ فالبحر فمرفأ دوفر ثمَّ ليفربول ثمَّ قلب الإمبراطوريَّة لندن. المناظر المتنوِّعة والمتبدِّلة على الدوام في طريق السَّفر الذي استغرق أسبوعيْن، دفعتني للكلام، ليس مع ستِّي إيزابيل بل مع نفسي. فأنا ما عرفت شيئًا من تلك المناظر الشاسعة قبلًا. كنتُ مثل من عاش حياته كلَّها في محَّارة، وفجأةً فُتحت المحَّارة ورُميت في بحر الحياة. كنت أرى البحر ولا أعرف اسم هذا الماء الملتحم بالأفق، كنت أنظر الأشجار والنباتات ولا أعرف لها اسمًا، أنظر المدن والقرى ولا أعرف لها اسمًا، أصعد مع ستِّي إيزابيل إلى سفينةٍ بخاريَّةٍ خلتُها مدينةً معدنيَّة، بل إنَّني ظننتها في البدء قطعةً من بلاد الإنكليز. لم تكلِّف ستِّي إيزابيل نفسها عناء تسمية أيِّ شيءٍ أمامي. وأنا لم أطلب منها أن تسمِّي الأشياء وتكرِّر بصوتٍ مرتفعٍ لأعرف ما هذا الذي أنا في خضمِّه. أوضحُ ما أتذكَّره في ذاك السفر، كان وجه إيزابيل وقد نحل، ارتخت وجنتاها وتهدل جفناها بغتةً، ولم تكن تتكلَّم إلَّا عن صناديق الأمتعة، تحفظ كلَّ ما فيها، وتتحسَّر على كلِّ ما لم تستطع أخذه معها، من متاعٍ وأثاثٍ وقماشٍ وحيوانات، وتفكِّر بصوتٍ عال، وتثرثر كثيرًا عن خيانة أحد القوَّاصين لها، حين رفض «مساعدتها» في حزم كلِّ ما تريد حمله من الشام إلى لندن. تُكثِر من رسم إشارة الصليب، وتتمتم باستمرارٍ وتتضرَّع. ثمَّ تجد وقتًا لتجلس وتكتب قوائم طويلةً بما يجب عمله. بدت أكثر من مشغولةٍ بنفسها، كأنَّها أطبقت على نفسها محَّارتها، وانسحبت داخلها. لكنَّها لم تنس نبرة الأمر والنهي حين كانت تُحدِّثني، إلَّا أنَّها لم تحمل سوطًا بيدها ولا تهادت مختالةً بين الناس.

بعينيْن قويَّتيْن رحتُ أنظرها وأرى كيف تبدَّل أمرها من إمبراطورةٍ إلى امرأةٍ بين الجموع، لا تنفكُّ عن تكرار جملةٍ وحيدة: «لم أفقد أيَّ

دبوس، ولم تُصِبني إلَّا النعم». كان عليَّ أن أفهم وحدي محنتها القاسية، وأنَّها اقتُلعت من مدينةٍ تظنُّ أنَّها تخصُّها أكثر ممَّا تخصُّني، وأنَّ الأمر أبعد أيضًا ممَّا أراه.

ربطتُ الأمور في رأسي بوضوحٍ في المساء قبل الأخير في الشام، حين زارها في بيت الصالحيَّة الأمير عبد القادر وصديقتها الإنكليزيَّة ذات الزوج البدويِّ المسمَّاة أم اللبن لبياض بشرتها، وشارل تيرويت دريك صديق ريتشارد، القنصل البريطانيُّ الذي لم يَعُد قنصلًا فجأةً. طغت اللُّغة الإنكليزيَّة في ذلك المساء، وفهمت ما جرى، سمعت الليدي دغبي وسمعت دريك، إلَّا أنَّني ما فهمت ما كان يقوله الأمير عبد القادر لستِّي إيزابيل بلغةٍ جديدةٍ عليَّ، منغمةٍ بنعومةٍ تجعل الشفتيْن على وشكِ التصفير، وتغنُّ باستمرارٍ بحرف النون. لكنَّ العيون الثمانية امتلأت بالحزن والحسرة، ومالت حتَّى انطوت في زعلها كلَّما رنَّ الاسم: ريتشارد. يرنُّ اسمه في فضاء بيت الصالحيَّة ويطير محمولًا على مديحٍ وحبٍّ لا ينتهيان ترافقهما مرارةٌ تفوق الوصف، تفصح عن ظلمٍ فادحٍ لحق به. وتلتصق باسمه عينا إيزابيل المترقرقتيْن بالدمع من دون أن تذرفهما.

فكَّرتُ في القنصل الذي كان يتهادى في الطريق من الصالحيَّة إلى قنصليَّته حين كنت أرافقه، ممسكًا تلك العصا الطويلة ذات مقبض الفضَّة، فارسًا ولو من دون خيل، ملكًا ولو من دون تاج. حضوره كافٍ لتعليم السلطة، أيِّ سلطةٍ، كيف تكون طاغيةً بشكلٍ مُطلق؛ سلطةٍ تخرج من عينيْه وتسمِّر محادِثه، سلطةٍ تخرج من شفتيْه وتصعق مستمعه، سلطةٍ تشفُّ منه وتجذب الناس إليه. متوهجٌ باستمرار، ومتعجِّلٌ دائمًا. أراه في إحدى أماسي الصالحيَّة نازلًا من الدرج صوب أرض الديار،

مرتديًا ملابس عربيَّة. يصير مرَّةً شيخ قبيلة، ومرَّةً درويشًا متصوِّفًا، مرَّة أحد الأعيان، ومرَّة جنِّيًا، مرَّةً تاجر قماش، ومرَّةً حكواتيًا. ولفرط ما كان يبدِّل ثيابه العربيَّة، تخيَّلته مرَّةً يرتدي ثياب قوَّاص. ومهما تبدَّلت الأزياء، احتفظ القنصل البريطانيُّ بسلطته المغناطيسيَّة، واحتفظ أيضًا بخاتمه الكبير. خاتمٌ له فصٌّ ضخمٌ من حجر الياقوت الكحليّ، وللخاتم أيضًا حكاياتٌ تشعُّ ما إن تتلألأ سطوح الحجر الكريم الهندسيَّة تحت أيِّ ضوء. يردِّد القنصل البريطانيُّ الشغوف بإبهار الناس، كلِّ الناس، قصصًا لا تنتهي عن خاتمه، يردُّ به عين الشيطان الشريرة لئلَّا يعاني حين يمرض، ولا يصيبه النحس حين يُحسد، ولا تختفي النجوم من ليل الصحراء فيتوه في رمالٍ لا تنتهي، ولا ينقص شيءٌ من سحره حين يسأل. تشعُّ الحكايا متناسلةً مشرِّقةً مغرِّبةً لتجعل الحجر الكحليَّ اللَّامع في الإصبع الثالثة ليمين ريتشارد، مربوطًا بعالمٍ غرائبيٍّ مجهول، يشبه مغارةً مركونةً في زوايا معتمة، حيث تتلألأ الأحجار الكريمة وفي وسطها جنِّيٌّ ابتكر لنفسه ولريتشارد لغةً واحدة، لن يعرف كنهها البتَّة أيُّ أنسيٍّ سوى القنصل البريطانيّ.

سمعت اسم صاحب الخاتم الكحليِّ البرَّاق ألف مرَّةٍ ومرَّةٍ في ذاك المساء، مصحوبًا بنبرة أسفٍ مطويٍّ بالمرارة. أدركت أنَّ ثمَّة عصا سحريَّةً قد بدَّلت الأحوال والأمكنة، وأنَّ الشام تغيب وتكاد تغور في نهرها. بَيْد أنَّ ما لم أستطع تصوُّره منظر القنصل البريطانيِّ المهيب وقد تحوَّل، في فندقٍ صغيرٍ بلندن، إلى شيءٍ غابت عنه كلُّ مهابةٍ وكلُّ سحر.

بدا ريتشارد بورتون حين التقى بزوجته إيزابيل في لندن، في غرفة الفندق المتواضع، خارجًا لا من الكتب والسفر والشغف

والسحر والسُّلطة، بل من طينٍ رماديٍّ يشبه الطين على حافَّات سكَّة القطار في الشتاءات اللندنيَّة، متدثرًا بقماشٍ لا يُمكن نسبته إلى أيِّ شيء، كأنَّ خيمةً ممزَّقةً على وشكِ الوقوع حطَّت على روحه وسلبتها كلَّ روح. روحٌ مسلوبة الرُّوح. وخاتمٌ بحجرٍ كحليٍّ يلمع بالعقاب. عينان مشغولتان بهذياناتٍ تنبض بالزعل. رغبةٌ بالانعتاق لا صوب سفرٍ أو كتاب، بل صوب نفْسٍ تكسَّرت خجلى، وارتاحت في الانعزال.

وإذ هو في حالته المروِّعة تلك، بدا كما لو أنَّني صرت غير مرئيَّة، كأنَّني إحدى الحقائب أو المتاع، مركونةً ومنسيَّةً تمامًا. والزوجان الإنكليزيَّان مشغولَين بحياةٍ جديدةٍ طرأت عليهما.

فتحت ستِّي إيزابيل دفترين من دفاترها، ووضعتهما أمامها فوق طاولةٍ صغيرة. ثمَّ أخرجت أوراقًا وريشةً وبدأت بالكتابة.

تجلس الليدي الإنكليزيَّة بظهرٍ مشدود، وتكتب رسائل شتَّى تضعها في مغلَّفاتٍ ذات عناوين واضحة، وتنظر ثانيةً في إحدى الدفترَيْن. والقنصل الذي ما عاد قنصلًا يراقبها باطمئنان، كما لو أنَّ ما تخطُّه سيُعيد الأمور إلى نصابٍ مُشتهى. وهي تتصرَّف كما لو أنَّ ما جرى خطأٌ غير مقصودٍ وإن هي إلَّا وهلةٌ وتعود إمبراطورةً في ظلِّ إمبراطورها المعبود.

لم تَعُد تطلب منِّي ستِّي إيزابيل مساعدتها بارتداء ثيابها فحسب حين تهمُّ بالخروج، بل صارت توكلني بغسيل الثياب. تشير إلى الصابون والأقمشة المتراكمة بيدها من دون أن تتكلَّم معي، وتفتح باب الحمام الصَّغير وتشير أن أدخل، ثمَّ تغلق الباب.

أكون في الحمام الصَّغير مغلق الباب، وتصير روحي ترفرف تنبِّهني إلى ما أنا فيه، وتعجز عن التَّفسير والتَّفكير. وبدلًا من أن أحادث نفسي عن نفسي فقط، كان الزوجان يقتحمان الحديث. تصوَّرت نفسي مربوطةً بشريطةٍ بستِّي إيزابيل، وأنَّ ما يُصيبها يُصيبني، على الرَّغم من أنَّها صارت منذ وطأنا بلادها ساهمةً تمامًا عنِّي.

تعود بعد جولتها، وتجلس مع رجلها وتُخبره عمَّا فعلت بصوتٍ خفيض، لا يلبث أن يمتلأ حماسةً وقوَّة، فتقف وتشير بيديْها، وتستحضر معارفها واحدًا واحدًا، ثمَّ واحدةً واحدة. ثمَّ تبدأ بسردٍ لا نهاية له، عمَّا قالته وما قيل لها، وتكرِّر باستمرارٍ أنَّها تحتفظ بالأوراق والرَّسائل اللَّازمة. ينظر القنصل الذي لم يَعُد قنصلًا بعينيْن فارغتيْن من التَّصديق وممتلئتيْن بالشك. ثمَّ تتلوَّنان بنوعٍ من الغضب والسخط، تبدِّده قليلًا الكؤوسُ الوفيرة التي كان يحتسيها، فتُصيِّره للحظاتٍ قنصلًا قويًّا من جديد.

قد تنتبه إيزابيل لحضوري أحيانًا، فترتسم على وجهها نظرةٌ مندهشةٌ كما لو أنَّني خرجت فجأةً من إحدى الحقائب المنسيَّة في زاوية الغرفة. لأدرك أنَّني صرت غير مرئيَّةٍ البتَّة، وأنَّه من المُمكن نسياني تمامًا في حمَّام الغرفة أو في الممرِّ خارجها.

مرَّت أيَّامٌ على هذا المنوال الرتيب، وكنتُ أدخل الحمام الصَّغير ما إن تخرج ستِّي، حتَّى ولو لم يكن من ثيابٍ للغسيل. فالحضور الطاغي لوحشٍ منكسرٍ مثل ريتشارد بورتون، كان يحيل غرفة الفندق إلى ما يشبه الدوَّامة القويَّة التي قد تبتلعني بلحظةٍ عصيبةٍ واحدة. واللحظات العصيبة ما كانت قليلةً البتَّة في ذلك الوقت، تعزِّز من سوادها كؤوس

القنصل الوفيرة، وتململه بهمهمةٍ خشنةٍ حين تفرغ الزجاجات. يدور في الغرفة مثل نمرٍ أسيرٍ في قفص، وتلتهم عيناه كلَّ ما حوله، وإنْ، مصادفة، التقت نظرتي بهما، يُثبِّتهما بقوَّة نظرةٍ لا تحتمل أيَّ لبسٍ أن من أنتِ؟ اغرُبي عن وجهي!

أقفُ في الحمَّام الصَّغير أمام المرآة وأروح أتأمَّل وجهي، فأرى بقع المزاج المعكَّر تعلوه، تشحذها الأفكار الجديدة التي ترنُّ في ذهني. للمرَّة الأولى صرت أسأل نفسي: وماذا بعد؟ هل سأمضي عمري على هذا النحو حبيسة جدران ضيِّقةٍ وزوجيْن غريبيْن؟ أمدُّ رأسي صوب النافذة الصَّغيرة، وأتفرَّج على الشارع وناسه، بيوته وحدائقه، الدكاكين والجرائد، وأسرح متخيِّلةً أمورًا لن تحدث، كأن أهرب من قبضة زوجين أعرفهما إلى مدينةٍ مصفَّفةٍ ومرتَّبةٍ لا شيء يربطني بها ومحتَّمٌ عليَّ أن أجهلها. أنظر جيِّدًا، وأميِّز برج كنيسةٍ غير بعيدة، فأتخيَّل نفسي قد وصلت إليها، وأنَّ من فيها سيستقبلني ويقترح عليَّ حياةً جديدة، أعرف منها على الأقل قوَّة الصلاة واللُّغة الإنكليزيَّة.

❋❋❋

رتَّبتُ الأوراق الإنكليزيَّة التي كتبتها ورقَّمتُها، ثمَّ أطبقت عليها بورقةٍ بيضاء، ووضعت فوقها علبةً ثقيلة. تركت غرفة الظلال وفي بالي أيَّامي اللندنيَّة الأولى الخانقة التي مضى عليها أكثر من اثنيْن وعشرين عامًا. وطلَّت من بالي سلسلة الأسئلة التي تبدأ بماذا لو؟ ماذا لو بقيت هناك؟ ما كان سيكون من أمري؟ أكنت نفَّذت ما تخيَّلته؟ وخيالي ما كان يأتيني إلَّا من اللُّغة الإنكليزيَّة، حيث أحببت جدًّا استراق السَّمع. أسمع ستِّي إيزابيل تُخبر إحدى صديقاتها وهما تتناولان شاي الخامسة، عن مشرقيَّيْن مسيحيَّيْن يجوبان لندن المجهولة لي، يقرعان الأبواب حاملين أوراقًا تخبر عن امتزاج الاضطهاد المشرقيِّ بالدِّين المسيحيّ، ويجمعان نقودًا لبناء كنيسةٍ في الإمبراطوريَّة الممتلئة كنائس وقصورًا وحدائق. فأتخيَّل نفسي أقوى ممَّا أنا. أصفق الباب وأخرج وأفعل الأمر ذاته. أروح أتوه في التفاصيل، وماذا أكتب في ورقتي أنا؟ وأيُّ كنيسةٍ أريد بناءها؟ فأتخيَّل الزمن يعود إلى الوراء قليلًا، وأنَّ القسَّ وليام علم بأمر سفري واهتمَّ بالمجهول الذي أساق إليه، فدرَّبني على كتابة رسالةٍ تطرِّي قلوب الإنكليز نحوي، وتدفعهم لإعطائي النقود ومساعدتي في بناء الكنيسة. أتوه في التفاصيل، عن اسم الكنيسة وعمَّا إن كان مستحسنًا أن أضيف لاسمها صفة «الشاميَّة» مثلًا. ثمَّ أفكِّر كيف

سيكون بناؤها، برجها، جرسها، مذبحها، أيقوناتها، وزيناتها؟ وهل سيكون القدَّاس بلغتي أم بلغة الإنكليز؟ وأين أسكن أنا فيها؟ وما إن يلوح لفظ مَسْكن، حتَّى أرى صعوبةً كبرى في استمرار أحلام يقظتي، فأبدِّلها بما بدا لي وقتها أحلامًا أسهل. كأن تُعلِّمني إحدى صديقات ستِّي إيزابيل، وقد رأت كيف لفقت بإبرةٍ ناعمةٍ ياقة الدانتيل المرتخية، صقل معرفتي بالخياطة، فأصير خيَّاطةً ماهرة، لديَّ كلُّ هذا القماش الغريب المتنوِّع من الجوخ الكتيم حتَّى الدانتيل الواهي، ومن التافتا الصقيلة حتَّى المخمل العشبيّ. وخيطان من كلِّ الألوان، وكلُّ ما يلزمني من مقصَّاتٍ وإبرٍ ودبابيس. وأشياء جديدةٌ عليَّ رأيتها للمرَّة الأولى، في متجرٍ لندنيٍّ صغيرٍ حيث اصطحبتني ستِّي إيزابيل لتفصيل ثوبٍ لي.

أوهام الثوب الإنكليزيِّ الأوَّل لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ولزمني وقتٌ طويلٌ لأفهم ما دار في رأس إيزابيل، حين انتبهت فجأةً أنَّ ثيابي الملوَّنة تبدو مثل «ثياب ممثِّلةٍ مسرحيَّةٍ اللَّـه وحده يعلم إن كانت هنديَّةً أو غجريَّةً أو هاربةً من اللَّيالي العربيَّة الفاسقة»، كما تمتمت. طلبت منِّي وضع شالٍ غامقٍ طويلٍ لأخفي «هذا المهرجان الصاخب» وانطلقنا ورأيت لندن.

كانت المدينة تركض وتتَّسع، وتبزغ أبراج كنائسها المروَّسة والمتطاولة، والبنايات فيها ذات الشبابيك الكبيرة تزداد كأنَّ لا نهاية لها، وكذلك تعليقات ستِّي إيزابيل: «امشي فوق الرصيف لا فوق الزفت الأسود»...... «لا تتلكئي أمام واجهات الدكاكين ولا تطلِّي برأسك داخلها، لسنا في بازار الشام».... «انتظريني هنا ريثما أشتري الجريدة»... «بحقِّ السماء، لا تلمسي الزهور والأشجار».. «بحقِّ السَّماء، كفِّي عن التَّحديق في عيون المارَّة، هذا مستهجنٌ جدًّا». ..«اتبعيني

فقط، ولا تتكلَّمي، بحقِّ السَّماء، أعليَّ الاعتناء بك والانتباه لكلِّ ما تفعلينه أيضًا؟» شلَّال التَّعليقات الإنكليزيَّة الهاطل من فم إيزابيل، دلَّني أنَّني مرئيَّةٌ أكثر من المطلوب، وأنَّ عليَّ أن أصير مثل حقيبتها، بالكاد مرئيَّةً، لكن متيقِّظةً وتحت الطلب والأوامر.

قبل أن ندلف المتجر الواقع في شارع أوكسفورد الواسع وفائق الترتيب، التفتت إليَّ «سأباشر محادثةً مهمَّةً مع الخيَّاط من أجل ثوبٍ لك. تبقين صامتةً طوال الوقت وتتبعين إرشاداته بدقَّة». لم أتبع الإرشادات فحسب، بل التهمت كلُّ ما رأيته في متجر السيِّد بيكر الخيَّاط. حفظت المفردات الجديدة: نوعا القماش؛ قماش الثوب، قماش غطاء الرأس. اسم الثوب، قَصَّة الثوب، وطيَّات الثوب. ثمَّ بهرتني تلك الشريطة الملوَّنة التي كان يقيس بها أبعاد جسدي، والكرة الإسفنجيَّة الصغيرة ودبابيسها الدقيقة ذات الرؤوس الملوَّنة، ثمَّ الدفتر في يده يدوِّن فيه ما إن ينتهي من قياس أبعاد جسدي. عيناي متَّسعتان وأذناي أكثر من يقظتيْن. حفظت كلَّ شيءٍ وكلَّ الكلمات عن ظهر قلب. لكن لم أنتبه إلَّا لاحقًا إلى معنى اسم الثوب. عرفت المعنى من النظر. نظرةٌ واحدةٌ أطاحت بأوهامي عن ثوبي الإنكليزيِّ الأوَّل، حين رأيت خادمات صديقات ستِّي إيزابيل يرتدين الثوب نفسه، القماش نفسه، المريول نفسه، وغطاء الرأس نفسه. فهمت معنى اسم الثوب: زيُّ الخادمة.

ثمَّ أراني أمشي في الطريق اللندنيِّ الواسع المرتَّب وراء ستِّي إيزابيل بخطوةٍ واحدة، ساهيةً عن الوجهة. البيوت كلُّها مرصوفةٌ بقطعٍ حمراء صغيرةٍ لم تعرف يومًا الميلان ولا التعرُّج برقَّة. إطارات النوافذ ناصعة البياض وكبيرةٌ كأنَّها أبواب. أسترق النَّظر إلى لندن، أنظرها كما

لو بطرف عينيّ، كما لو أشيح عنها. أنظر كما درَّبتني بلاد الإنكليز؛ أنظر كأنَّني لا أنظر. لا تحديق، لا تفرُّس، لا تأمُّل، لا إطالة نظر، وقطعًا لا إدامة نظر. استراقٌ بالعينيْن وانتباهٌ حادٌّ بالأذنيْن لكي ألتقط كلماتٍ جديدةً، ولا تفوتني أوامر متجدِّدة. «سأباشر محادثةً مهمَّةً مع المصوِّر من أجل صورةٍ لك. تبقين صامتةً طوال الوقت وتتبعين إرشاداته بدقَّة» قالت ستِّي إيزابيل ونحن ندلف متجرًا لا أعرف كنهه. رفعت بصري وقرأت «أستوديو الملكة». الأسود يُجلِّل أشكالًا معدنيَّةً معقَّدة التَّصميم، الأسود يلفُّ قامة الرجل الإنكليزيِّ بشعره الشمسيّ، الأسود لون زيِّ الخادمة. يقول المصوِّر الإنكليزيّ إنَّ شعري الأسود المتماوج يعذِّبه، يغيب ويعود حاملًا بيده وشاحًا أبيض كبيرًا. ترقب عينا إيزابيل هيئتي شبه المتجمِّدة. تقترب منِّي، وتقول إنَّ عليَّ تغطية كتفيَّ وصدري بالوشاح الأبيض الأقرب إلى شرشف. أُغطِّي زيَّ الخادمة الأسود بالوشاح الشرشفيّ، يشير الإنكليزيُّ ذو الشعر الشمسيِّ أن أخفي رقبتي السَّمراء. يقترب ليُعدِّل تموُّجات الأبيض، يمدُّ يديْه ويصير ينثر الشعر الأسود. تتأكَّد إيزابيل من أنَّ غطاء رأسي الأبيض الصَّغير يدلُّ على زيِّ الخادمة المختفي تحت شرشف المصوِّر. برقٌ صغير، ثمَّ برقٌ أقوى، مثل نجميْن يحترقان وينطفئان بغتة. بقيت بعد انقضاء البرقين متجمِّدة في مكاني، إلى أن قالت ستِّي إيزابيل أن هيَّا.

الأمور في حينها أو لا تكون. فهمتُ متأخِّرةً حدَّ أنِّي حين تذكَّرتُ، أدركت أنَّني نسيتُ كيف نسيتْ ستِّي إيزابيل أن تسمح لي ولو بالنظر مرَّةً إلى صورتي عندها.

***

نفضت رأسي لئلَّا أستمرَّ بتذكُّر تلك اللَّحظات. واتَّجهت إلى غرفتنا، أنا وحنَّا، وقفت أمام خزانة الثياب الكبيرة، فتحتها، ثمَّ تربَّعت أمامها، وبدأت أُخرج قطع القماش الكثيرة المرتَّبة كما لو في متجرٍ لندنيّ. انتقيت قطعة تافتا خضراء غامقة، وقطعة موسلين خضراء. فتحت علبة الشرائط والأزرار وعلبة الدانتيل. ورحت أختار ما يليق لجعل الثوب حديث الحيِّ حين أنتهي من خياطته.

حين جاء حنَّا في المساء ورآني جالسةً أخيط، ابتسم مسرورًا ومشى صوبي وهو يُمطرني بالأمثال الغزليَّة الكثيرة التي يحفظها، ثمَّ أمسك التافتا والموسلين، وراح يُخبِّر عن آخر أثواب الجوخ الإنكليزيِّ التي استوردها لمتجره. أصغيت باهتمامٍ لشؤونه التجاريَّة الناجحة، ثمَّ رحت أسأله عن الطرود والبريد وفي ما لو كان ممكنًا أن يساعدني في طلب بعض السلع من بلاد الإنكليز. ابتسم حنَّا وقال: «كلُّ قماش الإنكليز تحت أمرك، اطلبي بس». أجبت فورًا: «لا مو قماش عندي كتير، في كتاب بالإنكليزيّ». اندهشت العينان الخضراوان وصارتا شبه زرقاويْن، تستفسران بصمتٍ ويشعُّ منهما حذرٌ جديد. ابتسمت وأردفت: «كتاب شعر، لإدوارد فيتزجيرالد، عنوانو رباعيَّات الخيَّام، قريتو بتريسته من زمان وحابة أرجع أقراه». تغيَّرت عينا حنَّا ما إن لفظتُ

تريسته، وأظهرتا نظرةً تقول إنَّ حذرهما كان في محلِّه، وقبل أن تحرِّضا حنَّا الباهي على قول شيءٍ يجرح روحي الهشَّة، تسلَّحت بالكلام الجارح وقلت: «بيقولو طوشة النصارى.. نحنا طشنا يعني، طاش حجرنا ودبحنا حالنا هيك؟ كيف يعني طوشة؟ كيف يعني القتل صار كأنُّو شي بالغلط، شغلة زغيرة؟ أنو رصاصة طايشة إيه ممكن، بس كيف سيوف وخناجر طايشة؟ طب وحرق وسرق ونهب طايش كمان؟ ليش سمُّوها طوشة النصارى؟».

أرشُّ حنَّا بأسئلتي المتلاحقة لتغيب تريسته وقنصلها عن بيتنا الشاميّ. فينظر حنَّا إلى عينيَّ والأسف يوقد كلماته على نارٍ هادئة: «الظاهر أنّو القنصل البريطانيّ ما مات، موتة مرتو ردّتو من القبر». أخفض بصري مرشوشةً بكلمات حنَّا الصائبة، ولا أجد كلمةً واحدةً تعينني على تبديد كلِّ هذا الجوِّ الثقيل الذي نبع بقوَّةٍ بسبب لفظٍ صغير.

«قسمةٌ عادلة، الليدي إيزابيل ترشُّك بالماء المقدَّس وأنا أرشُّك بالحبر. خذي هذا المخطوط، أريد نسختيْن جميلتيْن. لست بحاجةٍ إلى تعليماتٍ جديدة، تتعلَّمين بسرعةٍ مثل الثعالب البرِّيَّة». تناولت المخطوط وجلست أمام طاولة الزاوية، حيث صارت لي دواةٌ وريشاتٌ خاصَّةٌ وأوراق. وبدأت أخطُّ بالعربيَّة الفصحى مزيدًا من الشعر.

أنتهي والقنصل مبتسمٌ يتأمَّل الكلمات العربيَّة وحركاتها التي أحرص على رسمها. قرأ شيئًا بصوتٍ أجشَّ شبه خفيض، نظر إليَّ وبدأ يحادث نفسه: «يذكِّرني هذا بشعرٍ إنكليزيّ، له معنى مشابهًا، لكم يفتنني ميلتون». وراحت تبزغ من شعره الذي خطَّه بعض الشيب قصيدةٌ إنكليزيَّة:

Was I deceived, or did a sable cloud

Turn forth her silver lining on the night

,I did not err, there does a sable cloud

Turn forth her silver lining on the night

And cast a gleam over the tufted grove

كانت الكلمات الإنكليزيَّة تخرج من روح القنصل الفوَّارة، تنتقل إلى العربيَّة الفصحى حين تلتقطها أذني، لتشكِّل جملًا مبتورة المعنى. «ما معنى sable؟ ما معنى silver lining؟» سمعت صوتي للمرَّة الأولى مستفهمًا بثقةٍ وترقُّب. وجاء جواب القنصل ممتلئًا بالمعرفة وكريمًا بالشرح عن الصورة كيف تصير استعارةً وتولِّد معنى أبعد، وعن الشعر يصير مثلًا رائجًا، يخرج من الكتب ويحطُّ في الحياة اليوميَّة لكلِّ الناس. «أي ثمَّة جانبٌ إيجابيٌّ لكلِّ شيء، ومهما كانت السحابة حالكةً فإنَّها ستتكشَّف عن ضوء. الكلمات شعرًا لا تؤخذ بحرفيَّتها البتَّة. والأمر ليس معطى، بل تلزمه قراءةٌ جدِّيَّةٌ ومستمرَّةٌ وتفكيرٌ حرّ». ابتسمت وتشكَّلت في ذهني أولى الأهداف عن فائدةٍ أكيدةٍ تأتي من الكلمات. وتابع القنصل أنَّ «للسحب أنواعٌ كثيرة، وهذه التي يذكرها ميلتون ربَّما لا تظهر هنا في تريسته، لكنَّها بكلِّ تأكيدٍ تظهر في الشمال حيث بريطانيا العظمى. وثمَّة آلاتٌ وأدواتٌ لرصد كيف تتلألأ برَّاقةً من عتمتها في اللَّيل». ثمَّ التفت إلى أحد المكاتب وأحضر آلةً معدنيَّةً من بين الآلات الكثيرة المتناثرة في غرفة الكتب. ثبَّتها جيِّدًا بيديْه القويَّتيْن مقابل النافذة الكبيرة، وقال: «من يدري؟ لعلَّ سحابة ميلتون تمرّ».

تصوَّرت في ذهني سحابةً برَّاقة تتلألأ في سماء تريسته وأنا أنهض بعدما أدَّيت مهمَّتيْن ممتعتيْن: النسخ والإصغاء للكتب الطالعة من رأس

القنصل. وقبل أن أنسحب مسرورةً بغنيمتي الوحيدة، جاء صوت ستّي إيزابيل. دخلت القاعة بسرعةٍ مرتديةً ملابس مطابقةً لملابس زوجها القنصل: قميصٌ وبنطال من لون عاجيّ، وزنّارٌ قماشيٌّ عريضٌ أحمر، وحذاءٌ مخصوصٌ بربطاتٍ ناعمة، ممسكةً بيمينها سيفًا ناحلًا، وبيسارها قبّعةً لها شبكٌ معدنيّ. «ها قد جهزت». مشى القنصل باتّجاه زوجته بخطواتٍ طيّارة، ثمّ التفت إليّ ودوّر بؤبؤي عينيْه القاتمتيْن ليرعبني، فما ارتعبت، فغمزني: «سأذهب لمبارزة المقدّس».

***

لم تمرَّ سحابة ميلتون، فلم أجد أمرًا إيجابيًّا من كلام حنًّا المعتم: «الظاهر أنو القنصل البريطانيّ ما مات، موتة مرتو ردّتو من القبر».

كرَّرتُ جملة حنًّا مرَّاتٍ عدَّة، ولم أجد بعث ريتشارد بسبب موت إيزابيل وسكناها معه في ضريحٍ واحد، أمرًا مضيئًا، لأنَّ معرفتي بالقنصل لا يُمكن اختصارها بوجهٍ واحد، إيجابيًّا أم سلبيًّا. فالقنصل البريطانيُّ حمَّال مفاجأَتٍ على الدوام في حياته كما بعد موته. القصص التي تدور عنه في الشام مليئةٌ بالمتناقضات التي لا تعرف إلَّا الأقاصي، فإمَّا إعجابٌ حدَّ الاستلاب، أو كراهةٌ حدَّ الشرّ. وهي كلُّها قابلةٌ للتَّصديق مهما بدت غرائبيَّة. قيل إنَّه قتل مسلمًا كاد يكشف هويَّته وتنكُّره في رحلته للحجِّ إلى مكَّة والمدينة المنوَّرة، وقيل إنَّه دافع عن الفلَّاحين الضعفاء بوجه جشع المرابين، وقيل إنَّه كاد يعلن مملكةً مسيحيَّةً لفرقة الشاذليِّين المتصوِّفة الذين عمَّدتهم إيزابيل مسيحيِّين كاثوليكيِّين، وقيل إنَّه ساق رهبانًا أرثوذكسيِّين مكبَّلين بالحديد من الناصرة حتَّى السجن في الشام، وقيل إنَّه أمطر الوالي العثمانيَّ رشيد باشا بلعناتٍ شيطانيَّةٍ لا تُردُّ فطيَّرته من منصبه وجرَّدته من كلِّ أملاكٍ وسلطة، ثمَّ أردَته بالضربة القاضية بعد شهرٍ من إبعاد ريتشارد المهين من دمشق. وقيل إنَّه ما زال يتسلَّل ليلًا إلى المدينة متنكِّرًا ليبدو واحدًا من أهلها،

وثمَّة من أقسم أنَّه رآه رأي العين جالسًا على الدكَّة في أحد المقاهي خلف الجامع الأمويِّ يقصُّ حكايا عربيَّةً مثيرةً لا أجمل منها. وثمَّة من أقسم أنَّه رآَه يدور حول نفسه بثوب درويشٍ مأخوذٍ في واحدٍ من بيوت حيِّ الميدان. وحين كنت أسمع كلَّ تلك القصص عنه، كنتُ أصدِّقها كلَّها، منفردةً أم مجتمعة، ودليلي الساطع شغفه بالتسلُّل ليلًا من بيت الصالحيَّة، مرتديًا لكلِّ مساءٍ غامضٍ زيًّا عربيًّا مختلفًا.

لكنَّ موت إيزابيل لم يبعث ريتشارد من قبره فحسب، وإنَّما بعث معه تريسته وكلَّ الكتب التي عرفتها وكلَّ المخطوطات التي نسختها في مكتبه، مكتب القنصل البريطانيِّ الذي صار متبرِّمًا ساخطًا في تلك المدينة النائية البعيدة من صخب الإمبراطوريَّة ومن ضجيج الشام العالي لكن المطمور والمخنوق بألف قيدٍ وقيدٍ وألف عارٍ وعار.

مثل سيفٍ يهوي بسرعةٍ خاطفة، عدت من أفكاري وأيَّامي التي مضت، نظرت إلى حنًّا وعينيْه المستفسرتيْن عن أثر جملته المسنَّنة عليَّ، وقلت: «بلا الكتاب وما تزعل منِّي». ابتسم الباهي مطمئنًا للأمر وقد استتبَّ كاملًا من تلويحة الزعل التي رنَّت في كلماته، فسمَّرتني وحجَّمتني. أخفضتُ بصري لئلَّا أرى نفسي تصغر وتصغر، وتكاد تعتذر لأبسط الأمور. وقبل أن أقف وأنصرف إلى تنظيم مسائنا كزوجيْن هادئين، لمعت في بالي جملةٌ مشرقطة: «انكمشتِ قد الكفّ».

تصوَّرتُ لو أنَّني فعلًا بحجم كفٍّ صغيرٍ صرتُ وأنا واقفةٌ مقابل المرآَة، أرتدي ثوب التافتا الأخضر الغامق الجديد، وأختار الوشاح الأخضر القديم الذي طيَّب به عمِّي خاطري بعدما جزَّت لي دله الكريهة شعري الطويل. حدَّثتُ نفسي لو صرت فعلًا بحجم كفٍّ صغيرٍ

لما ارتديت هذا الثوب المترف، ولاكتفيْت بقطعة قماشٍ صغيرةٍ تناسب حجمي المنكمش. في صفحة المرآة الصقيلة رأيت عينيَّ تنظرانني بثبات، وسمعت صوتي واثقًا: «لن أنكمش».

شال الحرير الأخضر يردُّ العيون الفضوليَّة عن رقبتي وطرف كتفيَّ المكشوفتيْن، وأنا أمشي في الدُّروب الناحلة تيَّاهةً كأن على خيل. أمسك السقَّاطة بيدي وأدقُّ باب بيت الحبِّ الذي لا ينتهي لأسمع صوت سعيدة الناعم المتراقص: «يا مية أهلًا وسهلًا».

مئة تأهيلٍ وترحيبٍ تحوط خطواتي في الدهليز المنعش، ومئةٌ أخرى تجيء بصوت عمِّي طالعةً من زهور أرض الديار. أبتسم وأقول للتي فيَّ «انكمشت قد الكفّ»، قد غلبتك.

الكؤوس رقيقة، والمجمر النحاسيُّ يتمدَّد في رائحة رماده الممزوجة برائحة الشاي، والسكينة المهدهدة على صوت ماء نافورة البحرة الرخاميَّة، تضفي على الزيارة الممتعة تفاصيل إضافيَّةً لجعلها أكثر إمتاعًا وأكثر ثباتًا في ذاكرتي.

وأنا على الكرسي ملتُ إلى الوراء وخرج صوت ضحكاتي حرًّا صدَّاحًا من تعليق عمِّي سمير اللَّاذع: «لا أبدًا أبدًا ما بخليها تلبس أخضر سعيدة، ناقصني أنا. بتضيع عمِّي بتضيع، وين بلاقيها بأرض الديار يلي عملتلي ياها غابة. بكون بدي روح عالمطبخ بتقللي انتبه ع طرف البنفسج دايب من الشوب، انتبه ما تدوس عليه بيزعل. بصير بنط وأعتذر من البنفسج والسلطانيَّة والياسمينة أنو لا تواخذونا يا جماعة، مرقونا بعد إذنكون. بقا تلبس أخضر كمان؟ لا عمِّي ما لي مصلحة منوب، وخلص من بكرا رح بطِّل أعمل حرير أخضر، بح».

صوت ضحكات سعيدة أعلى من صوت ضحكاتي وأكثر ثقة، يحفُّ بها اطمئنانٌ عميقٌ لا أظنُّ سيُتاح لي اختبار ما يشبهه. سعيدة التي بدأت حياتها الزوجيَّة مجبولةً بالحبّ، صارت تشبه مزاج عمّي المشرقط بسرعة البديهة والمزاح والمرح، وتعلّق على تعليقه بغنج: «واللّـه ما لك قلب، واسم الصليب ع زهوري شو بيحبوك». تتغنَّج وتميل ويصير صوتها بلّوريًّا صافيًا كما لو أنَّها لا ترتوي من غزله وتريد المزيد. وهما في مزاجهما الزهريِّ هذا لا ينتبهان إلى أنَّ الجمل الغزليَّة والضحكات قد تكبر معهما أو تتقدَّم في العمر، يتوهان متحابَّين وكلُّ كلامٍ وضحكٍ وغزلٍ يتجدَّد من دون أيِّ جهد. أمَّا أنا فأظنُّني أجتهد من أجل كلِّ شيء، وأفكِّر أنَّ الصعوبات لا ريب صقلتني ولعلَّها ستنقلني إلى مزاجٍ زهريٍّ مشتهى. أجتهد وأجتهد ثمَّ حين أكون أتفرَّج على سعيدة وعمّي سمير أدرك أنَّ الأمر أعقد وأكثر عفويَّةً وأسلس، أحار في توصيفه، ولا أجد كلمةً توفِّيه حقَّه، ثمَّ أستدرك بلى ثمَّة وصف: رجلٌ هانئٌ وامرأةٌ هانئة.

بينما كان الزوجان الهانئان يتراشقان بالودِّ في مزاجهما الزهريّ، لمع صحن الخزف الأزرق المعلَّق على جدار الإيوان. شعَّ اللمعان القديم، وصار إيوان بيت عمّي إيوان بيتنا القديم الذي احترق في تمُّوز اللاهب. لمعةٌ واحدةٌ وعدت طفلةً في السابعة لثانيةٍ واحدةٍ خاطفة، فكيف نجا صحن الخزف كلَّ هذا العمر؟ من دون تفكيرٍ سألت عمّي: «هادا صحن البيت القديم، مو؟ شو جابو لهون؟ وين كان؟». نظر عمّي نظرةً واحدةً صوبي، وأشاح بوجهه بتذمُّرٍ خفيف: «قمُّور كل مرَّة نفس القصَّة؟ إيه، هادا هو الصحن، ستِّك هيلانة راحِت وحدها مشان تشوف شو إلنا من المسروقات، وقت صارو يلي ما بينذكرو أوادم وبدّون يعوضو

الناس. وجابتو وعطتني ياه بس تزوَّجت. اسم الصليب كأنّو قلبها حسَّها أنّو سعيدة بتداريه بعيونها، مو متل مرة أبوكي اللّـه يسلِّمها شو عفشة. بس أنت بتضلّي بتنسي وبتتخيَّلي قصص ما صارت متل مسدَّس الوالد يوم الطوشة».

صمتُّ من دون أن أنكمش، أبعدت شعري إلى الوراء، وانحنيت صوب المنقل النحاسيِّ لأصبَّ كأس شايٍ ثانية. وضعت السكر، وفيما كانت الملعقة تدور ويرنُّ صوت زجاج الكأس الرَّقيق، برز شيطان الكلمات الظريف من السَّائل الأحمر البرتقاليّ، فأدركت أنَّه ينتظرني في بيتي في غرفة الظلال لأكتب. ابتسمت وحوَّم حولي مزاجٌ زمرُّديّ، فرمشت وقلت لجنِّيِّ الشاي بيني وبين نفسي: «لن أتأخَّر».

✹✹✹

لم أتأخَّر عن شيطان الكلمات، لكنِّي تأخَّرت في الوصول إلى القنصليَّة البريطانيَّة ذات مرَّةٍ بعد الدرس مع القسِّ وليام. سمعت صوت باب بيت نقولا بربارة يصفِق ورائي بقوَّة، واستعدتُ الأمر كما لو حدث توًّا. ما زلت أسمع صوت أخته آسين تقرِّعني على العباءة وغطاء الوجه: «وعاملة متل الإسلام بعد كل شي صار؟ ما أنت أمك كمان...». حين نطقت آسين بربارة جملتها تلك نبتت أشواكُ في قلبي، ومسامير مدبَّبةٌ حفرَت كلماتها في ذهني، إلَّا أنَّها ما إن صفقت الباب بقوَّةٍ حتَّى اختفى نصف جملتها عن أمِّي، اختفى اللَّفظ المتمِّم للمعنى، رغم أنَّه وخزني بشدَّة. رحت أمشي وأمشي متوهِّمةً أنَّ الخطوات قد تجد اللَّفظ الهارب وتعيده إلى جملة آسين وتتمِّم المعنى. أمشي وراء لفظٍ ضائعٍ فأتوه في الحارات الناحلة المتعرِّجة، ثمَّ انتبه إلى أنَّني في حيٍّ لا أعرفه. مشيت خطواتٍ قليلةً ثمَّ رفعت رأسي، ومن وراء الحجاب على وجهي أدركتُ أنَّ الحيَّ جديدٌ لكن قديم، دلَّتني عليه شجرة المجنونة تطلُّ ممَّا تبقى من بيتٍ متهدِّم، نافرٍ في مشهد البيوت الجديدة. لم يكن بيتًا كاملًا متهدِّمًا، بل ربع بيت. أرض ديارٍ محجوبةٌ وراء حائطٍ وحيد، وشبه غرفةٍ معلَّقةٌ على الركام تكاد تهوي إلَّا أنَّ شجرة المجنونة منعتها إذ مدَّت أغصانها الكثيفة وعشعشت في الغرفة المعلَّقة وربطتها بما تبقَّى من

أرض الديار. تفرَّجتُ على البيت الناتئ في وسط الطريق. رفعت رأسي أكثر وتبيَّنت من بعيدٍ برج الكنيسة الجديد والجرس الفولاذيّ الجديد، رنَّ جرس الكنيسة في رأسي منبِّهًا، وعرفت دربي إلى شارع مدحت باشا. مشيت صوب القنصليَّة، وتركت اللَّفظ المتمِّم للمعنى تائهًا في متاهات باب توما، بل لعلِّي طمرتُه فيما تبقَّى من ركام غرفةٍ معلَّقةٍ بشجرة مجنونة، معلَّقةٍ بما تبقَّى.

متأخِّرةً ومضطربةً دخلتُ القنصليَّة، اتَّجهت إلى مكتب سيِّدي ريتشارد بخُطًى سريعة. فكَّرت ألَّا أرفع الغطاء عن وجهي لئلَّا يظهر ارتباكي. لكن عبثًا، بغطاءٍ أو من دونه يستطيع القنصل المتسلِّط معرفة كلِّ شيء. ذهنه وقَّاد، له حاسَّة صيَّادٍ متمرِّس، ولا أوهام تدانيه. اخترقت عيناه غطائي الأبيض، فأنزلتُه: «هل عنَّفك أحدهم لأنَّك تسألين عن ذبح المسيحيِّين في باب توما؟». جفلت منه، وقبل أن أهزَّ رأسي أو أرمش، تابع: «أنتم السوريُّون مشكلةٌ حقًّا، أنتم كارثة. لحسن الحظِّ أنَّني هنا لأضبط سلوككم المتعصِّب. جنَّبتكم مذبحةً جديدة. فرَّ نصف المسيحيِّين لكن بقوَّتي أعدتُهم إلى بيوتهم. وأنت تضطربين بسبب كلماتٍ معنِّفة. أوَ ظننتِ الأمر سهلًا؟ من عنَّفك؟ رجلٌ أم امرأة؟». - «طردتني آسين بربارة أخت الراهب نقولا، لأنَّني..». قاطعني القنصل بصورةٍ باترة: «لقد عرفتك إذن. أنا متأكِّدٌ أنَّها تعرف ما جرى لأمِّك. كان سيكون مفيدًا لو تبادلتما أخبار المذبحة. لا شيء لديْكِ اليوم للتدوين إذن؟ يجب أن تبذلي جهدًا لتنفيذ المهمَّة». توقَّف ثانيةً قبل أن ينبر مجدَّدًا: «كفِّي عن الاضطراب على هذا النحو المقيت».

غمست الريشة في دواة حبرها، واستدعيتُ من ذاكرة تريسته جملًا شعريَّةً إنكليزيَّةً مبتورة، سمعت صوت ريتشارد يترنَّم بشعرٍ من

نوعٍ خاصّ، يمتزج فيه عشق الربّ مع الخمر. شرح القنصل ما إن انتهى من الترنُّم، عن لغةٍ في اللُّغة، درجةٍ مختلفة، حيث الكلمة تشير إلى معنى مختلفٍ لكنَّه مترابطٌ مع معنى أختها الكلمة التي تفعل الأمر عينه وتبدِّل معناها. سلسلة المعاني توحي إنَّها في العشق واللَّهو، لكنَّها في العمق تمجِّد الباري ولا تدور إلَّا في فلكه ولا تسكر إلَّا من خمره. لا أتذكَّر كلمات القنصل بدقَّة، ولا أتذكَّر من ذلك الشعر إلَّا أنصاف جمل: «يا حبيبي املأ الكأس»، «ترشف الندى من شفاه البكر»، «غدًا لماذا غدًا؟». ترنُّ أنصاف الجمل في بالي، ترنُّ بقوَّةٍ مثل جرس الكنيسة، ويطنُّ صدى مبخرةٍ نحاسيَّةٍ لها سلسلةٌ طويلة، في طرفها يدٌ قويَّةٌ تؤرجحها للوراء وللأمام، تنتشر رائحة البخور أوَّلًا ثمَّ تسقط الجمرات البرتقاليَّة....

كان باب الدير الخشبيّ الكبير مُحكم الإغلاق، وبضربة فأسٍ أُصيب قلبه، قُرِع جرس الكنيسة. الرهبان متحلِّقين حول المذبح في كنيسة الدير الصغيرة، وقد أضاء نور الزجاج المعشَّق وجوههم ورسم فوقها ثلاث عشرة هالة. ثمَّ سُمِعت خبطات أقدامٍ لا يحصرها عدّ، بلى يحصرها: ثلاثة عشر ألف خبطةٍ على الرخام. نظرَت الخبطات إلى الأيقونات الحزينة والشموع الضخمة المشتعلة، فهيَّأت البلطات والمعدن الحادّ. قُرِع جرس الكنيسة، وهوى الرأس الأوَّل، رأس نقولا بربارة، على طاولة المذبح، وبقيَت هالته معلَّقةً وحدها عند ارتفاعها المماثل لطول الذبيح. قُرِع جرس الكنيسة، ثلاث عشرة مرَّةً، وتسمَّرت ثلاث عشرة هالةً في مكانها العالي تتفرَّجُ على الرؤوس التي كانت منذ ثوانٍ في مكانها. تفرَّست الهالات بالرؤوس المقطوعة مسفوحةً على المذبح، فوجدتها جميلةً مبتسمة، ثمَّ أشاحت لئلَّا تُبصر العروق المقطوعة ولحم

الرقبة الرَّقيق المذبوح، وفقرات العظام المتكسِّرة في رأس كلِّ راهبٍ شهيد. تناولت الخبطات المباخر الممتلئة بالجمر الوهَّاج، وطيَّرتها إلى الوراء وإلى الأمام مرَّاتٍ لا تُحصى، فسقطت الجمرات على الوجوه الجميلة وحفرتها بالوهج الصلب. وحين قُرِع جرس الكنيسة، أنزلته الخبطات من عليائه وأردته بالحقد الجمريّ. وقفت الكنيسة تنظر إلى جسدها المقطَّع المحترق، فبدَّلت معنى اسمها وصارت مقبرة.

رسمتُ إشارة الصليب ثلاث مرَّاتٍ بسرعة، ولم أنتبه للريشة في يدي، فتناثرت قطرات الحبر على الطاولة الخشبيَّة وعلى وجهي وثيابي، وحرقت وجعي بشدَّة، شأنها شأن الجمرات الوهَّاجة الساقطة من مبخرة الكنيسة القتلى ورهبانها الثلاثة عشر.

في كلِّ مرَّة قُرِع جرس الكنيسة في تريسته، تذكَّرت آسين بربارة، وكيف جفلت من أسئلتي المتلاحقة التي نبعت من تعليمات قنصل بريطانيا العظمى في دمشق. كادت أن تطردني من بيتها حيث صارت تسكن وحدها، بعد ذبح أخيها الراهب نقولا بربارة في دير الآباء اللعازريِّين. نفضتُ رأسي لأطرد كلماتها الأخيرة وأشلعها من ذاكرتي. لكنَّ الكلمات تأبى إلَّا أن تطلّ، تبدِّل معانيها وتتلوَّن، تخادع الناس وفقًا لأمكنتها المتعدِّدة بين القاموس والكلام والكتابة.

✵✵✵

جلست وراء مكتب الزاوية لأنسخ مزيدًا من المخطوطات، وحين جاء ريتشارد أشار بيده إلى المكتب الثامن. وقفتُ واتَّجهت وفق إشارته، رأيت على الطاولة أوراق المخطوط الأوَّل القديم الذي وسمه ريتشارد بتعليقه الحارق: «مفكَّكٌ وجاهلٌ على هذا النحو السيِّئ جدًّا. كجريمةٍ نافرةٍ حدثت مصادفة». ناولني القنصل البريطانيُّ أوراقًا بيضاء، وأشار إلى الدواة والحبر، ثمَّ قال: «أنجزي المهمَّة. المرَّة الثانية يجب أن تكون مفهومةً على الأقل، ودقيقةً في المعلومات. تذكَّري إنَّك لا تكتبين تمامًا بل تدوِّنين القصص المجمَّعة من باب توما. لا صفات، لا محاكاة ولا تمثيل، وصفُ حياديٌّ فائق الدقَّة فحسب». وقبل أن أجلس لأنجز المهمَّة، تناول بيدٍ واحدةٍ بضعة خناجر، وباليد الثانية آلةً معدنيَّةً نحاسيَّةً غريبة، قلَّبها بخفَّة: «سأضع الخناجر على المكتب الحادي عشر، من يدري قد أحتاجها عند قراءة تدوينك. وكلُّ تدوينٍ سيِّءٍ سيكون مصيره واضحًا وقاطعًا، كوني على حذرٍ شديدٍ إذن. أمَّا هذه الآلة فهي للقياس، قياس الزمن المستغرق للإنجاز، لديكِ زمنٌ محدَّد».

أمام المكتب الثامن جلست، قرأت في المخطوط القديم الأوَّل الذي كتبته في القنصليَّة في الشام منذ سنتيْن تقريبًا: «امرأةٌ في الثلاثين. سبع ضربات خنجر. اثنتان في الصدر. اثنتان في البطن. وثلاثٌ أسفل

الرقبة. على أرض غرفة النوم. قرب خزانة الصدف». فظهرت ندى وردة في خيالي، وهي تحكي قصَّة عائلتها. تذكَّرت ملامح وجهها، وكيف كانت شفتها السفلى ترتجف، وعيناها لا تنظران ناحيتي. يغزل البؤبؤان الأسودان، فتوحي بأنَّها تائهةٌ في ماضيها الذي لم يمض البتَّة. لم تكن تكلِّمني تمامًا، كانت تقريبًا تكلِّم نفسها، كأنَّها احتاجت إشارةً للبدء، منِّي أو من غيري، لتنهمر كلماتها وتترقرق دموعها في عينيها المشروختيْن. وأنا لم أقدر أن أبلع الماء. أمسِكُ الكأس، وأفكِّر بما يجب حذفه من كلامها حين أدوِّنُه. وإذ حذفت معناه تقريبًا بدت الكلمات التي نجت ودُوِّنت على هذه الورقة أمامي، مثلما وصفها القنصل «مفكَّكةً على نحوٍ سيِّئٍ جدًّا».

لم أعرف كيف أبدأ بالتدوين الثاني، وسمعت صوت الآلة المعدنيَّة يرنُّ ويرنّ. رقَّاصٌ صغيرٌ يميل ناحية اليمين ثمَّ ناحية اليسار. استسلمت وكتبت:

فمن ذلك أنَّه في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر، دخل أكثر من ثلاثين رجلًا وشابًّا، متسلِّحين بالبلطات والخناجر والسكاكين والسيوف، إلى بيتٍ في باب توما. ذبحوا عائلةً كاملة؛ ذبحوا الأب والأمَّ والرَّضيعة والصبيَّ والبنت والجدَّ والجدَّة. كانت الأمُّ وأطفالها الثلاثة مذبوحين على الأرض في غرفة النوم قرب الخزانة الصدف، والأب قرب الإيوان ورأسه مقطوع، والجدُّ مذبوحًا في أرض الديار، والجدَّة مذبوحةً قرب البئر لأنَّها فيه اختبأت. انهدم البيت ونهبوا كلَّ محتوياته ثمَّ أشعلوا فيه النار. حصلت الناجية الوحيدة، أخت الأب، على تعويضٍ بعد ثلاث سنواتٍ فانتقلت إلى هذا البيت الحاليِّ الصغير في حارة المنكلاني، حيث تسكن فيه مع أرملتيْن.

رقّاص الآلة الصَّغيرة يدقُّ برتابةٍ والخناجر تلمع على سطح المكتب الحادي عشر، والقنصل أغلق الباب وخرج. وأنا مسمَّرةٌ أمام المكتب الثامن. فكَّرتُ أين عليَّ ترك ما كتبته؟ على أيِّ مكتبٍ منهما؟ قمت من مكاني واتَّجهت صوب المكتب الحادي عشر، أردت وضع الورقة تحت الخناجر، لكن رحت بدلًا من ذلك، أحدِّق في كتب القنصل وأوراقه الكثيرة من دون أن أجرؤ على لمسها. ثمَّ ظهر شيطان الكلمات، ابتسم وغمزني، فاسترقت النظر.

***

وأنا جالسة أمام مكتب الزاوية في قاعة الكتب الكبيرة، أنسخ مخطوطًا إضافيًا، استرقت النظر ناحية القنصل الغائب في الكتابة فوق مكتبه الحادي عشر. وفكّرت في ما لو قرأ القصّة الأولى التي دوّنتها. رمشت وأخفضت بصري. ثمَّ أنهيت النسخ، ومن دون أن أنظر ناحيته، مشيت كما لو أنّني غير مرئيَّةٍ صوب المكتب الثامن، كي أدوّن القصّة الثانية. جلست وتأمّلت الورقة البيضاء أمامي، كان رأسي فارغًا من الكلمات، سارحًا في ما نسخ. من دون قصدٍ هززت رأسي لأنفض كلمات النسخ. ثمَّ أجهدتني الكلمات التي عليَّ تدوينها، ووجدتها أصعب من كلمات مكتب الزاوية بكثير. قرأتُ في المخطوط الأوّل القديم، قصّةً مفكّكةً عن عائلةٍ ذُبح أيضًا جميع أفرادها، إلّا الأب ميخائيل تقلا الذي كان في الخان في السوق. تذكّرت اسم الأب الذي لم يسمح لي بتدوينه وقتها، وسمعت في ذهني صوت جارته الستينيَّة روز مسديَّة التي حكت لي قصّته، وكيف رآه الناس جميعًا يتكلَّم مع نفسه بصوتٍ مرتفعٍ في القلعة، ليلة التاسع من تمّوز. وأنَّه لم يتوقّف عن الكلام طوال الأيّام التي أمضوها في القلعة، بقطع النظر عن كلِّ شيءٍ دار حوله، عن كلِّ تهديدٍ باقتحام القلعة وذبح كلِّ من فيها، وعن كلِّ ويلٍ وكلِّ عويل. قطع نظره ونفسه عن كلِّ ما يحيطه، لكنَّه لم يتوقّف لا ليلًا ولا نهارًا عن الكلام، وعندما رتّبت السلطنة العثمانيَّة بالاتّفاق مع

الأمير عبد القادر، تاريخ تهجير المسيحيِّين وتسفيرهم إلى لبنان، صمت ميخائيل تقلا بغتةً صمتًا ثقيلًا، وبدا كما لو أنَّ هاويةً لم تبتلع لسانه فحسب بل ابتلعته كلَّه. قنط ميخائيل تقلا قنوطًا لا رادَّ له. وقبل أن تتحرَّك القافلة الأولى، افترش الأرض، وضع كفَّيْه تحت رأسه واستلقى مثل طفلٍ صغيرٍ على الأحجار السَّوداء. أغمض عينيْه، وأوهم من حوله أنَّه متعبٌ وسينام قليلًا. وكانت نومته أبديَّة.

رقَّاص الآلة الصغيرة يرنّ، وريتشارد يتبرَّم من المكتب الحادي عشر، وينتقل إلى السادس ويغيب مجدَّدًا في الكتابة. نظرةٌ للحظةٍ فقط ناحيته كانت تكفي لأتأمَّل كيف أنَّ الكلمات مطواعةٌ وليِّنةٌ معه، تنزل من رأسه حتَّى الورق مباشرةً بكلِّ بساطةٍ وكلِّ يُسر. لا شيء يعكِّر مسارها الواضح، فيصير صوت ريشته وهي تحفُّ الورق أعلى من صوت الآلة الغريبة. بينما تجافيني الكلمات التي عليَّ تدوينها أمام المكتب الثامن، وتطنُّ في رأسي تلك التي نسختها. ثمَّ، يمدُّ شيطان الكلمات لسانه ويضع سبَّابته على رأس أنفه ويرقِّص أصابعه الأربعة، ويقترح كلماتٍ جديدةً تبدو لي معقولة، إلَّا أنَّني سرعان ما أكتشف الفخَّ المنصوب أمامي بمهارةٍ ناقصةٍ عن قصد، فالكلمات المقترحة توًّا لا تلتزم البتَّة بتعليمات القنصل البريطانيِّ بل تكاد تناقضها عن عمد. تتحرَّك الشمس في السماء، وتلمع الخناجر على المكتب الحادي عشر، ويقوى صوت الآلة المعدنيَّة، فأساوم شيطان الكلمات ليدعني قليلًا ريثما أنتهي من التدوين.

أدوِّن بسرعةٍ قصَّة العائلة المذبوحة في قبو البيت غير بعيدٍ من حارة الزيتون، وأحتفظ لشيطان الكلمات بقصَّة ربِّ العائلة ميخائيل تقلا الذي ذبحتْهُ مصيبته، أكتبها في رأسي، وأردِّد مطلعها لئلَّا أنساه: «قنط ميخائيل تقلا». يرنُّ رقَّاص الآلة، قنط ميخائيل تقلا، أقفُ وأتَّجه إلى

المكتب الحادي عشر بخطواتٍ لا تكاد تُسمَع، قنط ميخائيل تقلا. أضع القصَّة الثانية على المكتب، قنط ميخائيل تقلا. أتَّجه إلى الباب أفتحه، أخرج إلى الممرِّ العريض الطويل، قنط ميخائيل تقلا. أنظر إلى صنيع إيزابيل في قصر تريسته: لوحةٌ لسيِّدنا يسوع المسيح، وتمثالٌ صغيرٌ للقدِّيس يوسف وبقربه مصباح، ثمَّ تمثالٌ لمريم العذراء ومصباحٌ ثان. شموعٌ صغيرةٌ وبخورٌ في صحنٍ نحاسيٍّ وصليبٌ خشبيٌّ على الحائط. أرسم إشارة الصليب. أغمض عينيَّ، كم قنط ميخائيل تقلا.

كان على القصص المدوَّنة أن تصير عشر قصصٍ، قبل أن ينصب شيطان الكلمات عدَّته الجميلة بأكملها: هل تتطابق القصص المدوَّنة مع تعليمات القنصل؟ هل سيرضى القنصل عنها؟ هل قرأها؟ ماذا سيفعل القنصل بالقصص المدوَّنة؟ هل يصحِّحها أم تفعلين أنت؟ ماذا سيفعل القنصل بقصصكِ المدوَّنة؟

لم تتلكأ الأجوبة كثيرًا في طريقها إليَّ، لكنَّها شغلتني قبل ذلك لأيَّامٍ عديدة، وأعجبني الأمر. أروح أتسلَّل من ممرِّ إيزابيل إلى قاعة ريتشارد المشرقيَّة الصَّغيرة الممتلئة بالأرائك ذات القماش الدمشقيِّ، والمصابيح النحاسيَّة والطاولات المصدَّفة والأراجيل الوفيرة. أقف في وسطها من دون أن أجرؤ على لمس شيء، ألمس كلَّ شيءٍ بالنَّظر. ثمَّ أتذكَّر تعليق أحد زوَّار الزوجيْن الكثر: «الممرُّ مسيحيٌّ وهذه الغرفة إسلاميَّة. وعليه، فالخارج مسيحيٌّ بقدر ما الداخل إسلاميّ». فأفكِّر بما دوَّنت على الورق وما كتبتُ في رأسي، وإن كان مقدارهما واحدًا بينما هما مختلفين، أوازن ما بين التدوين والكتابة مترقِّبةً استراقيَ السَّمع إلى شيطان الكلمات، كما لو أنَّني بتُّ أطلبه، بسبب تلك الكلمات المعقولة التي اقترحها.

✹✹✹

أزِن في بالي أرض الديار في بيت عمّي وأرض الديار في بيت أبي، في كلِّ مرَّةٍ زرته وزوجته دله التي تمرَّست بإخفاء كراهيتها لي بعد عودتي إلى الشام وزواجي من حنَّا. أقول بيني وبين نفسي لو أنَّ هذا الدهليز يمتدُّ إلى ما لا نهاية، فلا أصل أرض الديار التي جعلتها دله قاسيةً جافَّةً مثلها. أسمع صوت خبط قدميْها الضخمتيْن تطغيان على صوت أبي الضعيف وهو يقول: «أهلين أهلين فوتي فوتي». أدخل ببطءٍ وأرى دله بقدميْها الضخمتيْن، وشعرها المنفوش تكاد تخنق المكان المخنوق أصلًا. لا أسمع صوتها الأجشَّ البغيض، أتمتم شيئًا وأنا أحدِّق حولي، فأرى بدلًا من الزهور والأشجار الفوَّاحة والنباتات المتسلِّقة وتلك الصَّغيرة المنمنمة، شتلات كوسا وباذنجان وكثيرًا من البصل، خيارًا وبندورة وكثيرًا من الثوم. وفوق هذا تساقطت بعض الخضار ناضجةً في الأحواض على ترابٍ ظامئٍ متشقِّق. لا ماء في البحرة، بل مجموعةٌ متنافرةٌ من الأوعية الصدئة. تلسعني حرارة الشمس في أرض الديار العارية من أخضر كافٍ وعالٍ لتلطيف جوِّها. أدقِّق النَّظر في الجدران والإيوان وأكاد لا أصدق أنَّ هذا البيت بُنِيَ وقت بناء أولى البيوت الجديدة، يوحي إنَّه قديمٌ جدًّا لفرط اهترائه. وحدها الياسمينة لصق الإيوان تغلَّبت على دله، ولم تنفع كلُّ محاولات قتلها. استسلمت زوجة

أبي أمام إصرار الشجرة العنيدة على النمو، إذ تركت باستمرارٍ جذرًا فرعيًّا ضعيفًا ساعدها على العودة إلى الحياة والتعربش على هواها.

قال أبي إنَّ الطقس حارٌّ على غير العادة، فلنجلس في الإيوان. مشيت صوب الأرائك المنخفضة جدًّا التي أضطرُّ معها إلى التربُّع، وما كان الأمر سهلًا بسبب ثوبي. رحت أدكُّه حول ساقي حين سمعت دله تقول مستنكرةً وهي تمسك صينيَّة القهوة: «قال شافوك بحارة بيت عمّك لابسة أخضر». تناولت الفنجان وقبل أن أجيب، جاء صوت أبي صغيرًا يناسب سنَّه الذي يصغر سنَّ دله بثمانية أعوام: «يا دله بطلِت هالقصص، اليوم المسيحيَّة بيلبسو كلّ الألوان». فلسعته بجوابها: «قولتك، بنتك الست قمُّور دايمًا بتحب هيك تعمل قصص غريبة، تلبس ألوان الإسلام. ليش مين بينسى لما كانت تتفتَّل بباب توما من بيت لبيت ومغطية وجها متل الإسلام؟». رشفت من فنجاني رشفةً، أبعدت شعري إلى الوراء: «إيه كنت لابسة أخضر، ورحت فيه ع الكنيسة، وأبونا نعمة اللّـه قاللي في ناس عقلها غريب بتشوف الظاهر بس ما بتشوف يلي بالقلب». رشفت رشفةً ثانيةً وثبَّتُّ عينيَّ في عينيْها وتوجَّهت إلى أبي: «وكمان قاللي قلبك من كتر مو أبيض صاير أخضر كمان».

يمر الوقت ببطءٍ في بيت أبي، فلا أجد حديثًا متناغمًا غير متقطِّع. خاصَّةً أنَّ دله درَّبت أبي على الانصياع لها والانتباه إلى أدنى حركاتها. ترمش صوب الفراغ فيفهم أنَّ عليه تبديل مسار الحديث، تزمُّ طرف شفتها السفلى فيفهم أنَّها انزعجت. وهو المأخوذ بأوامرها الإشاريَّة يسأل كلَّ حين: «في شي؟ قلت شي؟ فيك شي؟». وجوابها الوحيد «لا» بمعنى «نعم»، فيضطرب أبي ويتقطَّع الحديث، ويصير عليَّ أن أعيد وصله من نقطةِ ما قبل انزعاج دله، لئلَّا يستمرَّ في التقطُّع وتعكير الجوِّ الخانق

المعكَّر عادة. أخفضت صوتي ومِلتُ صوب أبي وخبرته عمَّا أفكِّر به في ما يخصُّ جنيهات إيزابيل. لم يصغ لي تمامًا، وطفق يكرِّر قصصه القديمة عن القنصل بورتون، وعن عمله قوَّاصًا في القنصليَّة البريطانيَّة. لم تكن القصص مثيرةً ولا مسلِّيَّةً كثيرًا، كما أنَّ التكرار الرتيب سلبها كلَّ سحرٍ محتمل، وتفاصيلها التي صارت تنقص كلَّ مرَّةٍ صيَّرتها كابيةً مثل قماش هذه الأرائك المنخفضة جدًّا. قصَّةٌ واحدةٌ نجت من بين ركام ماضي أبي الباهت، وكانت تقلب أبي فيصبح حكواتيًّا ظريفًا كلَّ مرَّةٍ كرَّرها وزاد من تفاصيلها.

«أتعلمين أنَّني بدأت العمل في القنصليَّة قبل تعيين ريتشارد بورتون؟ حين وصل إلى الشام كان يقيم في فندق ديمتري، ولم يعجبه مقرُّ القنصليَّة القريبة من الجامع الأمويّ. أراد أن تكون القنصليَّة البريطانيَّة خارج السور غير بعيدةٍ من السراي والأبنية الرسميَّة. فالقنصل اعتبر نفسه منذ البدء ندًّا للوالي رشيد باشا، وليس صحيحًا أنَّه غيَّر مقرَّ القنصليَّة لتطيُّره من مدينةٍ مسوَّرةٍ كالشام. كنت أرافقه متقلِّدًا زيِّي كاملًا، وكان شارباي أكثف وأطول، نمشي بحثًا عن مكانٍ مناسب. ثمَّ وجد غرفةً بحالةٍ جيِّدةٍ في بيتٍ كبيرٍ شبه مُتهالك، فاستقرَّ فيها وأمر بإصلاح البيت الكبير وألزم العمال بزمنٍ محدَّد. كان أحيانًا يتوقَّف ويراقب عملهم، ويعطي بعض الملاحظات بكلماتٍ عربيَّةٍ يلفظها بعمقٍ وتأنٍّ. وملاحظاته تلك كانت تلهبهم حماسةً وخوفًا، خاصَّةً حين يذكِّرهم بالزمن المحدَّد ويُلوِّح بعصاه ذات مقبض الفضَّة. وفي يوم، أُعلن عن توجُّه ولي العهد الأمير البروسيِّ بزيارةٍ رسميَّةٍ إلى الشام. وعُيِّن مصطفى بيك مسؤولًا عن ترتيب مراسم الاستقبال من ألفها إلى يائها، فأمر بإغلاق الطرق لعدَّة أيَّامٍ من أجل تنظيف الشوارع وتزيينها

بالأنوار والأزهار، وتأكَّد من جهوزيَّة الخيَّالة وخيلهم البديع. كان مقرُّ بورتون واقعًا تمامًا على الطريق حيث سيمرُّ موكب الأمير، فأرسل له مصطفى بيك رسالةً تقول إنَّ على عمَّال القنصليَّة إخلاء المكان لحين انتهاء الزيارة الرسميَّة. لكن أو تظنين يا قمُّور أنَّ بورتون كان سيقبل بما يريد مصطفى بيك؟ لو أنَّه قبِل، لما كان بورتون القنصل الذي عرفته. أمر بورتون العمَّال بالاستمرار في العمل، وأرسل لمصطفى بيك رسالةً واضحةً بأنَّه يعتزم مواصلة العمل لحين الانتهاء في الوقت المحدَّد. إلَّا أنَّ مصطفى بيك كان عنيدًا بقدر ما كان بورتون عنيدًا، فأرسل عدَّة مراسيل يأمر القنصل بالتوقُّف، لكن من دون جدوى. وأخيرًا، جاء مصطفى بيك بنفسه وتشاجر بعنفٍ مع القنصل الذي كان لا ينتظر إلَّا هذه اللحظة. استفزَّ بورتون غريمه باستعلاء، وغمزني. صرخ مصطفى بيك: «أنت تنتهك القانون»، ثمَّ دفعه بقسوة. حين رأيت ذلك، قفزتُ من مكاني وبهذا السوط الذي في يدي، ضربت مصطفى بيك بقوَّةٍ وبكلِّ شجاعةٍ امتلكتُها. فنادى الجنود وأمرهم باعتقالي، لكنَّني كنت قد خطفت فأسًا ضخمًا من يد أحد العمال، ورفعته متحدِّيًا إذ لم يكن لديْهم أمرٌ بإطلاق النار عليَّ، وهم عرفوا أنَّني سأقتل من يحاول الاقتراب منِّي. حين رأى مصطفى بيك ذلك جنَّ ومضى متوعِّدًا بإيصال الأمر إلى الحكومة. عندها دخلت إلى مقرِّ القنصليَّة غير المكتمل وبقيت حتَّى اللَّيل، أحتمي فيها باعتباري من رعايا جلالة الملكة فيكتوريا. في وقتٍ متأخِّر، تسلَّلتُ إلى فندق ديمتري القريب لأرى بورتون. حين دخلت غرفته كان وجهه متجمِّدًا لفرط قسوته وكانت عيناه تشرقطان بالنار. بادرني بصوتٍ أجشّ: «شو عملت اليوم؟»، لم أجِب، لكنَّني كنت قد حضَّرت خنجري للدِّفاع عن نفسي حال أراد قتلي، فسحنته

كانت سحنة قاتلٍ متمرِّس. فجأةً هبط قلبي عندما قام من كرسيِّه صوبي وقال بصوتٍ قويٍّ بالعربيَّة: ليش ما قتلت هالكلب؟».

وضعتُ الريشة في دواتها وقرأت ما كتبت عن أبي وريتشارد. اختلطت التفاصيل التي زادها مع تفاصيل زدتها بنفسي، وقبل أن أنتبه إلى أنَّ القصَّة نافلةٌ ولا يُمكن وضعها في كتابي المصمَّم سلفًا، تفرَّست فيها، وتأنَّيت عند جملة «كنت أرافقه مُتقلِّدًا زيِّي كاملًا، وكان شارباي أكثف وأطول»، وتراءى لي والدي أنطون فتَّال قوَّاصًا متفرِّدًا. فهو المسيحيُّ الوحيد الذي امتهن عملًا حكرًا على المسلمين، وهو في قصَّته التي كتبتها توًّا يبدي شجاعةً وظرفًا لم أعهدهما فيه قطّ. بسطت حياته أمامي، وجدتُها تستحقُّ أن تروى فيما لو تذكَّرت أكثر وفيما لو لم يكن أبي. رنَّ تعليق عمِّي سمير منبِّهًا عن تخيُّلي وجود مسدَّسٍ متدلٍّ من زنَّار أبي يوم لحقنا إلى بيت باشا المغاربة في يوم العويل، فأدركت أنَّ الوقت قد حان لأستعيد نفسي التي أحببتُها في قاعة المكاتب الأحد عشر في تريسته، مدينة الرياح الثلاث. خرجتُ من غرفة الظلال، اخترت ثوبًا كحليًّا على عجل، ومضيت صوب الكنيسة.

***

وصلتُ حارة الزيتون، دلفت البوَّابة الحديديَّة للبطريركيَّة، وكدتُ أعود طفلةً ما قبل السَّابعة بقليل، حين وضعت راحتي عليها. ملمس الحديد تحت يدي سحبني إلى الماضي للحظة، وقبل أن تلوح في خيالي صورة أبي وأمِّي معًا، اتَّجهتُ صوب كنيسة سيِّدة النياح. وقبل أن أدخلها رأيت في باحتها أبونا الخوري نعمة اللَّـه واقفًا والحزن يُغلِّف محيَّاه، ابتسم ابتسامةً خفيفةً وهزَّ برأسه. كنت أمشي باتِّجاهه وقلبي يخفق، فأبونا بمثابة أبٍ لي يعرف عنِّي كلَّ شيء. وما ضنَّ عليَّ بروحه الشفيفة مرَّة، يصغي إليَّ بقلبٍ واسعٍ فائق الطيبة، فلم أبكِ بكلِّ جوارحي إلَّا في غرفته. أدرك أبونا منذ تكلَّلت في هذه الكنيسة أنِّي وجدت فيها بيتًا روحيًّا وعاطفيًّا وتربويًّا. أخذ بيدي حين عدت إلى الشام وصارت زياراتي للكنيسة متواترةً وشبه يوميَّة، لم يخفَّ إيقاعُها إلَّا قليلًا بعد زواجي. ففي هذا المكان البهيّ بأحجاره البازلتيَّة ورخامه المشغول، ثمَّة حيِّزٌ لكلِّ شيء، للصلاة والقراءة والحديث. كما لو أنَّ الكنيسة ربَّتني وأبونا رعاني بطريقةٍ تفوق الوصف. فرؤيته حزينًا، وهو المتفائل المبتسم البشوش، تفطر قلبي. كدت أضع يدي على قلبي لأمنعه من الانزلاق والتمزُّق، بَيْدَ أنِّي قسرت نفسي على الابتسام، ومن دون أن أسأل أبونا، بادرني: «يوم حزين، يا بنتي. مات الشاعر سليمان الصولة

بمصر، مات بعيد عن الشام. أختو عفيفة خبَّرتني من شوي، حابّة تحضر شي ع روحو بالكنيسة عنَّا».

جملةٌ حزينةٌ على هذا النحو المفاجئ أعادتني شابَّةً في السابعة والعشرين في كنيستي هذه. هنا، في باحتها وتحت أقواسها، التقيتُ للمرَّة الأولى بسليمان الصولة. كان يمشي تحت الأقواس وفي يده جوريَّةٌ سلطانيَّةٌ مأخوذًا بشمِّها، وأنا كنت أمشي صوب المكتبة الصَّغيرة غير البعيدة من غرفة أبونا نعمة اللّـه. ما زلت أذكر كلَّ التفاصيل ؛ ثوبي الغامق بشرائطه الخمريَّة الطويلة، درجة حرارة الربيع الشاميّ، درجة النور في الباحة ودرجة الظلِّ تحت الأقواس. أنظر فأرى رجلًا طويلًا يلثم جوريَّةً سلطانيَّة، يرفع عينيْه الصافيتيْن ويبتسم. ما كان ممكنًا إلَّا أن أقف وأبتسم، فقد بدأ يقول شعرًا بالعربيَّة الفصحى عن جمال الوردة ورائحتها. ما إن انتهى حتَّى بادرني: «فتحت قريحتي، أنا سليمان الصولة». حين فتحت فمي لأقول من أنا وما اسم زوجي، جاءت أخته الحسناء عفيفة مبتسمةً وقالت: «أهلًا قمُّور، كيفك؟ وكيف الخواجا حنَّا؟». فسأل الشاعر: «زوجك حنَّا المسك؟ سلمي عليه، صديقي من زمان ما شفتو، ما عرفت أنو تزوَّج ...» أتممت جملة الشاعر في قلبي: «أنا الزوجة الثانية من بعدما توفِّيت زوجته الأولى فريدة»، ولعلَّها ظهرت على صفحة عيني والتقطها سليمان بعينيْه الصافيتيْن. ثمَّ جاء أبونا نعمة اللّـه بشوشًا كعادته وبصوتٍ مرتفعٍ قال: «صاحب الغيرة والصولة، المعلم سليمان الصولة». التفت صوبي وقال: «شاعر وبإيدو وردة، كيفك يا بنتي؟» ثمَّ التفت إلى الحسناء عفيفة ورحَّب بها كأجمل ما يكون.

حين مشيت مع أبونا باتِّجاه غرفته، قال إنَّ لديْه قصَّةً ستُعجبني وابتسم. كان أبونا يعرف عنِّي أكثر ممَّا يعرف حنَّا عنِّي. فأنا ما تجاوزت

بسهولةٍ قصَّة عدم حملي بعد خمس سنواتٍ من الزواج، وكنت كثيرًا ما أحلم أحلامًا غريبةً تفوق في غرابتها أوهامي عن الحمل. لا أعلم لماذا ربطت الأمر بموت أمِّي، ولماذا أصابني تأنيب ضميرٍ بسبب ذلك. وقتها صارحت أبونا بكلِّ ما أنا فيه، وكان عطوفًا ومنطقيًّا، ولو أردت وصف تأثيره فيَّ لما وجدت أفضل من مرور سحابة ميلتون البرَّاقة في اللَّيل الحالك يلفُّني.

«الست عفيفة أفضالها كتار ع كنيستنا، سنة 1864 لمَّا رجعنا كلنا عم نبنيها يا بنتي بعد المدبحة، تبرَّعت كلّ الناس، النسوان بالدهب والجواهر، البنائين اشتغلو بالمجان كلّ أيَّام الأحد وكلّ الأعياد. ما حدا بخل ع كنيستنا بشي منّو ومن روحو. بس الست عفيفة مرة الخواجا متري شلهوب عملت شي أكتر. كأنِّي شايفها بعيني هلق، كيف إجت متل الأميرة وبإيديها البيض الطيبات صارت تحمل الحجار والمونة للبنائين. لما الناس شافوها ما صدقو من الفرح ورفعوها على الكتاف. والبنَّائين والمعلِّمين يوسف العنيد ونقولا وردة وأنطون منصور ووهبة بهيت والمعماري الكبير ميخائيل مسديّة، ضاعفو جهدهون وقتها ليخلص بناء الكنيسة أسرع. العمار بلّش سنة 1862 وكان الناس متحمِّسين كتير، بس يلي عملتو الست عفيفة ما بينتسى حمّست الكل. هي تاني بطريركيَّة انبنت بعد المدبحة، الأولى كانت المريميَّة سنة 1861».

بقيت صامتةً أنتظر أن ينهي أبونا القصَّة بعبرةٍ كعادته، ابتسمت لأعرف أكثر، فقال إنَّه يفضِّل طريقة عفيفة في العمل لأنَّها استحثَّت الناس ونبَّهتهم إلى شيءٍ مهمّ، وإنَّ الإصرار على البقاء في باب توما في الشام يحتاج مكابدة، وإنَّ هذا من علامات شرف الدِّين المسيحيّ، ومهما كان الاضطهاد قاتمًا فلا بدَّ من بسالةٍ وتضحيةٍ وفداء.

«أنا خبَّرتك هالقصَّة، لأنَّك بدِّك تعرفي وتفهمي شو صار سنة الستِّين. في ناس كتبوا وفي ناس حكوا وفي ناس نسيوا وفي ناس ما بدهون أبدًا يتذكَّروا. ع فكرة عفيفة الصولة وأخوها كانوا متلِك تمامًا، كانو ببيت الأمير عبد القادر وهيك ربّنا نجَّاهم. سليمان الصولة الشاعر يلي شفتيه كتب شعر بعد سنة الستِّين بصعوبة. لأنّو كمان جزء كبير من شعرو احترق وقتها... بس هو سيَّال وبيضل يقول شعر. انتبهي بنتي من الشعر خصوصًا الغزل والحبّ وهيك قصص». رسمت إشارة الصليب عند سماع الجملة الأخيرة، لأبعد أحد شياطين إيزابيل وقد قفز قفزةً واحدةً من تريسته إلى الشام.

رسمت إشارة الصليب ثلاث مرَّاتٍ وترحَّمت بصوتٍ معتدل النبر: «يوم حزين كتير يا أبونا، ليكن ذكره مؤبَّدًا. أكيد الستّ عفيفة حزينة كتير، رح مرّ عندها. وإذا فيني ساعد بأي شي ما توفرني أبونا، أنا بنتك». تباسم أبونا نعمة اللّـه رغمًا عن قطرتي دمعٍ ملتصقتيْن بصفحة عينيْه: «أكيد بنتي». ومضيتُ لئلَّا أرى الدمعتيْن تنزلان.

وقفت بباب الكنيسة، رسمت إشارة الصليب، دخلت كي أصلِّي وأشعل شمعةً لروح الشاعر الذي مات بعيدًا من مكانه ومن جوريَّته السلطانيَّة. وأشعلها كي أعود من ثمَّ إلى أفكاري عمَّا جرى لأبي، وعن أيَّامي الجميلة في المكتبة هنا، وصوت الأب نعمة اللّـه يرافق كلَّ لحظةٍ منها. أشعلت الشمعة وغرزتها بالرمل الأبيض في الجرن الرخاميّ. وفي نورها المتمايل قرأت ما حفظت عن ظهر قلب: «قومي انظري كيف تنهال الشاَم على/سكانها واطلبي من غيرها حرما».

***

«عم تتأخَّري قمُّور، الساعة ستّة وين كنت؟» عينان خضراوان تستفسران. ها حنَّا قد عاد قبلي إلى البيت وصار يسأل وينتبه. كنت بباب القاعة المضاءة واقفة، أتملَّى عيني حنَّا الجميلتيْن وأبعد عن رقبتي شال الدانتيل الأسود، وأبدأ بنزع خواتمي وأساوري ثمَّ عقدي. وضعتها على الطاولة الصغيرة قربه، وخبَّرته عن موت سليمان الصولة وزيارتي لأخته عفيفة. خَفَت الأخضر في العينيْن الجميلتيْن، غابتا قليلًا في ماضيهما الخاصّ. حاولت بكلماتٍ بسيطةٍ أن أستشفَّ أيًّا من جوانب حنَّا الماضية يؤرِّقه؟ موت سليمان الصولة ارتبط بزيارتي لعفيفة أخته، وعفيفة ارتبطت بزوجها متري شلهوب الذي مات منذ سنوات. أشاح حنَّا بوجهه عن أسئلتي أكثر من عادته. برم وجهه باتِّجاهٍ معاكسٍ لي. وعاد إلى قراءة الكتاب في حضنه. رفض فنجان قهوةٍ مقترَح، وما نفعت معه الورود الفوَّاحة التي وضعتها أمامه على الطاولة. تفرَّست فيه على مقعده يقرأ، وقلتُ لنفسي ها قد قنط حنَّا المسك.

أمام الطاولة الخشبيَّة في غرفة الظلال فهمت أكثر وأنا أرتِّب الأوراق التي كتبتها. فكَّرت بحنَّا يقنط كلَّما سمع بموت واحدٍ من أصدقائه، ويصمت لأيَّام. في البداية كنتُ أظنُّ أنَّ لحزنه هذا مساحةً

محدودة، داخلها يكون المتوفي وحده، صورته الأخيرة واللِّقاء الأخير معه. إلَّا أنَّ حزن حنَّا إذ يتحوَّل قنوطًا على هذا النحو يمتدُّ ليطول الذكريات الأبعد ويصير يجهد في طمرها، ليصبح أيُّ تعليقٍ منِّي أمرًا غير مرغوب. حين توفي متري شلهوب زوج عفيفة، لم يطق حنَّا سماع البيتيْن اللذين ألَّفهما سليمان الصولة عن داره الجميلة التي بناها غير بعيدٍ من دار أنطون شاميّة البهيَّة. تردَّد صدى البيتين بين الناس في باحة الكنيسة يوم جنَّاز متري، وصار حنَّا الباهي متبرِّمًا فجأةً، وسمعته يقول لأحدهم بما معناه إنَّ تخليد بناء البيت شعرًا أمرٌ غير مناسب، فالبيت بُنِيَ على أنقاض بيوت من «راحوا». لم يقل حنَّا من «ذُبحوا» ولعلَّه ظنَّ بأنَّ تبديل لفظٍ بآخر مثلما يفعل بالأمثال الوفيرة التي يحفظها، كفيلٌ بكفِّ الناس عن ترداد البيتيْن وإشاعة ذكرى شلعها بكلِّ قوَّته من رأسه. خانه اللَّفظ المُبدَّل، وبدلًا من طمر الماضي كما أراد، راح مُحدِّثه يستزيد ويرجع اللَّفظ إلى مقصده، وحنَّا يشتعل، وما وجد طريقةً لإسكات محدِّثه سوى القول إنَّ شعر سليمان الصولة ليس شعرًا أصلًا. وأنا من دون قصدٍ رسمتُ إشارة الصليب، فصوَّب عينيْه الخضراويْن كالسهم نحوي، وبأقلَّ من لحظةٍ كنَّا نخرج من الكنيسة.

أمشي بخطواتٍ مُسرعةٍ كأنَّني ألحقه، وأبحث عن الكلمات الملائمة كي أفهم أمره. إلَّا أنَّني ما عرفت وقتها أيًّا من الكلمات تناسبه، وزاد في الأمر أنَّه ظنَّني أميل لشعر سليمان حين قلت إنَّ عفيفة لن تكون سعيدةً لمعرفة رأيه، يصلها من فمٍ إلى آخر، في شعر أخيها يوم جنَّاز زوجها. صوَّب سهمًا آخر وقنط.

كان عليَّ وحدي الرَّبط ما بين أمورٍ واهية الصلة، كأن أنتبه أنَّه لم يحدِّثني مرَّةً عن مدرسته، ولا كيف تعلَّم الإنكليزيَّة على هذا النحو المُتقن، أو عن سبب اختياره مكان بيتنا المتطرِّف، أبعد ما يكون من البيوت الجديدة ومن البقايا المتهدِّمة، أو عن مزاجه الناريِّ حين استفسرت مرَّةً عن أهله الذين «راحوا» في المذبحة، أو عن تبرُّمه إن ذكر أحدٌ اسم زوجته الميِّتة فريدة. ونادرًا ما زارنا أولاده. وما عرفت مرَّةً أشياءً حقيقيَّةً تخصُّهم، يجيئون ليلة الميلاد ونمضي سهرةً رسميَّةً لا تتخلَّلها ضحكاتٌ رنَّانةٌ بل ابتساماتٌ ولطفٌ فائقٌ فحسب. أبذل جهدي لفتح محّارة كلِّ واحدٍ منهم، إلَّا أنَّ نظرةً من العينيْن الخضراويْن تضيف قفلًا إضافيًّا على المحّارات المغلقة، فأستسلم وأجاري الأجواء المُعدَّة سلفًا، حيث الحديث يكون بإنكليزيَّةٍ لا تتخلَّلها العربيَّة إلَّا لمامًا. قد تمنح شيئًا من المعرفة، إلَّا أنَّها تميل باستمرارٍ صوب تجارة الجوخ الإنكليزيِّ وأحوال تجّاره، في الشام أو في مانشستر البعيدة. ونساء أولاده الثلاثة، ميخائيل ووهبة وإبراهيم، يتبسَّمن لاهياتٍ عن لغةٍ لا يعرفنها تمامًا. قد يتهامسن فيما بينهن، حين ننتهي من العشاء الثقيل. يأتين صوبي يثنين على الطعام اللذيذ، وكلِّ الترتيب الذي صار حديثًا في الحيّ، فضلًا عن قصَّة ثوبي وقماشته.

ثمَّ أدركت وحدي، وأنا جالسةٌ مرَّةٍ في غرفة الظلال، صفة حنًّا الرئيسة حين مصادفة فتحت قاموسًا ورأيت اللَّفظ: المنبتّ. كانت الأمور قد تراكمت في ذهني حين فطنت بغتةً إلى قنوطه الأوَّل يوم سألته لِمَ لَم يسألني ولو لمرَّةٍ واحدةٍ عن موت أمِّي؟ فقنط، وقنطتُّ معه إذ لم أكن أبغي تمامًا الكلام عن الرحم الذي وهبني الحياة، بل عن

رحمي أنا غير الواهب لأيِّ حياة. لم يبدُ على الباهي المنبتّ القنوط العميق الذي أعرفه فحسب، إشاحة وجهه باتِّجاهٍ معاكسٍ قفلت الكلام وختمت عليه مرَّة.

والآَن أفكِّر وهو في قنوطه المسائي هذا، بالقصَّة الوحيدة التي يحبُّ روايتها لي، حين رآني للمرَّة الأولى منذ سنواتٍ بعيدةٍ في بيت الصالحيَّة، وكيف أنَّ صورتي انحفرت لديْه، لذلك حين علم بعودتي من الإمبراطوريَّة إلى الشام، حسم أمره وطلبني من صديقه أبي.

***

كان في الخمسين، أرملًا منذ شهورٍ قليلة، وترجمانًا شرفيًّا في القنصليَّة البريطانيَّة. جاء كما قال لزيارة أبي فحسب.

سمعت صوت السقَّاطة المعدنيَّة يدقُّ على باب بيت أبي، كنت جالسةً على الأريكة المنخفضة في الإيوان، من بعد ما رويت الزهور القليلة التي زرعتها بنفسي في أرض الديار لألطِّف الجوَّ فيها وأنقذها من قسوة دله وجفافها. كانت الساعة السابعة مساءً، الشمس اختفت من السماء لكنَّها تركت لهيبها يُصعِّد أبخرةً تُعكِّر المزاج من دون جدوى، إذ إنَّ الشام في وقتها الخاصِّ هذا تكون في يدي غوطتها الخضراء الظليلة. رطوبةٌ خضراء تبدِّد على مهلٍ وبثباتٍ أبخرة الشمس التي استسلمت للغروب الشاميِّ ترنُّ في أجوائه البرتقاليَّة الزرقاء أصداء الآذان من مسجدٍ بعيد.

يقتحم صوت دله فضاء أرض الديار، وتكاد تسبق أبي لفتح الباب. تقف أمام الدهليز وهي تنوس عينيْها لترى من هو الضيف المسائيّ، فيدخل حنًّا المسك الوسيم الأنيق ومعه أبي باسمًا سعيدًا. وقبل أن يخطو صاحب العينيْن الخضراويْن خطوةً أخرى، أنسحب من الإيوان إلى غرفةٍ تلاصقه. خطواتٌ أربع تفصل بين الإيوان وباب الغرفة حيث جلست.

جالسةً في الغرفة الصَّغيرة كنت، حين فتحت دله الباب. دخلَت وأغلقته، نوَّسَت عينيْها وثبَّتتهما باتِّجاهي كأنَّها تريد الدخول إلى رأسي، وقالت: «كلّ الناس عم تحكي عنك، كلهون عرفوا إنَّك رجعت من إنكلترا، مشان هيك زيارة حنَّا رفيق أبوك. بيجوز بدهون يعرفو الناس كيف عشتي هنيك، وليش رجعتي. هادا رفيق أبوك بالقونسلاتو، أنتِ بتعرفيه؟». وقبل أن أفتح فمي بالجواب أردفت: «إيه كانوا الناس يقولو إنَّك كنت تروحي ع القونسلاتو وعند المبشِّر الإنكليزيّ، شو كان اسمو؟» أجبتها: «القسُّ وليام رايت». فرفعت حاجبيْها وبدأت عيناها ترمشان وتنوسان كأنَّها تجهد في التذكُّر: «صحي مدري شو كانت قصتو هادا، بيضل يجيب عمَّال ويحفروا ناح السور، ويطلعو شغلات من الأرض وياخدوها».

وفيما كانت دله تتكلَّم، غبت في أيَّامي في القنصليَّة البريطانيَّة حيث كنتُ أدوِّن القصص التي أجمعها من أفواه الناس في باب توما بعد الدرس مع القسّ وليام. فكَّرت كم أنَّ هذا بعيدٌ جدًّا الآن، كأنَّه أكثر بكثيرٍ من خمس سنوات. وحين وضعتُ يدي في حضني نظرت قماش ثوبي الخمريّ بلمعته المنطفئة وياقته الكبيرة، كم هو مختلفٌ عن الغطاء الأبيض يلفُّني من رأسي إلى قدمي، والحجاب الشفَّاف يخفي وجهي. الغطاء والحجاب كانا ثيابي «الرَّسميَّة» منذ خمس سنواتٍ لا غير. سرحتُ مع دروس القسّ وتذكَّرت زوجته العطوفة آن. سرحتُ أكثر ممَّا ينبغي وتصوَّرت لو أنَّ عصًا سحريَّةً ما تحملني إلى بيت القسّ وزوجته، فأكون لديهما، أصلِّي وأقرأ وأكتب بدلًا من وجودي هنا في مرمى عيني دله البغيضتيْن.

تحرَّكت العصا السِّحريَّة وبدَّلت عيني دله البغيضتيْن بعيني حنَّا المسك الخضراويْن. قال حنَّا إنَّه لم يرَ في المساء الشاميّ ذاك لونًا خمريًّا

في ثوبي الواسع، ولم ينتبه لحذائي ولا لشعري الململوم المزيَّن بشرائط خمريَّةٍ حين تقدَّمتُ في أرض الديار وأنا أمدُّ أمامه صينيَّة القهوة. قال إنَّه رآني اثنتيْن متداخلتيْن؛ قمُّور السَّابعة عشرة وقمُّور الثانية والعشرين. يغيبُ الثوب الخمريُّ ويحضر الأبيض الكتانيُّ خفيف اللَّمعة. ينفلت شعري من شرائطه الخمريَّة ويصير طويلًا مزيَّنًا بوشاحٍ أصفر معقودٍ عليه. يخفت صوت حذائي الإنكليزيِّ أمام دقَّات قبقاب الصدف العالي. قال حنَّا إنَّ قمُّور الخمريَّة تهادت على فرسٍ ثابتة، في حين تمايلت قمُّور البيضاء كأنَّها راكبةٌ جملًا. ابتسم ابتسامةً خفرةً وهو يمدُّ يده لتناول الفنجان، فرمشت. قال حنَّا إنَّه كان شديد الانتباه حدَّ أنَّه سمع رمشة عينيَّ، وإنَّه لو تُرِكَ الأمر له لتناول الصينيَّة كلَّها من يدي وأجلسني قربه وأرشفني القهوة.

لم يخبرني حنَّا البتَّة ما قال لأبي يومها، ولم أعرف كيف أدركت وحدي فحوى الحديث، حين انتهت الزيارة وسمعت صوت الباب يصفق، ومن ثمَّ خطوات أبي باتِّجاه الغرفة حيث كنت، فتح الباب ولم يغلقه. ابتسم بحبٍّ مفاجئٍ وعلى عادته تلكَّأ ليترك لدله التي لا تحتاج سلطةً إضافيَّة، أن تخبرني مباشرة: «شكللك رايحة عند الترجمان. أبوك عطا كلمة لرفيقو. أوَّل مرَّة رفيقو شغَّلِك خدَّامة عند الإنكليز، وهالمرَّة عندو». ونوَّست عينيها أكثر قبل أن تضيف بكلِّ لؤم: «يا بتخدمي هون يا أما عند الترجمان». فتدخَّل أبي أخيرًا: «مو هيك دله. اسمعي قمُّور...». لم أسمع شيئًا، بل رأيت العصا السِّحريَّة تُطفئ العينيْن البغيضتيْن وتشعل العينيْن الخضراويْن.

أيَّامٌ قليلةٌ وصرتُ في مرماهما الهادئ الغامض والمستفسر على الدوام. لكن قبل ذلك، حين وصل الخبر إلى أخويَّ حنَّا ونخلة ليجيئا

إلى الشام على عجل، مرَّت سحابة ميلتون. ومن العتمة ترقرق ضوء احتمالٍ ضعيف. قال أخويَّ إنَّ بإمكاني أن أفكِّر بعمل شيءٍ آخر بدلًا من الزواج بحنَّا، كأن أترُك دله وأبي وجوِّهما الكفيل بتحويلي إلى جثةٍ قبل الأوان بكثير، وأترُك الشام والزوج المرتقب حنَّا، وأذهب معهما إلى بيروت، أساعدهما في عملهما في حانوت الخمر الواعد. قال نخلة الصَّغير المتحمِّس: «عم نفكِّر نصير نجيب براندي ع بيروت من بلاد الإنكليز، في نوع ظريف Pale brandy، أنتِ بتكتبي للإنكليز لأنَّك بتعرفي إنكليزي وبتعرفي كمان البلد». كنتُ على وشكِ القول إنَّني أعرف هذا النوع، وأعرف أيضًا نبيذًا فرنسيًّا الـ Best Claret، لكنِّي لم أقل شيئًا، فلو فتحت فمي لعادت صورة ريتشارد للمرَّة ما قبل الأخيرة في تريسته. نظرت إلى أخويَّ وقلت: «لا ما بدي روح ع بيروت، أنا رجعت ع الشام خلص ما بقا بدي سافر، ورح أتزوَّج حنَّا». وغابت سحابة ميلتون.

فتح حنَّا الصنبور النحاسيَّ في بحرة أرض ديار بيتنا الشاميِّ قليلًا، ثمَّ مدَّ راحته وسبَّحها في الماء البارد ببطء، سمعت صوت ماء البحرة كأنَّما صوت نبيذٍ ينسكب، وبطرف عينيْه الخجلتيْن، قال: «كنت صلّي حتَّى يحصلّي لمَّا حصلّي بطَّلت صلّي». اقترب منِّي وهو يروي عن قمُّور السَّابعة عشر بقبقابها المصدَّف، مدَّ يده النديَّة إلى إكليل الدانتيل وبدأ بفكِّ شرائط الساتان العاجيَّة عن شعري.

***

أستطيع استعادة المشهد أنَّى شئت، فقد طغى صوت يد حنًّا السابحة بالماء عليه، مثل نبيذٍ ينسكب على مهلٍ في كأسٍ بلَّوريٍّ في تريسته.

كان ريتشارد ممسكًا بيدٍ واحدةً من القصص الثلاثة والثلاثين التي دوَّنتُها، وباليد الثانية كأسًا من الـ Best Claret. وأنا كنت جالسةً وراء مكتب الزاوية أنسخ مخطوطًا عربيًّا مكتوبًا فيه: «ثمَّ قال عجيب للطواشي يا غلام إنِّي اشتقت إلى الفرجة فقم بنا ننزل إلى سوق دمشق ونعتبر أحوالها». جاء صوت ريتشارد عميق العربيَّة: «في عفريت بالمخطوط». ابتسم بشبه سخريَّةٍ ثمَّ ارتشف من نبيذه. ثبَّت عينيْه الثاقبتيْن ونبر بالإنكليزيْة: «ما تقومين بنسخه هو أكمل ما كُتِب. في حين أنَّ ما دوَّنتِه يحتاج عملًا إضافيًّا. تفاصيل قليلة، عن الثياب وطراز البيوت وأثاثها وأنواع الأسلحة المستخدمة وما إلى ذلك من أمورٍ سأحدِّدها لك لاحقًا». وارتشف رشفةً ثانية: «عليك أن تتذكَّري وتصفي بدقَّةٍ هذه التفاصيل. لعلَّ فائدةً ما تأتي من ذكرياتك أنت أيضًا، تلك التي تحاولين عبثًا طمرها، أعني عن أمِّك و....». للمرَّة الأولى والأخيرة ما عدتُ أسمع كلام القنصل، وللمرَّة الأولى والأخيرة سمعتُ صوتي مع صوته. حين أستعيدُ تلك اللَّحظة أكاد أجزم أنَّ أكثر من عفريتٍ طلع من المخطوط

العربيّ، وإلَّا كيف أفسِّر جملتي الإنكليزيَّة المنبورة بثقة: «لو تسمح لي بالكتابة كما أتذكَّر عن طريقة روي الناس في باب توما لما جرى، لاستطعت كتابة شيءٍ أفضل ممَّا كتبت إلى الآن». تفرَّس القنصل في وجهي: «أنتِ لا تجيدين الوصف، فقد استعملت لفظ الكتابة بدلًا من التدوين في جملتك هذه. التفاصيل التي أريدها، تُدوِّنينها على ورقٍ منفصلٍ عن القصص المدوَّنة. أنت لا تكتبين بل تدوِّنين».

ارتشف القنصل رشفةً ثالثةً وأمسك بمخطوط «أكمل ما كُتب»، وغاب في قراءته. لو كان شيطان الكلمات معي لما ورَّطني بالكلام مثلما فعلت العفاريت التي حوَّلت تريسته ما قبل المرَّة الأخيرة إلى سيركٍ جهنَّميّ، أين منه السيرك اللندنيُّ الذي اصطحبتني إليه إيزابيل مرَّةً للتفرُّج عليَّ كيف أتفرَّج؟ عفاريت السيرك الجهنَّميِّ في تريسته أقوى من شيطان الكلمات كما أظنّ، وإلَّا كيف عبَّدت دربًا لم أطأه قبلًا، ورصفته مفردةً مفردةً فكرةً فكرةً لأسمع صوتي يقول بالإنكليزيَّة: «لكنِّي فكَّرت بعنوانٍ مناسب، لو تسمح لي باقتراحه». بجرعةٍ واحدةٍ وصل نبيذ الـ Best Claret إلى عروق القنصل وقد نفرت بقوَّة. بخبطةٍ واحدة، صارت الكأس على طاولة الزاوية وقد انكسرت: «عنوانًا مناسبًا؟ ما رأيك أيضًا لو تضعين اسمك، يا قمُّور؟ ماذا يدور في رأسك العربيِّ الصَّغير؟»، صوت القنصل يرتفع والخناجر تلمع على مكتبه الحادي عشر. الريشة تهتزُّ في يدي، والعفاريت تدقُّ الطبول أن هيَّا إلى المذبحة. هل تناوشت مع القنصل لأضع اسمي؟ أم أنَّ عفريتًا ثرثارًا لمَّح لي بذلك، ثمَّ فورًا خبَّر القنصل عمَّا ربَّما دار في رأسي لأقلَّ من ثانية؟ ارتفع صوت قرع طبول العفاريت لكنَّها ولا بأيِّ حالٍ من الأحوال طغت على صوت القنصل هادرًا: «ماذا يدور في رأسك العربيِّ الصَّغير؟»

لا أتذكَّر إن قال القنصل شيئًا عن عقابٍ ينتظرني، فقد دار رأسي وكدت أغيب على الكرسيّ. وحين رسمت إشارة الصليب لأطرد عفاريت السيرك الجهنَّميّ، ضحك ريتشارد الواقف قربي: «أمرٌ جيِّدٌ أنَّك صلَّبتِ. قد نجوت وتراجعت عن خطيئةٍ مميتةٍ في حالتك، رغم أنَّها لم ترِد في الكتاب المقدَّس. لن يفوتني أن أقول لإيزابيل أن ترشَّكِ بالماء المقدَّس، لتطرد الشيطان العربيَّ من رأسك الصَّغير هذا. أما زالت لديْك قصصٌ للتدوين؟ الوقت يمرّ». بصوتٍ مخنوقٍ أجبت: «نعم، ثمَّة قصصٌ للتدوين. ستُّ قصص، سألتزم بالوقت. أتأذن لي بالانصراف من فضلك؟». أجاب والشرر ينطفئ قليلًا من سحنته وقد صارت فائقة القسوة: «ليس بعد، انسخي لمدَّة ساعةٍ ثمَّ انصرفي».

ربَّما كانت تلك الساعة تماثل في طولها ساعة التاسع من تمُّوز اللَّاهب تمام الثانية بعد الظهر. أنسخ مخطوطًا عربيًّا يكاد ينفجر بالعفاريت المتراقصة والجنِّ الماكرة والمَرَدة المتطاولة، وشخوصٍ أجهلها وأعرفها في آنٍ معًا. والأقوى من كلِّ هذا طريقة الكتابة، ليست كالشعر وفيها شعر. أقرأ كي أنسخ، وحين أنظر إلى رسم خطِّي كي أضع الحركات، يبتسم شيطان الكلمات، وأكاد أسمعه متمتمًا جملًا لا تنتهي ولا تتقطَّع عن الجمال في مخطوط «أكمل ما كُتب». هدَّأ الشيطان من روعي، وفعل أكثر حين كنت وحدي في غرفتي الصَّغيرة في قصر تريسته، إذ ذكَّرني بكلِّ الشتائم العربيَّة التي أعرفها، جمَّعها لي في صحنٍ صغير، وقال إنَّ لا ضير فيما لو ردَّدتها بيني وبين نفسي كلَّ مرَّةٍ نُهرتُ فيها وكلَّ مرَّةٍ ارتفع صوتٌ مهدِّدًا بمعاقبتي على أفكاري. وقال أيضًا إنَّ ما يدور في رأسي، شأني وحدي، شأني الوحيد.

***

أنا وراء المكتب الثامن، أمامي ريشةٌ ودواةٌ وأوراق بيضاء، وأوراق المخطوط الأوَّل وقصصه المفكَّكة. ما عدت أحتاجها، فقد صرت ما إن أرى كلماته المتشابهة وجمله المكرَّرة، حتَّى تقفز القصص ومشاهد رواتها كما سمعتها في باب توما إلى رأسي. صارت القصص تأتي من تلقائها، يكفي أحيانًا أن أسترقَ النَّظر إلى أسلحة القنصل المتناثرة على المكاتب الأحد عشر، وأحيانًا أستدعيها حين أسترقُ زيارة للغرفة الشرقيَّة حيث القماش الدمشقيُّ والطاولات المصدَّفة. وفي أحيانٍ كثيرةٍ كنت أتَّجه صوب الممرِّ المسيحيّ، أتملَّى تمثال مريم العذراء الحزينة، وأتنسَّم رائحة البخور، وأنظر إلى المسيح على صليبه الخشبيّ. فتمرُّ سحابة ميلتون، وتشتعل القصص كالبرق في رأسي.

في رأسي بقيت تدور جملةٌ نسختها منذ قليل أمام مكتب الزاوية: «وأمر بإحضار نجَّارٍ وقال اصنع لهذا لعبة خشب، فقال حسن بدر الدين وما تصنع بها، قال أصلبك عليها وأُسمِّرك فيها ثمَّ أدور بك المدينة كلَّها».

غمست الريشة في دواتها، وفكَّرت بتدوين ما حصل في دير اللَّاتين في باب توما. إلَّا أنَّني ما عرفت إن كان عليَّ ذكر تسعة رهبان

ورجل، أم راهبان إسبانيَّان وسبعة إيطاليِّين وتاجرٌ دمشقيّ؟ فالخيار الأوَّل يلتزم بتعليمات القنصل، أمَّا الثاني فلا يناقضها لكنَّه لا يندرج تحت التفاصيل الجديدة التي حدَّدها لي. ثمَّ استسلمت وكتبت:

«فمن ذلك أنَّه في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر، دخل أكثر من خمسين رجلًا وشابًّا متسلِّحين بالبلطات والخناجر والسكاكين والسيوف إلى دير اللَّاتين في باب توما. حين أعيوا من كسر الباب، أدخَلوا شمعةً مشتعلةً في ثقب الغال وأحرقوا الدقّ، فانهدم الباب. ثمَّ ذبحوا كلَّ من فيه من رهبان وقساوسة، منهم من كان من التابعيَّة الإيطاليَّة ومنهم من كان من التابعيَّة الإسبانيَّة، ورجلٌ دمشقيّ. كان الرهبان مقطَّعي الأوصال والرؤوس، مَرميِّين في ردهة الدير قبل باب الكنيسة، وقرب أبدانهم كتبٌ مقدَّسةٌ مُضرَّجة. أمَّا الرجل الدمشقيّ، فقد كان في الكنيسة فوق المذبح مسمَّر اليديْن والقدميْن على صليبٍ خشبيٍّ ضخم. انهدم الدير ونهبوا كلَّ محتوياته، ثمَّ أشعلوا فيه النار».

كان نور القمر يستعدُّ للدخول على مهله إلى غرفة الظلال حيث كنتُ جالسةً أكتب، وكانت الريشة في يدي تتنزَّه كالحرير بين دواتها والورقة البيضاء. رفَّت الستارة فأصغيت لصوت حفيفها الخافت، واسترقت السَّمع، ثمَّ أغمضتُ عينيَّ وتركتُ الريشة لتكتب وحدها.

لستُ ريشة طائرٍ منتوفٍ بل خيطًا مُستلًّا بكلِّ حبٍّ من شرانق الحرير. شرانق الحرير مصفوفةٌ على الدكك الخشبيَّة، وتحتها أوراق التوت الخضراء. عمَّا قليل نأكل، عمَّا قليل يأتي فرنسيس مسابكي ويطعم كلَّ واحدةٍ من الفراشات بأنامله الملائكيَّة، تهتزُّ الدكك الخشبيَّة كما لو أنَّها تسمعنا نغنِّي: «من جودك يعلى البنيان / ويتملَّى لولو ومرجان». عمَّا

قليل تستلمنا أيادي الفتيات الصَّغيرات البضَّة، بلمساتهنَّ الرَّقيقة نصير شلَّات حريرٍ ولا أبهى. عمَّا قليل نُلفُّ على الطوق وعلى المواسير، عمَّا قليلٍ نسمع صوت الدولاب يدور ومعه تدور الأغنية: «لعيونكم أرزاقنا / حريرنا وأنوالنا». أنا خيطٌ مستلٌّ وريشةٌ يتحاوران تحت ضوء القمر، يطيران معًا من الشام إلى دير القمر. هناك تُقرع الأجراس، والناس؛ رجالًا ونساءً وأطفالًا، ترقص وتغنِّي: «يا فرنسيس يا عالي الشأن/ يا شعلة من وهج الشام... من شامكم لجبالنا/ ومن جبالكم لشامنا». جاء التاجر الدمشقيُّ من الشام، رجع التاجر الدمشقيُّ إلى الشام، وعلى أصابعه رائحة الحرير الطازج. في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر لجأ فرنسيس مسابكي إلى دير اللَّاتين في باب توما هربًا من قدرٍ لا رادَّ له. ديرٌ وفيه رهبانٌ وقساوسةٌ وتاجرٌ دمشقيّ، أحكَموا قفل الباب، ووقفوا وراءه خائفين. كتابٌ مقدَّسٌ في يدِّ كلِّ راهبٍ لطرد الشرِّ القادم. وتاجرٌ دمشقيٌّ يلوذ بالكنيسة والصلاة تحت الصليب الخشبيِّ الضَّخم. فوق الصليب رأس يسوع المسيح الجميل يميل تحت إكليل الشوك يطوِّقه، وجسده المُدمَى مستسلمٌ للمسامير تخرقه. أغمض فرنسيس مسابكي عينيْه وتمتم صلاته الأخيرة. فتح فرنسيس مسابكي عينيْه ليتأكَّد أنَّه لم يوقد شمعةً في الجرن الرخاميّ، فمن أين تأتي رائحة الشمعة إذن؟

رائحة شمعةٍ مشتعلة. حمي الحديد في قفل باب الدير وأذاب الشمع اللَّاهب ظفر الغال الرَّقيق. انخلع الباب، وانكشف الرهبان التسعة بأيديهم كتب مقدَّسة. الكتاب أم السَّيف؟ أوصالٌ مقطَّعةٌ وكتبٌ مضرَّجة. خبطٌ وصراخٌ ورائحةٌ نفَّاذةٌ حارقة. «من أين تأتي رائحة الشمعة إذن؟» تمتم فرنسيس مسابكي جملته الأخيرة. كان باب الكنيسة مفتوحًا حين دخلوا. رأوا رجلًا جاثيًا يصلِّي بعينيْن مفتوحتيْن، ظهره

مكشوف وقلبه ممتلئ الخشوع. رموا من النبابيت ألفًا ثمَّ ألفًا ثمَّ عشرة آلاف. تسمَّر التاجر الدمشقيُّ بأرضه، أغمض عينيْه وتابع الصلاة. ساد الهرج والمرج، تكسيرٌ ونهبٌ وتنكيل. الأيقونات مسفوحة، والتماثيل الرخاميَّة مذبوحة، المباخر ممعوسة والشمعدانات مقطوعة الرؤوس. والصليب عالٍ ومن مساماته تنزل القطرات. هوى الصليب بمسيحه على المذبح. فجاءوا ينظرون شرَّ ما يفعلون. حملوا فرنسيس مسابكي يئنُّ من نبابيت ظهره، مدُّوا جسده على الصليب، وبالمسامير سمَّروه. فتح فرنسيس مسابكي عينيْه ونظر إلى سقف الكنيسة، ثمَّ إلى جملونها بنوافذه البيضاويَّة ذات الزجاج الملوَّن. أغمض عينيْه على الألوان القوس قزحيَّة، وحبسها فيهما. ألوانٌ يحبُّها، من وحيها كان يختار صباغ الحرير. والحرير ينداح ويمتدُّ من جملون الكنيسة في باب توما في الشام إلى ساحة دير القمر في جبل لبنان. ها قد جُمِع المحصول، ها هي الناس ترقص، ها هي تغنِّي: «يا فرنسيس يا عالي الشأن/ يا شعلة من وهج الشام... لعيونكم أرزاقنا/حريرنا وأنوالنا». حبس ألوان الحرير في عينيْه، فلم يرَ نفسه مسمَّرًا على صليب المذبحة.

***

«يا يسوع المسيح خلِّصني، يا ربّ أنقذني». تمتمتُ بالعربيَّة الفُصحى أمام مذبح كنيسة جميع القدِّيسين في قلعة واردور الجديدة الضَّخمة. بهرتني الكنيسة بفخامتها وسقفها العالي جدًّا، قبَّتها وتزييناتها الوفيرة وعواميدها الرخاميَّة المشغولة. ما ظننت مرَّةً أنَّه من المُمكن أن يكون بيت الربِّ فخمًا وهائلًا على هذا النحو، إلَّا أنَّ أمور الإنكليز مختلفةٌ على الدوام. في البداية، بدَت القلعة الضخمة جدًّا صغيرةً من بعيد حين كنت ستِّي إيزابيل وأنا نقترب منها بعربةٍ مخصوصة. بدت القلعة صغيرةً أيضًا بسبب الأخضر الوفير الذي كاد يسدُّ الأفق. القلعة تكبر ونحن نقترب والأفكار تدور في رأسي عمَّا يحملني إلى أماكن ومناظر ما حلمت يومًا بها؛ رأيت الأبراج المحصَّنة، ومشيت في ممرَّاتٍ مخفيَّةٍ تحت الأرض، وشاهدت تماثيل لفرسان بثيابٍ معدنيَّةٍ وكثيرٍ كثيرٍ من الدروع. حين عرفت أنَّ عائلة ستِّي إيزابيل هي التي بنت هذا المكان الهائل، تغيَّر كلِّيًّا معنى جملتها التي قالتها البارحة: «كمُّور، سنذهب إلى ويلتشاير، ثمَّة حاجةٌ حقيقيَّةٌ لصلاةٍ عميقة، وللاغتسال من الأفكار غير المناسبة، مثل الغضب الخفيف الداهم بغتة. إنَّها فرصةٌ استثنائيَّةٌ بالنِّسبة إليكِ، ستتعرَّفين على معنى الكاثوليكيَّة الصافية. سنمضي عشرة أيَّامٍ في الدير، أكون فيها منعزلةً تمامًا. الوقت كلُّه مكرَّسٌ للصلاة وطاعة الربّ».

وإذ لم أكن قد تعلَّمت بعد النظر إلى أبعد من القشور، تخيَّلت الدير مكانًا كبيرًا ومتقشِّفًا، وتخيَّلت أن يكون لي فيه منعزلٌ خاصٌّ بي. وخيالي زيَّن لي رغبةً غريبةً بأخذ بعض الأوراق البيضاء والحبر معي.

بعدما رتَّبتُ لليدي بورتون ثيابها الوفيرة في غرفتها الواسعة ذات السقف العالي، أُذِن لي بالانصراف إلى غرفتي الصَّغيرة والبعيدة نسبيًّا. فتحتُ حقيبتي لأرتِّب ثيابي وأستعدَّ لأيَّام الدير الإنكليزيّ، فسمعتُ صوت الأوراق التي أخفيتها بين الفوط الرَّقيقة. سحبتها ورقةً ورقة، وتلمَّست بين الملابس ريشتي ودواة الحبر. فتحتُ درج قطعة الأثاث الخشبيَّة الكبيرة ورتَّبت مكانًا دافئًا لشيطان الكلمات.

مزاج الليدي بورتون في الدير ثابت الهدوء، لا شيء يحرِّكه أو يعكِّره أو يطيِّره ولا حتَّى درجةً واحدة. أمَّا صوتها فقد صار ألطف وأرقّ. وخفَّ حضورها إلى درجة أنَّني كدتُ أنسى أين أنا، ولماذا أنا هنا. أمضي النهار وفقًا لترتيبٍ صارمٍ مُحدَّد. ولا ألتقي إلَّا بأشخاصٍ يهمسون ويرتدون ملابس غامقة. وإذ كان كلُّ شيءٍ منظَّمًا بدقَّةً سلفًا، اختفت مهماتي تقريبًا لفرط ما تقلَّصت. الليدي بورتون ما كانت تحتاجني لمساعدتها بارتداء ملابسها كما قبل. ساعدتها في اليوميْن الأوَّليْن فحسب، ثمَّ قالت إنَّها لو احتاجت ستطلب. قالت «سأطلب» كما لو أنَّها تسأل، كما لو أنَّ لي خيار القبول أو الرَّفض. لكنَّها فطنت في اللَّحظة الأخيرة إلى مهمَّةٍ خاصَّةٍ أستطيع القيام بها ما أن أُنهي كلَّ واجباتي الدِّينيَّة في الدير. تكلَّمَتْ بصوتٍ خفيضٍ رقيقٍ كأنَّها تقترح: «مهارتك في الخياطة، هديَّةٌ من الربّ. ستمدُّك الراهبة الأخت تيريزا بما تحتاجين من أجل التطريز على الوسائد والملاءات، ومن يدري؟ قد تفلحين بخياطة بعضٍ منها. على الآنسة الجيِّدة المهذَّبة أن تتقن أمورًا

شتَّى، وتصقل مهارتها، ولا تتوقَّف يومًا عن البذل والعطاء. شرف الدين المسيحيِّ يقوم على البذل والعطاء».

كنتُ أكثر من مسرورةٍ لسماع الليدي بورتون تضفي على تقلُّصِ مهامي صفةً رسميَّة، ابتسمت وقلت: «شكرًا جزيلًا، سأبذل جهدي لأكون عند حسن ظنِّك. أتأذنين لي بالانصراف؟» انصرفت وسمعت صوت شيطان الكلمات يشكرني بدوره، ويقول: «أمرٌ جيِّدٌ أنَّكِ جلبت الأوراق والحبر. آنسة جيِّدة»

تراقصت ظلالٌ ضعيفةٌ على جدران غرفتي في الدير. كانت الريشة تنتقل من دواتها إلى الأوراق وتصدر حفيفًا ناعمًا. كنت أكتب بسرعةٍ ما حفظته عن ظهر قلب.

«وضعتني أمِّي لصق البحرة أنا وسلحفاتي الصَّغيرة، غطَّستها في الماء كي تخرج من جسمها الصلب وتبترد قليلًا، لكنَّها لم تخرج».

غمست الريشة في دواتها وكتبت تحت عيني شيطان الكلمات: «لكنَّها لم تخرج، ربَّما لأنَّ أثر الشمس الحادَّ لم يخبُ إلَّا قليلًا. وضعتها على الرخامة الواطئة أسفل البحرة، ولم أرها بعد ذلك، ولا رأيت أمِّي».

لم أر ستِّي إيزابيل إلَّا لمامًا في دير قلعة واردور الجديدة. كنَّا نلتقي في غرفة الطعام الواسعة بشبابيكها الوضَّاءة العالية. الجدران مكسوَّةٌ بخشبٍ صقيلٍ كالماء الساكن، وفي إحدى الجهات مدفأةٌ حجريَّةٌ ضخمةٌ ومرتفعة، ولوحاتٌ هائلةٌ على كلِّ الجدران. الطاولة المستطيلة والكراسي الخشبيَّةٌ دقيقة الصنع تزنِّرها. رائحة طعامٍ متقشِّفٍ تفوح في الأرجاء. نجلس هادئاتٍ صامتاتٍ، ستِّي إيزابيل وأنا وكلُّ الراهبات. الأخت الرَّئيسة عند رأس الطاولة، عينان مغمَّضتان وصلاة لشكر الربِّ وطلب

مباركته. نبدأ بتناول الشوربة بطعمها الخفيف حقًّا. نحاذر أن ترنَّ الملاعق على خزف الصحون البيضاء، نحاذر أن يهرب فُتات الخبز على الشرشف الأبيض، نكاد نحاذر التنفُّس، فصوت الراهبة الأخت فلورانس يحلِّق في الأجواء. تقرأ من الكتاب المقدَّس لئلّا نغفل لحظةً عن نعم الربِّ الوفيرة.

وكنّا ستّي إيزابيل وأنا نلتقي في الكنيسة البهيَّة، لنصلّي. وكان يبدو على وجهها سرورٌ وهناءةٌ شبه أبديَّيْن، أو لعلّي توهَّمت ذلك. أعرف اليوم من أوهمني بذلك. أتذكَّر الدَّرب التي زيَّنها لي شيطان الكلمات ببلاغة، أن انظُري كيف صارت واستكانت حين انصرفت لشأنها الخاصّ، غير محتاجةٍ لشيء، لا مرشَّةٍ ولا سوط. وأنتِ لو أنَّك تنظرين في المرآة الكبيرة، لرأيت كيف صرت مسكونةً بشأنك الخاص، وهذا أمرٌ حسن.

«هذا أمرٌ حسن»، قالت الليدي إيزابيل للراهبة الأخت تيريزا المبتسمة وهي تضع راحتيْها فوق راحتي إيزابيل البضَّتيْن. كنت أتفرَّج على الإنكليزيَّتيْن المؤمنتيْن، وبيدي أمسك علبةً مغلَّفةً بالقماش، وأستعيد بيني وبين نفسي الثناء الذي حظيت به توًّا لمهارتي في الخياطة والتطريز. ما زلت غائبةً في جملة الراهبة الأخيرة: «هذه هديَّةٌ لك. أنتِ آنسة مؤمنةٌ جيِّدة، و....». مبتسمةً كنت وسعيدةً كما لو أنَّ بخورًا يحوطني، وكيف لا؟ إنَّها المرَّة الأولى التي أحظى فيها بهديةٍ على هذا النحو غير المتوقَّع. كدتُ أفتح العلبة من فوري، لكنَّ منظر الإنكليزيَّتيْن المؤمنتيْن في تلك البقعة الخضراء الساحرة، تحت صوت جرس كنيسة جميع القدّيسين في قلعة واردور الجديدة، منعني من الإتيان بأيِّ حركةٍ غير مناسبةٍ من هذا النوع. وفي قلبي كدتُ أطير فرحًا ولا أصدِّق أن نعود إلى لندن وأكون وحدي لأفتح الهديَّة.

***

وصلنا إلى لندن، ولا شيء في بالي إلَّا موعد فتح العلبة ـ الهديَّة. أتشوَّق وشيطان الكلمات يهزُّ رأسه، ويختار لي كلماتٍ جميلةً عن السعادة والامتنان، لم أكن قد تعلَّمت بعد النظر أبعد من القشور. فكَكت شريطة العلبة وفتحتها. فيها مسبحةٌ لؤلؤيَّةٌ بأيقونةٍ للعذراء مريم وبصليبٍ عليه يسوع الجميل، وفيها نسخةٌ من الكتاب المقدَّس بغلافٍ جلديٍّ مشغول. فيها علبةٌ كاملةٌ من أدوات الخياطة والتطريز، ووسادتان وملاءتان مطرَّزتان بالحرف الأول من اسمي بالإنكليزيَّة (K). لم أكن قد تعلَّمت بعد النظر أبعد من القشور، فما وجدتُ في جملة الليدي إيزابيل: «ستأتين معنا إلى حفلةٍ مهمَّةٍ في لندن الأسبوع القادم» لفظًا نافرًا. وتحت تأثير شيطان الكلمات القويّ، توهَّمت أنَّني منذ الدير والتطريز والثناء عليه صرت واحدةً من أهل الإمبراطوريَّة.

وهمٌ أغرقني بالماء العذب لساعاتٍ قليلةٍ ففرحت، وآخر أغرقني في الماء المسنَّن لسنينٍ طويلة، فركَّب في قلبي الأسى. أوازن بين الوهمين وأنا جالسةٌ في غرفة الظلال لأكتب.

غمست الريشة في دواتها، وانتظرت شيطان الكلمات، لكنَّه أشاح بوجهه وتركني وحدي، أقلِّب أوراق المخطوط الأوَّل القديم عبثًا.

كنت أقلِّب بقوَّةٍ وأغمض عينيَّ بقوَّةٍ لأطرد كلام عمِّي سمير: «بس أنتِ بتضلِّي بتنسي وبتتخيَّلي قصص ما صارت متل مسدَّس الوالد يوم الطوشة».

هل هدأت من البكاء حين رأيت أبي أمام باب بيت باشا المغاربة؟ هل رأيت مسدَّسًا طويلًا متدلِّيًا من حزامه القماشيِّ المخطَّط؟

تفرَّست في بقعة البلل على ثياب أبي تحت حزامه القماشيِّ المخطَّط. رفعت عينيَّ إلى وجهه، ونبع غبشٌ عليهما. بظاهر يدي كنت أفرك عينيَّ، وبسبَّابتي كنت أبعد الدمع، والدمع ينبع والغبش يزيد. أنهرني أحدٌ ما لأصمت؟ أم نهرت نفسي لئلَّا أوقِظ أختي ريتا شبه النائمة بين ذراعي أبي؟ لا أتذكَّر كيف ران الصَّمت ثقيلًا أمام باب بيت باشا المغاربة. لعلِّي وحدي من سمعه من بين كلِّ الناس يوم التاسع من تمُّوز. لم يربِّت أبي بيده على كتفي. كتفا أخي الكبير حنَّا ثمَّ كتفا أخي الصَّغير نخلة نالتا التربيت الأبويّ. نلت أمرًا آخر. نلت كلمات جدَّتي هيلانة متقطِّعةً حادَّة، تسأل أبي أين المسدَّس؟ وتجيب نفسها «اختفى» وهي تمرِّر راحةً على أخرى، وتنبض عيناها بقسوة. يتقطَّع معنى الفعل «اختفى» ويندثر ثمَّ ينبعث ويتعرَّج ويغيِّر وجهته ويتوه باحثًا عمَّا يتمِّمه. وأنا واقفةٌ أتفرَّس في بقعة البلل فوق ثياب أبي، رأيت بعينيَّ هاتيْن المسدَّس الذي «اختفى»، وبأذني الآن أسمع بوضوحٍ جملة هيلانة بولاد وهي تمرِّر راحة يدٍ على أخرى: «الرجَّال اختفى».

كنت أخرج من الماء المسنَّن، ماء سنين طويلةٍ راكبَت في قلبي الأسى. الريشة في يدي والورقة البيضاء أمامي. في عينيَّ غبشٌ كثيفٌ تلاشى على مهلٍ مع الدموع النازلة. ذرفتان حطَّتا على الورقة البيضاء،

غطستا فيها لمرَّةٍ وبسرعة، هززت رأسي لئلَّا أقرأ كلمات الذرفتيْن: «ما كان من مسدَّس، وأبوك أنت من اختفى».

كنت أخرج من الماء العذب، ماء ساعات فرحٍ قليلةٍ مترقِّبةً حفلة لندن، حين نادتني ستِّي إيزابيل: «كمُّور ثمَّة عملٌ مهمٌّ تفعلينه. هذه ملابس الحفلة. لا أريد خيطًا مقصَّبًا فالتًا من التطريز الجميل هذا. قلِّبي الثياب وتأكَّدي أنَّها متقنةٌ كما لو أنَّها جديدة. كلُّ ما يحتاج خياطةً أو تطريزًا، تقومين به على أكمل وجه». كنت أتناول كدسة الثياب منها وأفرز ثياب سيِّدةٍ دمشقيَّةٍ منعَّمةٍ عن ثياب شيخ عربيٍّ جليل: الإزار، الوشاح، الزنَّار، الثوب، العباءة، غطاء الرأس. أربِّت بأصابعي كما لو أنَّني أدلُّ بصمتٍ على أنواع الأقمشة الشاميَّة وأسماء الثياب، حين جاء صوت ستِّي إيزابيل مجدَّدًا: «أصلِّي ألَّا تكوني قد أتلفتِ ملابسك الشاميَّة القديمة. أمامك ستَّة أيَّامٍ لتحضير كلِّ شيءٍ بإتقانٍ وفي اليوم السابع أدرِّبك بنفسي على أدائك في الحفلة. قبل أن أنسى، عليك تنظيف الأراجيل الشاميَّة؛ أريدها لامعةً كبلَّور النوافذ».

وأنا أنظِّف زجاج الأراجيل وأتملَّى رسماتها المذهَّبة، سرحت وتلكَّأ خيالي بمدِّيَ ولو بجملةٍ واحدةٍ عن حفلة لندن، كيف ستكون؟ لا ريب أنَّها مختلفةٌ عن دعوات العشاء الكثيرة التي كنت أحيانًا أرافق الزوجيْن الإنكليزيَّيْن فيها. أكون مرتديةً زيَّ الخادمة الرَّسميّ، ولا أخالط إلَّا من هنَّ مثلي يرتدين الثياب الرَّسميَّة ذاتها. نكون مثلما سمعت مرَّةً سيِّدي ريتشارد يصفنا بـ «السيِّدات المعلَّبات في الزاوية». لم أفهم جملته للوهلة الأولى، حين مرَّ سريعًا في طريقه للخروج إلى حديقة أحد القصور. كنت أنا وخادمةٌ هنديَّةٌ سمراء نقف كتمثاليْن في الزاوية، لا نتحرَّك إلَّا حسب أوامر رئيس الخدم. مرَّ القنصل البريطانيُّ والبراندي

يعطِّره، بطرف عينيْه تبرَّم، رفع صوته قليلًا وهو يتكلَّم مع صديقه، وقال: «cankered angular ladies». ظننت الكلام موجَّهًا لي وكدتُ أخطو باتِّجاهه، إلَّا أنَّ نظرةً واحدةً من العينيْن الهنديَّتيْن منعتني. شرحت العينان الهنديَّتان البرَّاقتان أنَّ الأمور تختلف في دعواتٍ رسميَّةٍ كهذه، وأنَّنا نصير أشبه بعبءٍ على أسيادنا، لذا وحده رئيس الخدم من يوجِّهنا. فكَّرت أن أشرح لها أنَّني لستُ خادمةً فحسب، إلَّا أنَّ الزيَّ منعني. فهل ستختلفُ الأمور في حفلة لندن؟ أسرح لاستشفَّ وخيالي يتلكَّأ، وكما لو أنَّ سحابة ميلتون مرَّت بغتةً، رنَّت في ذهني إحدى جمل ريتشارد: «نحن تقريبًا نميل إلى الظنِّ بأنَّ الأخلاق مسألةٌ جغرافيَّة». قلَّبت جملته في رأسي، فكَّرت فيها، وما اقتنعت بمعناها. قلتُ لنفسي إنَّ الأخلاق هي الفضيلة، وهي هي في الكتاب المقدَّس، لا علاقة للأمر بمكان المؤمن. أتأمَّل الآن ما فكَّرت فيه، وأدرك ولو متأخِّرةً أنَّ المعنى أبعد من هذه القشور.

كم كان قصر الليدي ماريون ألفورد جميلًا، كم كانت بحرته الرخاميَّة بهيَّة، كم كان الأخضر حول القصر زمرُّديًّا وكثيفًا، وكم كانت هي رائعة الجمال. لفرط ما كان المنظر الذي نظرته ساحرًا، نسيت تقريبًا نصف تعليمات ستِّي إيزابيل. كنت أصعد الدرج الرخاميَّ معها ومع ريتشارد. وكانت العيون كلُّها مصوَّبةً نحو ثلاثتنا بأزيائنا الشاميَّة: سيِّدةٌ دمشقيَّة، شيخٌ مسلمٌ عربيّ، وأنا. من أنا؟

أنا التي طُلِب منها ارتداء ثيابٍ كانت في بيت الصالحيَّة؛ أنا التي طُلِب منها العودة إلى ثيابها «الأصليَّة»، فظنَّت نفسها مدعوَّةً إلى الحفلة اللندنيَّة. الناس تنظر القنصل وقد تنكَّر بزيٍّ شيخٍ مسلم، وتنظر زوجته وقد تنكَّرت بزيٍّ سيِّدةٍ دمشقيَّة. الناس تنظرني ولا تعرف من أنا،

وثيابي الملوَّنة لا تدلُّ على زيٍّ رسميّ، وصوت إيزابيل يطنُّ بالإنكليزيَّة: «خادمتنا الدمشقيَّة». صوت إيزابيل يطنّ: «أرغب بتقديم الشَّيخ المسلم للمجتمع الإنكليزيّ». والقنصل الذي تمشيخ يخاطب تارةً زوجته المتنكِّرة بالعربيَّة، وتارةً أنا. بوَّابة القصر مفتوحةٌ على مصراعيْها. الكلُّ منبهرٌ بالشَّيخ المسلم والسيِّدة الدمشقيَّة وأنا معهما وفي رأسي طنين جملة إيزابيل. نظرةٌ من رئيس الخدم، وكفَّ الطنين.

من أنا بثيابي الدمشقيَّة الملوَّنة الجميلة أمام هذا الجمع من أصحاب زيِّ الخدم الرَّسميِّ في المطبخ الكبير؟ نافرةً كنت، ومدعاةً للفرجة، كأنَّ خشبة مسرحٍ تحملني بالرَّغم منِّي.

جاءت الإنكليزيَّة المتنكِّرة بسيِّدةٍ دمشقيَّةٍ بنفسها إلى المطبخ لتتأكَّد من أنَّ القهوة التركيَّة والأراجيل والصواني النحاسيَّة على أهبة الاستعداد لاعتلاء المسرح اللندنيّ. نظرتني وصارت تنبر بالإنكليزيَّة: «كما درَّبتك تفعلين. راقبي عينيَّ، انظري إلى حيث أنظر. ثمَّ انتبهي إلى خطواتي. تتبعينني كما درَّبتك. لا مجال لأيِّ هفوة. أمير ويلز ودوق أدنبره حاضران، وهما أوَّل من تقدِّمين لهما القهوة. الأمير ثمَّ الدوق».

تبخترت ستِّي إيزابيل وهي تمشي أمامي، وقبل أن ندخل القاعة الكبيرة، صوَّبت نظرة أن هيَّا. وضعتُ صينيَّة النحاس بفناجينها على رأسي، وسرت وراء الإنكليزيَّة المتنكِّرة، مخفضةً عينيَّ لئلَّا أرى نفسي رغمًا عنِّي فوق خشبة مسرحٍ لندنيّ. كان عليَّ أن أجثو أمام الأمير والصينيَّة على رأسي، ثمَّ أجثو أمام الدوق والصينيَّة على رأسي. صوت إيزابيل يطنُّ بالإنكليزيَّة، صوت ريتشارد يطنُّ بالعربيَّة. أسمع اللُّغتيْن جيِّدًا، وأفهم كلام الأمير والدوق وكلِّ الإنكليز، وأرمي كلَّ ثناءٍ أو مديحٍ

أو لطفٍ أو لباقة. أدركت أنَّني في طريقي لتعلُّم النظر أبعد من القشور بقسوة. تعلَّمت جيِّدًا حين سمعت القنصل البريطانيَّ يقول لزوجته في طريق العودة: «نحن تنكَّرنا، أمَّا قمُّور فلا». انحفرت جملة القنصل في ذهني، وكادت القاعة الكبيرة بمكاتبها الأحد عشر تتبخَّر من ذهني أيضًا. تطنُّ جملة القنصل في رأسي، وأتوه لأسبر نبرها. سخريةٌ أم لوم؟ يدقُّ رأسي شيطان الكلمات: «نحن تقريبًا نميل إلى الظنِّ بأنَّ الأخلاق مسألةٌ جغرافيَّة». أوافق الشيطان وقد اتَّضح المعنى، وأخطِّط لنيل إعجابه، مترقِّبةً بفارغ الصبر العودة إلى تريسته.

«قمري أنا ليش عم يبكي؟» قال حنًّا وهو واقفٌ عند باب غرفة الظلال. رمشت وابتسمت، وبمنديلي الصَّغير محوت الدمع: «كنت بدِّي أكتب عن شغلة صارت، بس خفت تزعل». عينان خضراوان مستفسرتان. حجَّةٌ جاهزةٌ في رأسي عمَّا جرى في حمَّام المسك في التاسع من تمُّوز اللَّاهب تمام الثانية بعد الظهر. وزعلٌ يكاد يفطر قلبي لو تكلَّمت، ويفطر قلب صاحب العينيْن الجميلتيْن. عينان مستفسرتان، تنضحان بالأسئلة، تنغلقان على الماضي وتطمرانه مرَّة، تنفتحان على الحبِّ وتطوِّقاني كلَّ مرَّة. «عم تبكي مشان ما تزعليني؟» سأل حنًّا مترقِّبًا. سمعت صوتي: «بحياتي ما بزعلك».

***

البخور أنا أشعلته، والمسبحة اللؤلؤيَّة أنا أمسكتها. «يا يسوع المسيح خلِّصني، يا ربُّ أنقذني، ردَّني إلى بلادي». تمتمت بالعربيَّة الفصحى أمام الصليب الخشبيِّ في ممرِّ إيزابيل المسيحيِّ في قصر تريسته. رسمت إشارة الصليب. أغمضت عينيَّ ورأيت شيطان الكلمات ينتظرني.

فتحت باب القاعة الكبيرة حيث الأحد عشر مكتبًا. جلست أمام مكتب الزاوية لأكمل نسخ مخطوط «أكملُ ما كُتب». يطغى صوت ريشتي على صوت الآلة الغريبة، والأقوى من الصوتيْن صوتي. عن ظهر قلبٍ كنت أحفظ أبياتًا شعريَّةً متراقصة: «يُشرق المرج بما فيه / من البيض العوالي / زاد حسنًا وجمالا / من بديعيات الخلال / كل هيفاء قواما / ذات غنج ودلال / راخيات لشعور / كعناقيد الدوالي / فاتنات بعيون / راميات بالنبال / مائسات قاتلات / لصناديد الرجال».

قمت من مكاني صوب المكتب الثامن لأدوِّن القصص الباقية. تفرَّست في ورقةٍ من المخطوط الأوَّل القديم، وهالني عدد القتلى في الحمَّام، نساءً وأطفالًا في غالبيتهم. لم أحتج فعلًا إلى التذكُّر، فما جرى في حمَّام المسك في التاسع من تمُّوز، لا يُمكن نسيانه البتَّة. عاد إليَّ

صوت البلّانة سلمى فكّاك التي نجَت مصادفة، إذ وقعت فوقها امرأةٌ ضخمةٌ قتيلة. قالت إنّها رأت كلّ شيء، وإنّها لا تستطيع محو ما رأت من ذهنها. يرنُّ صوتها: «شفت كلّ شي، كلّ شي». ثمَّ تغيب وتصير تخاطب نفسها بكلماتٍ متقطّعةٍ عن ألواح الصابون والماء والفوط المتّسخة. ثمَّ تقوم من مكانها وتتركني في أرض الديار في بيتٍ متهالكٍ في شارع العبّارة - زقاق سدّ الرمان. ألبث في مكاني تائهةً أنتظر، فيجيء صوتها أن تعالي إلى الغرفة. أقف وأتّجه صوب غرفةٍ صغيرةٍ رطبة، فأراها واقفةً أمام الدفَّة الخشبيَّة. الدفَّة مفتوحةٌ وسلمى تتشاجر مع أشباح يطلُّون من رأسها، تتّهمهم تارةً بسرقة الصابون، وطورًا تنتقد طريقتهم في طيِّ الفوط، تقول إنَّها ستشكو من كسَّر بلاطات القيشاني ونزعها من مكانها، وإنَّها رأت سارق الصواني النحاسيَّة وحفظت وجهه. تلتفت نحوي وتقول بصوتٍ مرتفعٍ إنَّني نسيت الصنبور مفتوحًا عن عمد، وإنَّها تعبت من شطف الماء الأحمر. أتسمَّر بمكاني ولا أعرف ما أفعل. أنتظر أن تدير وجهها نحو أشباح جديدةٍ تنهرها، لأتسلَّل من بيتها. أخرج بسرعةٍ وأكاد أنسى أن أغطّي وجهي، وصوتها يتبعني: «شو عملتو؟ ما عم تشمُّو؟ هي مو ريحة حمَّام المسك».

الريشة في دواتها، والورقة بيضاء. الآلة الغريبة تدقّ، وأنا أنتظر شيطان الكلمات. أخطُّ الجملة الأولى «فمن ذلك أنَّه في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر»، وأترقَّب. عبثًا أفعل. كما لو أنَّني سمعت صوت أمّي تقول شيئًا، كأنَّها تغنّي. استعدتُ فجأةً ما بَقِي من رنينه في رأسي، وكدتُ أراها تبتسم لي وتناديني باسمي. رسمت إشارة الصليب. سحبت ورقة المخطوط الأوَّل وصرت أعدُّ القتلى، أربعٌ وثلاثون امرأة، وستٌّ وأربعون طفلة، وسبعٌ وعشرون طفلًا. ثلاثة رجال. حين انتهيت،

مزَّقت الورقة، وأخفيت المزق في كمّي. رسمت إشارة الصليب وكتبت بسرعةٍ قصَّةً لم تحْك لي عن عائلةٍ ذبيحةٍ في باب توما. وحين انتهيت، اتَّجهت إلى المكتب الحادي عشر، كدتُ أرفع الخناجر اللّامعة وأضع القصَّة التي لم تحك لي تحتها، لكنّي لم أفعل.

أقف أمام خزانة إيزابيل لأناولها ثوبها البنفسجيّ، وأساعدها بارتدائه. تلكَّأت وأنا أدرس على مهلٍ قَصَّته، ونوع قماشه، والدانتيل المشغول عند ياقته. ثمَّ جاء صوتها: «لا، أريد ثوبي الأسود بشرائطه المخمليَّة». ألبستها الأسود، وقلت لها: «لو تأذنين لي، فتسمحين لي بالاعتذار عن مُرافقتك. فقد نذرت في دير واردور القراءة في الكتاب المقدَّس. حضَّرتُ زجاجتيْن من الماء المقدَّس». هزَّت إيزابيل رأسها ببطء. ولم تقل شيئًا.

وقفت أمام المرآة وابتسمت وأنا أربِّت بيديَّ على جانبي ثوبي البنفسجيّ الجديد. تشكَّرت شيطان الكلمات إذ دلَّني على صديقه شيطان المواهب. عقدت من الدانتيل الأسود مريولًا على خصري، ومن الدانتيل الأسود أيضًا وشاحًا على شعري المنسدل، ونظرت في عينيَّ في المرآة ثانية، وهمست: «ثوبُ السيِّدة زيُّ الخادمة». انتعلت قبقابي الخشبيَّ المصدَّف، ورحت لأتمشَّى متبخترةً في قاعة الطعام، حيث إيزابيل وحدها.

أخبط الأرض الرخاميَّة بقوَّةٍ وأتمخطر، يدي مرَّةً على شريطة الدانتيل الأسود العريضة مشبوكةً بشعري المنسدل، ومرَّةً تمسك طرف التافتا البنفسجيِّ ليفصح عن دخولي قاعة الطعام حيث إيزابيل تتناول الشوربة. فتحت الإنكليزيَّة عينيْها باتِّساعٍ شديد، لم تُصلِّب إذ

إنَّ الملعقة في يدها. الملعقة ستُركن بقوَّةٍ على حافة الصحن الخزفيّ ويختلط الرَّنين بصوت إيزابيل: «ما هذا؟ ماذا ترتدين بحقِّ السماء؟ أهذا ثوبي البنفسجيّ؟ ماذا فعلت بثوبي أيَّتها الشقيَّة؟» بهدوء، قلت: «التقشُّف والبذل والعطاء، شرف الدِّين المسيحيّ. نذرت في الدير أمرًا. سأختلي بنفسي مع الكتاب المقدَّس. أحتاج بخورًا من فضلك». قامت الإنكليزيَّة من مكانها، تقترب منِّي وأنا أتلو ما أحفظه من الكتاب المقدَّس: «فلمَّا سمع يسوع ذلك قال له يعوزك أيضًا شيء. بع كلَّ مالك ووزِّع على الفقراء فيكون لك كنزٌ في السماء وتعال اتبعني، فلمَّا سمع ذلك حزن لأنَّه كان غنيًّا جدًّا. فلمَّا رآه يسوع قد حزن قال ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت اللّـه، لأنَّ دخول جملٍ من ثقب إبرةٍ أيسر من أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت اللّـه». حين وصلت إيزابيل أمامي رسمت علامة الصليب ثلاث مرَّاتٍ بيدي اليُمنى، وبيدي اليُسرى كنت ماسكةً مسبحتي اللؤلؤيَّة، رفعتها إلى صدري وقلت: «يا يسوع المسيح أنقذني».

إيزابيل تنظرني، ترى دانتيلها الأسود على شعري وعلى خصري، وثوبها المترف صار زيَّ خادمة. إيزابيل تنظرني وترى المسبحة اللؤلؤيَّة بيدي. وشيطان المواهب يُثني على الخياطة المتقنة، وشيطان الكلمات يهمس أن اثبتي ولا تجزعي.

هذه المرَّة لم أنصرف، انصرفت إيزابيل، سمعت خطوها صوب الممرِّ المسيحيّ، حيث كنت قد أشعلت شمعةً متقشِّفةً وكثيرًا من البخور.

يومان ربَّما أو ثلاثة على هذا النحو، أكون في قاعة المكاتب الأحد عشر لأنسخ وأدوِّن وحدي، فالقنصل غائبٌ في سفرٍ تاق إليه. كعادته، يخطف القنصل نفسه من قصر تريسته، ويغيب من دون أن يحدِّد موعدًا

لعودته. قد يرسل رسائل مقتضبة. تتلهَّف إيزابيل لفضِّها، تقرأها ثلاث مرَّاتٍ على الأقل، قبل أن تجلس وتخطَّ جوابًا لا أقلَّ من صفحتيْن.

إيزابيل في غرفة الرَّسم تكتب رسائلها، وأنا في قاعة المكاتب الأحد عشر، أتنقَّل ما بين مكتب الزاوية والمكتب الثامن. وقد صرت أعرف كيف أشغِّل الآلة النحاسيَّة. صرت أحتاج صوتها لأضبط الوقت؛ وقتٌ للنسخ، وقتٌ للحفظ، ووقتٌ للتدوين. وحين أنتهي أكرِّس كلَّ الوقت الباقي للصلاة والقراءة في الكتاب المقدَّس. أقرأ أكثر وتتبرَّم الإنكليزيَّة أكثر. تقترب منِّي لتنهرني فأجيب بما أحفظ من الكتاب المقدَّس، ولا أتوقَّف إلَّا حين تنصرف عنِّي. أسمعها تقول للطبَّاخ ريكاردو، إنَّني كسولةٌ ولا أصلح لشيء وإنَّني عديمة الفائدة وإنَّها ضاقت ذرعًا بي. أسمع كلماتها باطمئنان، وقبل أن يثني شيطان الكلمات على مواهبي المتفتِّحة، أدرك أنَّنا صرنا هو وأنا: اثنان متواطئان. أبتسم وأقول له ولنفسي «هذا أمرٌ حسن، قد رمَّمتُ خاطري المكسور».

***

على مزاجي أن يعلو ويطير كما هذه الفراشة البيضاء التي تتنقل بين زهور أرض الديار. أراقبها من مكاني وأنا أنفث دخان نارجيلتي وأفكِّر بما كتبتُ منذ قليلٍ في غرفة الظلال. وعلى روحي أن تكون مطواعة، فلا يعكِّرها العصر الشاميُّ العبق، حيث الرطوبة وما تبقَّى من حرِّ شمس النهار يتنافسان في تأجيج المشاعر الغامضة. فتصير روحي ترنُّ في جسدي، كعصفورٍ يخبط بجناحيْه قضبان القفص. أنفث الدخان لأستكين وأتذكَّر أيامي الأخيرة في تريسته المليئة بالكلمات.

كانت الكلمات في قصر تريسته تجول وتجول من غرفةٍ إلى أخرى، ومن القاعة الكبيرة إلى الحديقة الواسعة، من الممرِّ المسيحيِّ حتَّى الغرفة الشرقيَّة. كلماتٌ تخرج من الكتب الوفيرة، من الرسائل المتلاحقة، من المخطوطات القديمة، ومن تلك التي يخطُّها القنصل وأحبُّ أن أسترق النظر إليها. القصر صامتٌ هادئ، والكلمات تسكن كلَّ زواياه وتنبعث من كلِّ شيء. من رائحة البخور، ومن رائحة البراندي ومن طيف النبيذ المتواري في عتمته، من الكؤوس البلَّوريَّة،، من رنين الملاعق في فناجين الخزف. كلُّ ما في القصر يتكلَّم عدا القنصل وإيزابيل وأنا. يزداد التوتر، يتموَّج النكد في فضاء القصر، يثقل الهواء في أرجائه الواسعة. ألمح الأسلحة المتناثرة على المكاتب والطاولات،

ألمح العيون المقطَّبة للزوجيْن الإنكليزيَّيْن، ثمَّ أتمسَّك بما أحفظ من كلمات القدِّيسة تيريزا: «لا تدع شيئًا يزعجك. لا تدع شيئًا يخيفك. كلُّ شيءُ يمرّ. اللَّـه وحده لا يتغيَّر. الصبر يغنيك عن كلِّ شيء. إن كان لديْك اللَّـه فلن تريد شيئًا. يكفي اللَّـه وحده».

نكدٌ متموِّجٌ في فضاء القصر، عصرٌ شاميٌّ عبق. أنفث دخان النارجيلة وأنتظر العينيْن الخضراويْن. جاء حنًّا، فتحرَّك نسيمٌ رقيقٌ في أرض الديار. مدَّ يده الناحلة وسبَّحها في البحرة وابتسم. سألني إن كنت جاهزةٌ وهو يقترب صوبي على مهل، أمسك بيده النديَّة يدي، وبدلًا من مثلٍ يحفظه، قال كلماتٍ جديدةً، كلماتٍ تخرج من قلبه، كلماتٍ تخرج من عينيْه. بدا سعيدًا وكدتُ أتخيَّل نفسي سعيدة.

مشينا معًا باتِّجاه العربة المخصوصة، جلسنا فيها، سارت بنا العربة من بيتنا في طرف القيمريَّة نحو الطريق المستقيم. أنظر حولي وأرى الشام بهشاشتها؛ أرى الزقاق المؤدِّي إلى بيت القسِّ وليام، أرى الكنيسة المريميَّة، أرى البيوت الجديدة وجمالها، ومن ورائها بقايا بيوتٍ معلَّقةٍ بأشجارها الحزينة. أخضر طالعٌ من كلِّ شيء؛ من الركام والأحجار المتكسِّرة، من الخزف المسفوح يعكس لون سماءٍ زرقاء قاتمة، من أجساد من راحوا، من رنين كنائس قتيلة. نقترب من شارع باب توما، وفي أفق الطريق المستقيم أرى باب شرقيّ مفضيًا إلى غوطة الشام الزمرُّديَّة. ثمَّة تقاطعٌ نقترب منه، ويصير قلب حنًّا ينبض بقوَّة. لا أسمع صوت النبض، بل أراه ينتفض في شرايين رقبة الباهي الوسيم. يحلُّ بيدٍ وشاح رقبته قليلًا، وباليد الأخرى يُهدِّئ اهتزاز ساقه اللَّاإرادي. ثوانٍ كأنَّها ساعاتٌ، حين تلتفُّ العربة صوب اليسار، لتدخل إلى شارع باب توما. أريد للياردات الأولى أن تختفي، أريد لجهة اليمين تحديدًا

أن تُضلِّلها غابةٌ كغابات الإنكليز الكثيفة. أيا ليتني اصطحبتُ من الإمبراطوريَّة مشهدًا ساحرًا من حدائق كيو الملكيَّة المتَّسعة كفردوسٍ سرمديّ، لأضعه هنا، تمامًا هنا، فيذيب في أخضره المتماوج بألف درجةٍ ودرجةٍ حمَّام المسك، فلا ينظره حنًّا، ولا تعذِّبه ذاكرته. أنا أرى حدائق إنكليزيَّة، وزوجي يرى حمَّام دم. عينان خضراوان في عمقهما لونٌ أحمر ما كفَّ يومًا عن السيلان. عينان خضراوان وفمٌ تامُّ الإطباق.

صوت حدوات الحصان تطرطق على البلاطات البازلتيَّة. طرقتان أخيرتان قبل أن نطرق باب قصر أنطون شاميَّة. بيتٌ راسخٌ كأن لا دهليز له، فالضوء المشعُّ بألف نورٍ ونورٍ من أرض الديار يخطف الأنفاس. ها أنت في حضرة أجمل بيوت الشام. كم هي البحرة واسعة، ما أجمل ذاك الرخام الأبيض الصقيل المتَّشح برماديٍّ شبه أزرق يلفُّ جدران غرف أرض الديار كلِّها. يا لبهاء تلك الأحواض المشغولة الأربعة، البعيدة قليلًا من البحرة الساحرة. في الأحواض شجرٌ متطاولٌ منثنٍ، تسند ترنُّحه الرَّقيق هياكل خشبيَّةٌ بيضاء مشغولةٌ كالدانتيل. الشجر في أحواضه برَّاقٌ وأكثر، يبهر بجماله سحابة ميلتون المتلألئة في ليالي الشمال الإنكليزيّ. الإيوان بسقفه العالي مرصوفةٌ كلُّ جدرانه بالرخام. ألواحٌ بيضاء تزنِّر الجدران، تعلوها زخرفاتٌ حجريَّةٌ من الطراز الجديد، تمتدُّ حتَّى السقف، وفي داخلها رسومٌ بألوانٍ ربيعيَّةٍ زاهيةٍ لمدنٍ ومناظر حالمةٍ هانئة. في جدار العمق أقواسٌ ورخامٌ أكثر رهافةً ودقَّةً ممَّا يمكن تصوُّره، ومرايا صقيلة وعواميد دقيقة، وتنزيلٌ مذهَّبٌ وأسود، ما أجمله. وحافةٌ رخاميَّةٌ بيضاء تنبض بسنابل هندسيَّةٍ قرمزيَّة، تعلوها طرَّاحات مغلَّفةٌ بحرير بروكار عاجيٍّ مذهَّب، كأنَّ للملوك والملكات وُضِعت. والأرض تحت قدميْك، تُرنِّحك تكاد تفقدك توازنك، كأنَّ

تلك المزاوجات المنحنية بين الأحمر والأبيض، تشفُّ عن راحات المرخِّمين النديَّة، كأنَّما الندى يتكثَّف فوق الرخام الصقيل، فيصير ماءً وتظنُّ أنَّك فوقه تسير.

على يمين الإيوان ويساره، في بعيدٍ وسطي المسافة والقياس، إيوانان صغيران، في قلبهما تزاوج الحجر مع الرخام، أظنُّه بازلت جنوب الشام، وذلك الحجر بلونه الزهريِّ المتماوج بالأرجوان، قدِم من المزَّة، وسمِّي مزَّاويًا باسمها. وعلى الأرض بحرةٌ منمنمةٌ واطئة، كأنَّما وضِعت للطير والحمام، ليهنئ شأنه شأن أهل الشام بشرب الماء الشاميِّ، أطيب ماء.

أوَ تظنُّ أنَّك ستبقى مُسمَّرًا مخطوفًا بجمال الإيوان الكبير وأخويه الصَّغيرَيْن على جانبيْه يُخاصِرانه؟ أنت واهمٌ في حضرة القصر الساحر. قصرٌ مثل حبَّات الملبَّس الشاميّ، سكَّرٌ ذائبٌ يغلِّف لوزًا طازجًا، لذيذ الطعم والملمس ورهيف الرائحة. لا فرق بين جهتي حبَّة الملبَّس، كلُّها شاميَّةٌ بهيَّة، وكذلك قصر أنطون شاميَّة، من كلِّ جهاته شاميٌّ بهيّ. دُر حول نفسك، أنت ستنسى أنَّك أعطيت ظهرك للإيوان الكبير، ما إن تنظر إليك الأقواس الرخاميَّة الدقيقة، وقناطرها المنسابة كالحرير. ترفع الأقواس حاجبيْها أن انظُرْ إلى الأعلى. هناك فوق اتَّفقت الألوان القوس قزحيَّة على أن تفتنك مرَّةً من نظرةٍ فحسب. زجاجٌ ملوَّنٌ بأناقة دمشق كلِّها، وخشبٌ قويٌّ ينحني ليلملم جمال الألوان، ويخبر عن نجَّارين أيديهم من ذهب، وعن زجَّاجين عيونهم من الماس.

أهدأ من جمال القصر وأنا واقفةٌ قرب حنًّا، أرتشف الرَّشفة الأخيرة من عصير البرتقال لطيف البرودة. رسمت إشارة الصليب في قلبي، حين

سمعت ما يحتاج إليه كلُّ رقيق مشاعر في حضرة البيت الشاميّ. صوتٌ عذبٌ صحيح اللَّفظ والتنغيم، يقول: «ضاءت بنورك صالة سكّانها/ للمكرمات عواتق ومفارق/لا زلت يا أنطون كوكبها الذي/حلَّاه بالخلق الجميل الخالق/ من قال يا شاميُّ في تاريخها/ قد فاخرت بك كلّ دارٍ صادق». أحاول حفظ الأبيات الشعريَّة وأنا ممسكةٌ بالكأس البلَّوريَّة، بداخلها تناثرت نقاطٌ برتقاليَّةٌ كالنجوم. جاء صوتٌ لطيفٌ وانتشلني من الشعر، يسألني إن كنت أرغب بالمزيد. أبتسم ممتنةً وأكون في مرمى العينيْن الخضراويْن. عينان تبسمان، عينان تفخران، عينان تتكلَّمان كأنَّما تتغزَّلان، وصوت حنَّا يقول: «قمُّور عم تكتب بالإنكليزي». فتبتسم العيون المسيحيَّة في أحلى بيتٍ في الشام.

***

كنت أسترقُ وقت الحفظ في تريسته وأنا أنسخ من مخطوطاتٍ يضعها لي القنصل البريطانيُّ على طاولة الزاوية، فقد صارت تعليمات النسخ مقتضبةً، بل متلاشية. وحدها التَّعليمات الخاصَّة بكيفيَّة التدوين راحت تزداد وتتنوَّع. يكتبها القنصل بخطٍّ يده ويضعها على المكتب الثامن ما إن أجلس أمامه: «هذه قائمة بالتفاصيل التي عليك تدوينها: أن يكون المرء دقيقًا في اختيار اللَّفظ الصَّحيح، أمرٌ جوهريّ. إن كان السيف المستعمل من الفولاذ الدمشقيِّ تجب الإشارة إلى ذلك بدقَّةٍ ومهنيَّة. فالأسلحة تشير دومًا إلى هويَّة القاتل. الأمر نفسه في ما يخصُّ نوع الأثاث، فلو كان مصدَّفًا وصقيلًا فإنَّه يشير إلى ثراء القتلى. وكذلك النحاسيَّات، رسومُ حفرها وتنزيل الفضَّة أو أيِّ معادن أخرى عليها. والزجاجيَّات، أهتمّ بالألوان والموادِّ المستعملة. والرُّخام لا تنسي وصف أنواع حفره وألوانه وأشكال تقطيعه، سواء في الكنائس أم البيوت. ثمَّة أمرٌ آخر مهمٌّ جدًّا يتعلَّق بتلك البلاطات الزرقاء البيضاء الخضراء التي عادةً ما تكون في الحمَّامات، أي القيشاني، يجب وصف رسومها وأشكالها؛ مربَّعةٌ أم مسدَّسةٌ أم خلاف ذلك. كلُّ هذه التفاصيل تشير إلى ثراء القتلى وإلى مهنهم على نحوٍ خاصّ. لا أحتاج فعلًا أن أنبِّهك إلى أنواع الثياب وأقمشتها،

فقد صرتِ محترفةً بمعرفة تفاصيلها كلِّها احترافًا شبه سيِّئ الشُّمعة».
ورمقني بنظرةٍ جافَّةٍ قاسية.

استمعتُ إلى التَّعليمات الجديدة ورأيت في ذهني بيوت ناس باب توما ومهنهم وحيواتهم ما قبل التاسع من تمُّوز، كما لو أنَّهم ما زالوا على قيد الحياة في الحيِّ البعيد، إلَّا أنَّني لم أسرح وما انتابني حنينٌ لا شفاء له، بل حنينٌ مقدورٌ عليه. وحدها الجملة الأخيرة بدت مشوبةً بمعنى مبطَّن. هل قصد ريتشارد الإشارة إلى الثوب البنفسجيّ، أم إلى ثيابي الشاميَّة التي صرت أحرص على ارتدائها في آخر أيَّام تريسته؟ قلَّبت جملته وأنا أقلِّب ما بين القصص الثلاث والثلاثين التي دوَّنتها قبل يوم عفاريت السيرك الجهنَّميّ، وقبل الحفلة اللندنيَّة. ثمَّ رحتُ أقلِّب القصَّتيْن اللَّتيْن دوَّنتهما بعد. احتسبت القصص الباقية فوجدتها أربعًا. نظرت إلى كدسة الأوراق البيضاء، وببطءٍ شديدٍ رحت أسحب ورقةً بيضاء وأضعها فوق كلِّ قصَّةٍ مدوَّنة.

غمست الريشة في دواتها، وصرتُ أكتب بسرعة، وشيطان الكلمات مبتسمٌ، يسوس فرسًا زرقاء وبيده ريشة طاووس.

«فمن ذلك أنَّه في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر. **لي كاتبٌ يمحو السطور وينسخُ، وتراه يحكم ما أراد وينسخُ.** دخل ما يزيد عن ثلاثين رجلًا وشابًّا متسلِّحين بالخناجر والسكاكين والسيوف والبلطات، مستخبرين **سألنا عن مكامنها، توما ويوشا ويوحنا وجرجيسا.** إلى بيتٍ في حيٍّ باب توما. **نأتي الكنائس والرهبان قد عكفوا، لدى الصوامع يدعون النواميسا.** ذبحوا كلَّ أهله، ونهبوا كلَّ محتوياته ثمَّ أشعلوا فيه النار. **طفنا بها واستلمنا دنها شغفًا، فلم نخف عندها عيبًا**

وتدنيسًا. وانهدم البيت كلُّه. **حيث القساقس قاموا في برانسهم، يومون بالرأس نحو الشرق عن عيسى**».

غمست الريشة في دواتها، وامتطيت فرس شيطان الكلمات.

«فمن ذلك أنَّه في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر، دخل ما يزيد عن خمسين رجلًا وشابًا متسلِّحين بالبلطات والخناجر والسكاكين والسُّيوف دارًا جميلة. **دارنا هذه هي الأشجارُ، وعليها جسومنا أزهارُ، والنفوس التي إذ زال عنها، قشر جسم تبقى هي الأثمار**. حين أعيوا من كسر الباب. **دار سلمى ما دار فيها محب، قطُّ إلَّا ذاق الفنا والهلاكا**. حطَّموا القفل بالفؤوس. **إنَّ جسمي هنا وقلبي هناكا، وأنا الصبّ بين هذا وذاكا**. ثمَّ ذبحوا كلَّ من في الدار. **كلامنا غير ما تعطى العباراتُ، من المعاني لنا فيه اعتباراتُ، بنفسه قائم وهو المجرَّد عن، لفظ ومعنى معًا وهو الإشارات**. ونهبوا كلَّ محتوياتها ثمَّ أشعلوا فيها النار».

غمست الريشة في دواتها، ورأيت نفسي شبه مختالةٍ بل تيَّاهةً على الفرس الزرقاء فلوَّحت بريشة الطاووس.

«فمن ذلك أنَّه في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر، رأى رجلٌ من النصارى الحال الذي وقع. **دع المنكرين الجاحدين فإنهم، ستائرنا اللاتي لحجب الأجانبِ، من الغيب مدَّت بالكثافة وهي من، تجلَّى اسمه الستَّار ربُّ المواهب**. وما مضى وقتُ قليلٌ حتَّى سمع ضجَّةً في الدار. **من صالحيَّتنا طرنا بأجنحة، هي السرور لبستان يسمى البرجْ**. فوجد الحائط الذي بينه وبين جاره قد انهدم إلى أسفله. **حتَّى كأنَّا حمامٌ جاء في قفص، ثمَّ استقرَّ وأمسى بائتًا في البرجْ**. فذبحوه وجاره ونهبوا كلَّ محتويات بيته ثمَّ أشعلوا فيه النار».

غمست الريشة في دواتها، فظهر شيطان المواهب، وبحركةٍ من يده اللَّاهية أخفى خناجر ريتشارد من مرمى نظري.

«فمن ذلك أنَّه في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر، ومن ذلك أنَّ الخوري. **إنَّني إن أمت فما أنا ميتُ، أنا حيٌّ بمن إليه اهتديتُ**. كان يحمل مشكاةً بيده. **وأنارت مشكاة ذاتي بمصباح علومي وفي الزجاجة زيتُ**. في برهةٍ يسيرةٍ قبل الهجوم. فلمَّا دخلوا بيته. **قالوا إنَّ هذا القديم وهذه أفعالُهُ، وجلالُه هو ظاهر وجمالُهُ**. خطفوا المشكاة من يده وأحرقوا وجهه بنارها. **لا حادث إلَّا الذي في علمه، بالحقِّ كان لذكره إنزاله**. ثمَّ داروا في بيته فنهبوه، ولمَّا فرغوا من نهبه أحرقوه».

حرصت على انتظار جفاف الحبر، وبدا كما لو أنَّ صوت الآلة الغريبة يطربني. قبضت بيدي على مسبحتي اللؤلؤيَّة، وبدأت أقرأ قائمة التَّعليمات الجديدة: الأسلحة، الأثاث، النحاسيَّات، الزجاجيَّات، الرخام، أشكال البحرات، أشكال الآبار، بلاطات القيشاني، الثياب. حدَّقت كثيرًا بتلك الكلمات، وصارت كلُّ واحدةٍ منها تتفرَّع ألف كلمةٍ وكلمة، ووراء كلِّ كلمةٍ صرت أرى حيواتٍ ممزَّقةً ومشاهد محذوفةً وأصواتًا مخنوقة. أغمضت عينيَّ لئلَّا أرى حياتي الشاميَّة مسفوحةً في التَّعليمات الإنكليزيَّة، لكنَّني صرت أراها أكثر، أشدُّ بقوَّةٍ على الإغماض فأرى حيَّ باب توما بأزقَّته وشوارعه وبيوته وكنائسه. أخاف أن أتذكَّر أكثر، أن يسلمني الإغماض إلى الأسماء، ويصير من عرفتهم وعرفت قصصهم من الناجين نجاةً واهية، ذبائح تعلوها الأسماء. أرسم إشارة الصليب في قلبي. أفتح عينيَّ وأسترق نظرةً صوب النافذة الكبيرة. أرفع بصري وأثبِّته على زرقة السماء. تسحبني سماء تريسته إلى ألف درجةٍ

ودرجةٍ من أزرقها، كأنَّها تحبس البحر في صفحتها المتموِّجة بالرياح، وتطلع ألوانٌ زرقاء خضراء من البحر صوب السماء.

أقوم من مكاني حين تفتح إيزابيل باب قاعة المكاتب الأحد عشر، تدخل وتصير تتبختر، وبيدها سيف المبارزة الناحل، تحرِّكه كأنَّه سوطها في الشام. يرفع القنصل رأسه، وبنظرةٍ يتفاهمان في أرجاء قصرٍ يموج النكد في هوائه. ذاهبان ليتبارزا، وأنا واقفةٌ أمام المكتب الثامن، أحملُ بيدٍ مسبحتي اللؤلؤيَّة، ويدي الأخرى مركونةٌ على الأوراق. أنتظر تلك الثواني الثقيلة إلى أن يُصفق الباب. أذهب صوب غرفتي الصَّغيرة، ولا أنسى مرَّةً في الممرِّ المسيحيِّ رسم إشارة الصليب أمام يسوع المسيح والتضرُّع له: «يا يسوع المسيح خلِّصني، يا ربُّ أنقذني، رُدَّني إلى بلادي».

***

كم كان الشتاء الأخير قاسيًا في تريسته، كم كان هواء القصر ثقيلًا، وحدها الكلمات ربَّتت على كتفي في غرفتي الصَّغيرة وأنا أنتظر خبرًا يسفِّرني من هنا. لم يتأخَّر الخبر كثيرًا، حمله أسبوع نوفمبر الأخير. كنت أهمُّ بدخول القاعة الكبيرة حين رأيت إيزابيل واقفةً في نهاية ممرِّها المسيحيّ، الضوء وراءها، وهي معتمة الوجه باهتة القسمات. ما إن لمحتني بثيابي الأرجوانيَّة والصفراء، حتَّى خبطت بقدمٍ قويَّةٍ على البلاط، ورفعت يدها ببطءٍ أمام صدرها. مشيت باتِّجاهها، وبيدي مسبحتي. حين اقتربتْ ما عرفت معنى نظرتها لي. كانت تحدِّق بعينيَّ بثبات. مرَّت ثوانٍ كأنَّها دهرٌ قبل أن تنبر بالإنكليزيَّة: «قرَّرتُ أن أنهي عطفي ورعايتي لك، أدَّيتُ المهمَّة التي أوكلني الربُّ بها على أكمل وجه. ثمَّة أمورٌ مهمَّةٌ عليَّ القيام بها، في الكتابة ومتابعة أمور النشر في لندن. أبرقتُ لأبيك لينتظرك في بيروت. السفينة البخاريَّة تتحرَّك في الرابع من ديسمبر. بإمكانك أن تبدئي بحزم أمتعتك. آذن لك بالانصراف». كنت أسمع كلماتها التي انتظرتها وأحسُّ في النبر كلامًا آخر، يريدني أن أشعر بالذنب، أن أندم، أن أعتذر، أن أنكمش كما تفعل الخادمات حين يُنهرن، أن أخفض بصري، أن أرمش بالضعف، أن أدنو من الهوان، لكنِّي لم أفعل، ففي

قلبي كلماتُ تقوِّيني ولا أحتاج قولها لأحد: «إن كان لديْك اللّـه فلن تريد شيئًا. يكفي اللّـه وحده».

سكنت كلمات إيزابيل المروَّسة في ذهني. غصبًا عنِّي ورغمًا عن كلمات الكتاب المقدَّس، راحت تتبختر في هواء غرفتي الصَّغيرة في تريسته.

كنت في قبو الصالحيَّة أرتدي ثوبًا أزرق له حفيفٌ صقيل. صوت القماش أنبأني عن نوعه: «التافتا في الصالحيَّة، التافتا لا الحرير». ما إن مرَّت الجملة في خاطري حتَّى رأيتني وقد انحسر ثوبي إلى الأعلى، وقبل أن أشيح بوجهي أو أظنني أفعل، بزغ ريتشارد كما لو من ورائي، إذ أحسست أنفاسه قرب كتفي. لمحت في يده مسدَّسًا ناحلًا يكاد يكون مسدَّس أبي. ربَّما اتَّسعت عيناي بسبب المباغتة. ثمَّ أحسست كما لو شبه استكنت حين تجاوزني بخطوتيْن. ثمَّ صار في مرمى نظري، رأيته جاثيًا على إحدى ركبتيْه، مدَّ يده القويَّة وأمسك برقبتي. خرج الماء منِّي، فأخفضت بصري لأرى ثانيةً ثوبي المنحسر حتَّى خصري. لعلَّ ريشةً لمستني، فأغمضتُ عينيَّ مطمئنةً ساهيةً بسبب مائي. تنزَّهت ريشة ريتشارد بين نصفي العاري وورقة رسم. رأيت عينيْه القويَّتيْن تثقبان اطمئناني الواهي، لعلَّه لم يكن يُنزِّه ريشته على بدني، بل يشطّب عريَّه بسكينٍ تقطر دمًا. ما تألَّمت لكنَّني بكيت كما لو أنَّه ينهرني ويصفعني. ثمَّ إنِّي جفلت من جملته: «أرسم عريَّك ... أذبحك... ». كلماته المتقطِّعة تفتَّحت عمَّا يشبه الشرح الخفيّ، أو لعلِّي فسَّرت لنفسي ما قال أو ربَّما هذا ما توهَّمت أنِّي سمعته يقول. سمعت نبر الكلمات لا الكلمات، فقد كانت كلماتٍ مرئيَّةً رأيتها بعيني، كانت تُخبرني عن كتابٍ جديدٍ لا كلمات فيه بل رسومًا لأنصاف بشرٍ عراة، أنصاف سفليَّةٍ فحسب. ثمَّ

سمعت صوت ريتشارد بنبره المتبختر بين التهديد والفخر عن حيازته مجموعةً كاملةً من تلك الرسوم، رسومٍ لأنصاف سفليَّةٍ عارية. ثمَّ كما لو أنَّني استفسرت إن كنت عاريةً في كتابه الجديد، أو كما لو أنَّني سألت إن كنت المقصودة بكلامه عن الكتاب الجديد. أحسست الريشة تتنزَّه على رموشي، وما إن رمشتُ حتَّى أدركت من دون كلماتٍ بلى إنَّني أنا المقصودة. لكنِّي عرفت أنَّني لست وحدي في قصد ريتشارد، بل معي كلُّ ناسي وأهلي، فقد رنَّت جملةٌ وحيدةٌ بصوته واضحًا: «لقد كانت عمليَّة ذبحٍ ممتازة».

جفلت من نومي بعينيَّ تهلعان وقلبي يتكسَّر بنبضه. كان ضوء فجر تريسته شحيحًا، وإذ لمعت مسبحتي اللؤلؤيَّة على الطاولة الصَّغيرة، لم أمدَّ يدي إليها. نهرتني كلماتٌ قويَّةٌ عن الدنس والخطيئة والمعاصي والشياطين. وضعت يديَّ على عينيَّ لأمحو المنام. ثمَّ نهضت من سريري الضيِّق، افترشت الأرض الباردة، أردت لبرد تريسته كلِّه أن يتسلَّل إلى عظامي. أردتُ لتلك البلاطات الثلجيَّة أن تبتلعني، فأصير ميتةً في تراب الأرض الأجنبيَّة ونائمةً في تراب الشام نومةً أبديَّة.

***

«لا تدع شيئًا يزعجك. لا تدع شيئًا يخيفك»، كنت أقول في قلبي وأنا أفتح باب قاعة المكاتب الأحد عشر للمرَّة ما قبل الأخيرة. أدخل لأرى ريتشارد بورتون واقفًا أمام المكتب الثامن، ماسكًا بيده القصص الأربع الأخيرة التي وضعتُ فيها أبيات الشعر عمدًا. يلمع حجر خاتمه الكحليّ بإصبعه الثالثة، تتعمَّق ندوب وجنتيْه بأشدّ قسوة، كما لو أنَّ الرمح اخترقهما توًّا. شرايين رقبته تتضخَّم وتنفر. وعيناه تتَّسعان بالغضب. ثمَّ تنقضان عليَّ كسيفٍ حادّ: «كم أنت شقيَّة... خادمةٌ سوريَّةٌ بائسةٌ وضيعة، ماذا تظنين نفسك أيَّتها البلهاء؟ ماذا فعلتِ أيَّتها الحقيرة؟» وبصوتٍ عميق العربيَّة خرجَت من فمه أقذع العبارات وأشدُّها فحشًا، كأنَّ قاموسًا من الشتائم البذيئة انفتح مرَّة. الشتائم تنهال عليَّ والقنصل يتفرَّج على وقعها كمن يتفرَّج بلذَّةٍ على المذبحة.

لا أذكر ما كان الأسوأ في كلامه، الشتائم العربيَّة البذيئة أم الجمل الإنكليزيَّة المؤذية التي راح يشحذ نصلها بالاحتقار والازدراء. أقال شيئًا عن أمِّي والمذبحة؟ لا أتذكَّر ولا أريد. صرت أنكمش وأنكمش، وتطفر الدموع من عيني، أبكي وصوتٌ في داخلي يقول إنَّني على وشك النجاة من هذه الحياة الأجنبيَّة. فلتكن تلك الكلمات ضربة سيفٍ مكسورٍ مُهان، طعنة سكِّينٍ مرتدَّةٍ إلى قلب حاملها. أسمع كلام ريتشارد متنقِّلًا

من الإنكليزيَّة إلى العربيَّة. تعلو النبرة وتشتدُّ وتهوي فوقي كصفعاتٍ متلاحقة. رفعت بصري لثانيةٍ باتِّجاهه، كنت مرعوبةً من فكرةٍ خطفتني بأن يمسك فجأةً خنجرًا أو أيَّ سلاحٍ من الأسلحة المتناثرة، أخفضت عيني، وانتظرت، لكنَّه لم يفعل.

لم يكن القنصل البريطانيُّ محتاجًا أن يفعل، نبرته الغاضبة وكلماته باللُّغتيْن فعلت كالسلاح وأكثر. وفعلت أمرًا آخر لم أدركه حينها، بل أدركه الآن وأنا في الشام. إذ شفَّت النبرة المؤذية عن حسرةٍ قديمةٍ لم تمحها السنون البتَّة. نبرة القنصل الذي صفعته الشام وبدَّلت حياته ورمته في تريسته الساكنة. لن يعود القنصل إلى حياته الشاميَّة، وسيبقى معلَّقًا رغمًا عنه بحياته الأجنبيَّة في تريسته مدينة الرياح الثلاث.

كلَّما رنَّت في ذهني نبرته المشتعلة والمتحسِّرة تلك، اختلطت الأمور في رأسي، واضطربتُ متذكِّرةً الجملة التي استرقت النظر إليها فوق المكتب السادس وحفظتها عن ظهر قلب: «عليَّ الآن أن أرجع، كي أكمل مسيرتي المهنيَّة الشرقيَّة، من أجل إظهار طيبة القلب السوريّ، أكثر من أيِّ منفعةٍ أخرى. أنا مصمِّمٌ، ولو متأخِّرًا، كي أشهد لهم بذلك».

البخور أنا أشعلته، والمسبحة اللؤلؤيَّة أنا أمسكتها، والمذبحة أنا كتبتها. رفعت عينيَّ لأرى حنًّا واقفًا بباب غرفة الظلال مستفسرًا بعينيْه عن البخور يعطِّر الكلمات. «يعني رح خلص الكتاب». قلت. اقترب حنًّا من الطاولة الخشبيَّة، وقبل أن يمدَّ يده نحو الأوراق، وضعت راحتي، فما ظهرت إلَّا جملة «كمن يتفرَّج بلذَّةٍ على المذبحة». تكلَّم حنًّا بالمحكيَّة، لكنَّني سمعت كلماته بإنكليزيَّةٍ منبورة: «استعملتِ لفظ المذبحة، وهذا أمرٌ حسن». رقَّ النبر، تماوج واختفى ثمَّ طلع من اللهجة الشاميَّة

المموسقة: «ممتاز، فكَّرتِ بالعنوان؟» أنا لقيت العنوان، أنا بحس وبعرف كيف بيفكروا الإنكليز «ما صار في الشام حين غاب عنها السلام». ونظر شبه مستفسرٍ بعينيْن رماديَّتيْن. «أنا فكَّرت بعنوان»، لم أنه جملتي لأنَّ حنَّا لم ينتظر ولم يسمع «الشام في تمُّوزها الأزرق» ولا «الشام في تمُّوزها اللَّاهب» بقيت العناوين في طريقها للتكوُّن في ذهني من دون أن تخرج من فمي، ثمَّ أردَتها جملة حنَّا الباترة: «ولو؟ كتبتِ كلَّ الكتاب قمُّور. أنا بس رح حطّ العنوان، شو ما بيطلعلي أنا الترجمان؟». واقتربت أصابع يمناه الثلاث إلى بعضها، ارتفع حاجباه، ولاحت نظرة زعلٍ شبه مهدِّد. فصمتُّ ولم أقل شيئًا. بلى أردت القول إنَّ عنوانه المقترح يشبه عناوين كلِّ تلك الكتب شبه السرِّيَّة التي روت عن المذبحة، لكنِّي لم أفعل. كنت أسمع صوت حنَّا شبه مسرورٍ كأنَّه يكافئ نفسه، قال شيئًا عن طبع الكتاب في مطبعةٍ تستعمل الحروف الإنكليزيَّة، قال شيئًا عن عدد النسخ، وقال شيئًا عن الكنيسة. كنت أسمع صوته من دون أن أستمع إليه. ولا أرى عينيْه، بل أرى ما فيهما من خيال. عينان خضراوان تلمعان، تضعان العنوان، تذهبان إلى المطبعة، تقفان في فناء الكنيسة، وتبتسمان.

✹ ✹ ✹

أمسكت صندوق الأوراق حين كنت وحدي في غرفتي الصَّغيرة في المساء الأخير في تريسته. فتحته ورأيت فيه قصص باب توما العربيَّة المفكَّكة وقائمة التَّعليمات الإنكليزيَّة. ما كان من دواةٍ ولا ريشاتٍ للكتابة، وما وجدت القصص التي أعدت كتابتها، وما وجدت عبارةً تصف الأمر. سمعت صوت نبضات قلبي وما عرفت إن كانت تنبض زعلانةً على ما فقدتُ أم متحمِّسةً لفجر الرابع من ديسمبر، إذ سيمتلك تفتُّح النهار بهدوءٍ وصمت، ليودِّعني في السفينة البخاريَّة المسافرة صوب بيروت.

نظرت حولي ورأيت أمتعتي المحزومة، ما كان فيها إلَّا الثياب الشاميَّة والإنكليزيَّة. أغمضتُ عينيَّ وأحسست ذهني مليئًا بالكلمات؛ كلماتٍ قرأتها، كلماتٍ حفظتها، كلماتٍ سمعتها، كلماتٍ تعلَّمتها، كلماتٍ دوَّنتها، وكلماتٍ مكتوبةٍ في ذهني تنتظر منِّي أن أحرِّرها.

بعينيْن مغمضتيْن نظرت إلى ما أحبُّ في تريسته؛ القاعة الكبيرة ومكاتبها الأحد عشرة والكتب الوفيرة، وتلك الأوراق والريشات والحبر. بعينيْن مغمضتيْن فكَّرت بصندوق ريتشارد المعدنيِّ الضخم، المخصَّص للكتب، المدهون بمربَّعاتٍ سوداء بيضاء متناوبة، مركونًا في غرفةٍ صغيرةٍ أسميتها غرفة السفر. رأيت ما تذكَّرت؛ القنصل البريطانيَّ

يصعد الدرج الرخاميّ، يدخل القاعة الكبيرة، يحمل كدساتٍ من الكتب، ينزل الدرج الرخاميَّ يتّجه إلى غرفة السفر، يروح يلقم الصندوق كدسةً كدسةً من كتبٍ بكلِّ اللُّغات واللهجات، وكلُّه حماسةٌ من أجل الكتابة والسفر. مزاجه أصفى من ماء جدولٍ عذب، ممتلئًا غبطةً بالسفر إلى نفسه في الكتب والأمكنة، وتعليقاته لاذعةٌ مرحة. أكاد أسمع صوته ينبر بالإنكليزيَّة: «قمُّور، المزيد من الورق». أناول القنصل المسافر رزمةً كبيرةً من الأوراق البيضاء، يلقم الصندوق المتخم بها والسعادة تغطِّيه من رأسه إلى قدميْه: «هذه حقيبتي المفضَّلة، هذه حقيبتي الوحيدة». يغلق الصندوق الأبيض والأسود بيديْن قويَّتيْن، ثمَّ يغمزني ويقول: «أسميتها الشطرنج الثرثار».

فجر تريسته الشتائيُّ معتم، أزرقه مظلم، بطيء الاستيقاظ. أراقب طبقات الفجر تتفتَّح للمرَّة الأخيرة في السماء الداكنة، وأُكثِر من طبقات الثياب الإنكليزيَّة لأكون واحدةً من الجموع. أفتح باب غرفتي الصَّغيرة، لأجد الطباخ ريكاردو متثاقل العينيْن، يبدأ بحمل صناديقي التسعة. باب القصر مفتوحٌ والعربة تنتظرني. كما لو أنَّها شبح، ظهرت إيزابيل لتخبرني عن العربة. كم تكلَّمت ببطء، لكنَّها لم تكن تنظرني. تتفرَّج عيناها على طيفٍ شفَّ منهما لسفينةٍ بخاريَّةٍ متَّجهةٍ إلى الشام. عينان متحسِّرتان وفمٌ تامُّ الإطباق، بيد أنِّي سمعتُ في ذهني جملتها الحزينة التي قالتها في بيت الصالحيَّة منذ ثلاث سنواتٍ وثلاثة شهور، في شهر آب البعيد ذاك : «آه شوتني الشام».

أنا في العربة، أتفرَّج للمرَّة الأخيرة على المناظر الأجنبيَّة؛ طرقاتٌ مرتَّبة، أبنيةٌ منحوتة، وطبيعةٌ خلَّابة، وزمهريرٌ تقوِّيه رياحٌ ثلاث. المحطَّة الضخمة والأصوات العالية والجموع. في حقيبتي الصَّغيرة الأوراق

المناسبة، لأكون مسافرةً بين الجموع المسافرة. وفي رأسي كلُّ الكلمات الملائمة، أقرأ اسم الشركة Lloyd Austriaco، أقرأ اسم السفينة البخاريَّة المتَّجهة إلى بيروت Aurora، وأقرأ محطَّات السفر Trieste - Gravosa - Alexandrien - Syrian ports -، أتبع الإرشادات المتناثرة في مرمى عيون الجموع. ثمَّ أجلس على مقعدٍ جانبيّ، بيدي مسبحتي اللؤلؤيَّة، أتفرَّج على من في الجموع يحملون الرسائل، يقفون بشبه انتظامٍ أمام كوَّاتٍ زجاجيَّة، يُسفِّرون كلماتهم وأخبارهم وشؤونهم، أبتسم لنفسي، إذ خطر في بالي أن أسألهم إن كانوا مثلي أنا يصاحبون شيطان الكلمات.

أنتظر تلك اللَّحظة بعيْنها، لحظة اتِّجاه الجموع صوب درج السَّفينة البخاريَّة، لحظة انتظامهم في الاتِّجاهات صوب الطوابق المناسبة والغرف الملائمة لثمن بطاقة السفر. أكون في غرفةٍ كبيرةٍ ذات مقاعد مصفوفةٍ ولها أرقام. أجلس وأكون واحدةً من الجموع، أنتظر لحظة علوِّ صوت المعدن وعلوِّ التنبيهات. أغمض عيني وأرمي بنفسي في السفر.

تحرَّكت المدينة المعدنيَّة وتهادت فوق الماء الأزرق، لم تنم في اللَّيل ولم تستيقظ في النهار. أخذت قيلولتها في المرفأين Gravosa و Alexandrien، وأنزلت من الجموع من أنهى السفر، وأصعدت من صار على سفر. أنزلت الرَّسائل وأصعدت الرَّسائل، أو أنَّني تخيَّلت الرسائل تترتَّب واقفةً في صفٍّ طويلٍ لتُمهر بالأختام للذهاب والإيَّاب.

أنا من جموع الإيَّاب، رسالةٌ من رسائل المحطَّة الأخيرة، أترقَّب الوصول وتترقَّبني الأسئلة الكثيرة، تنتظرني أن أصل. أفتح حقيبتي الصَّغيرة، أفتح ورقةً مطويَّة، أمسِك ريشةً لا دواة لها، وأتصوَّر أجوبةً أكتبها ردًّا على الأسئلة المترقِبة التي تنتظرني. أتصوَّر نفسي أشطب

جوابًا غير مرئيٍّ على الورق الصقيل، وأتخيَّل شيطان الكلمات ينقِّح أجوبتي، يبتكر لها مسارب منطقيَّةً وألفاظًا مناسبةً ونبرةً متحفِّظة. أجوبةٌ تمنع تلاحق الأسئلة وتبتر الكلام الفضوليّ. أجوبةٌ تتمنَّى لو أنَّ الأسئلة تتعلَّم التهذيب.

الجموع قبل الوصول تصل بعيونها، تصير تصعد إلى سطح السَّفينة لتترقَّب الأرض البعيدة تسير نحو جموع الوصول ببطء. وأنا واحدةٌ من الجموع، أترقَّب أن يطلَّ مرفأ بيروت بسرعة، وأن ينتظرني أمام درج السفينة شال حريرٍ يطوي طريق السفر بلمحةٍ من بيروت إلى الشام.

أفكِّر برائحتها. أركِّز تفكيري كثيرًا في ذلك. إنَّ قوَّةً حتَّى لو قاهرةً لا تستطيع منعي من الاسترسال. فصولها الأربعة تبدأ على مهل، وعلى شيءٍ من التردُّد، كمسافرٍ يهمُّ بالوصول ويقيم في خطوة الإيَّاب الأخيرة. كذلك فصول دمشق، رائحة آب مشبعةٌ بسلال القشِّ تحت قيظ الحرِّ المسافر عمَّا قليل، ممتزجةٌ على الدوام بالخصب الطالع من حبَّات الفستق الحلبيّ، مسفوحةً جذلى في السلال. وعمَّا قليل، أيَّامٌ لا أكثر، سيهفُّ هواء البرتقال معلنًا الخريف عبر مطرٍ خفيف. ندى سماويًّا يغلِّف المدينة. ما يكفي منه ليصير التراب عطرًا فوَّاحًا في النواحي والأرجاء. برد الشتاء رائحة قطعة بوظ مقيمةٌ تحت أسنانٍ لا تجرشها، فلا تنفرط ولا تذوب، بل تقيم هكذا لتذكِّر غير العارف أنَّ الوصف الجغرافيَّ القديم للمكان فائق الدقَّة: واحةٌ في الصحراء، وهذا البرد الذي لا يتزحزح دليلٌ وبرهان. أمَّا الربيع، فمتعجِّلٌ دائمًا، ما تلبث البراعم أن تتشقَّق حتَّى تنفجر زهورًا قصيرة العمر. ثمَّ ذاك الوقت، وقت العصر العبِق.

رطوبةٌ وسخونةٌ تتزاوجان عطرًا لا كلمات تصفه، ولا أسًا ممكنًا للقبض على تلك الرائحة كي تُعبَّأ في قوارير، أريجًا شاميًّا يبدِّل المزاج فيعكِّره أو يطيِّره مع حماماتٍ تحوم أسرابًا في السماء، وعصافير دوريٍّ ثرثارةٍ غير مكترثة. أريجٌ يتحكَّم بالمزاج، هذا ديدنه، يتردَّد لثانيةٍ قبل أن يصبح متوتِّرًا ساخنًا لاهبًا وأطول في كلِّ مرَّة، شأنه شأن الصيف الشاميّ. لكأنَّ المدينة خطفتها الشمس وسجنتها في عينها. عين الشمس بركانيَّةٌ برتقاليَّةٌ، عمَّا قليل يخفُّ وهجها درجةً أو درجتيْن إذ شربت كأس العصير البيتيِّ دفعةً واحدة، وراحت تلهث، تستكين وتنسحب ببطءٍ مع الغروب المتمهِّل بألوانه من البرتقاليِّ الوهَّاج إلى الورديِّ الأخضر وصولاً إلى الرماديِّ ثمَّ الكحليِّ فالداكن اللَّيليّ، تضيئه نجومٌ متفرِّقةٌ كالياسمينات في بحرها الزمرديّ. تلمع صفحة النهر ويتقلَّب في سرير مدينته، يتلوَّى ويتفرَّع جداول وسواقي، يتمدَّد في الطوالع والنوازل والأقنية القديمة، يخرج من نافورات البحرات في تلك البيوت بزواياها المنحنية رقَّةً تشفُّ عن الراحات التي ملَّسَت طينها، وأخفت خلف هشاشته جنَّاتٍ صغيرة، يحوطها سورٌ حجريٌّ قديم، تزنِّره حتَّى الأفق واحات فواكه وأطياب. ولو أنَّ السفينة البخاريَّة تعلو، وتبدِّل درجها المعدنيَّ بشال حريرٍ يرفعك تحت الغيوم قليلًا، لنظرتَ بعين طائرٍ شكل الشام: حبَّة ملبَّسٍ بيضاء مستلقيةٌ على سريرٍ واسعٍ أخضر.

أرى أبي شبه منكمشٍ وقد أضعفته السنون، شبه مبتسم وقد رآني شبه إنكليزيَّة، بقبعةٍ تشبه هامات الطير وحقيبةٍ صغيرةٍ وقفَّازيْن غامقيْن وشبه معطفٍ على الكتفيْن، وحولي صناديقي التسعة. كلماتٌ قليلةٌ متناثرةٌ وعيونٌ مندهشة، أنا وأبي. أسئلةٌ مبلوعةٌ وأجوبةٌ مقتضبةٌ

وكثيرٌ من الصمت. وأنا أنتظر تلك اللَّحظة بعيْنها، لحظة أكون على البغل، والطريق يقصر ويقصر بين بيروت والشام. وهادٌ ووديان، وجبالٌ لا تسدُّ الأفق. لكنِّي رأيت أفقًا مسدودًا في ذهني، نسيته ما إن رأيت من الانفراجة العالية حبَّة الملبَّس مستلقيةً في غوطتها. حدَّقت في منظرها وظننت أنَّ البغل توقَّف لأجل أن أرى. ثمَّ جاء صوت أبي شبه منبور، فرأيت نفسي أنزل من البغل، أشيل القبَّعة والقفَّازات، وأتناول من أحد صناديقي غطاءً يلفُّني من رأسي إلى قدميَّ.

***

في غرفة الظلال رسمت إشارة الصليب. أغمضت عينيَّ، فتحتهما، تناولت الريشة، غمستها في الدواة.

وضعتني أمِّي لصق البحرة أنا وسلحفاتي الصَّغيرة، غطَّستها في الماء كي تخرج من جسمها الصَّلب وتبترد قليلًا، لكنَّها لم تخرج، ربَّما لأنَّ أثر الشمس الحادَّ لم يخبُ إلَّا قليلًا. وضعتها على الرخامة الواطئة أسفل البحرة، وسمعت صوت أمِّي ناعمًا ثمَّ صار يعلو بالخوف. كانت واقفةً أمام أبي بيديْه الرقيقتيْن. عيناه تحاولان بثَّ اطمئنانٍ مشتهى. لمحتني أمِّي أنظرها وأبي، فحدَّقت بي. تركت كلام أبي معلَّقًا في فناء أرض الديار وتقدَّمت صوبي كملكةٍ متواضعة. حفيف ثوبها الأزرق ما زلت أسمعه، رائحة شعرها الأسود ما زلت أشمُّها. عيناها الواسعتان ما زلتُ في مرماهما. كأنَّها ضمَّتني، كأنَّها حملتني. رأيت قرطها اللؤلؤيّ، ومددت يدي لألمسه. صرت في الغرفة لصق الإيوان وحدي حيث أجلستني، ثمَّ خرجت وأغلقت الباب.

سمعت صوت أمِّي تحادث أبي من دون أن أفهم كلمات نبرها الدافئ، ثمَّ سمعت صوت أقدامٍ سريعة، كأنَّها ترتِّب البيت أو ترتِّب أهل البيت. كأنَّ الباب صُفق، واختفت الأصوات. ثمَّ سمعت صوت أمِّي

مجدَّدًا تقول كلمةً نبرها يرنُّ بالسُّؤال. ثمَّ خبطةً قويَّة، خبطةً أقوى، وقبل الخبطة الثالثة صرت عند النافذة.

رفعت جسدي لأنظر وأشاهد، فرأيت أمِّي مرميَّةً على الرخام، ونهرٌ أحمر يسيل بين خصلات شعرها الطويل المسفوح. رأيت شابًّا بشعًا، قرفص أمامها. وضع يده على رأسها المشروخ، ثمَّ وضع البلطة ذات المسامير على الرخام. وبيده الثانية أمسك سكِّينًا وراح يشطِّب وجه أمِّي الجميل.

كنت أصرخ وأصرخ، وما عرفت إن سمعت صوت بابٍ يُصفق بقوَّة، وإن سمعت صوت ركضٍ على الرخام. من حملني من الغرفة لصق الإيوان إلى غرفة جدَّتي هيلانة القريبة من الدرج؟ من وضع يديْه على عينيَّ وهو يحملني في أرض الديار؟ كنت أبعِدُ اليديْن الدافئتيْن بقوَّةٍ عن عينيَّ، وكانت اليدان تشدَّان عليهما أكثر.

لم يخبرني عمِّي سمير يومًا بما جرى. لكنَّ جدَّتي هيلانة، كانت كلَّما رأيت الدموع في عينيْها، تطلب منِّي أن أجلس قربها لتحكي لي قصَّة.

«كان يا ما كان بقديم الزمان، كان في بطل زغير ساكن بالشام. وكان يروح دايمًا يمشي بعد السور، عند الشجرات، شجر عنب، شجر مشمش، وشجر تفاح. وفي يوم وهو ماشي بين الشجر، شاف شي عم يلمع متل الفضَّة. قرّب قرّب هيك وشاف نهر الفضَّة السحريّ. مدَّ إيديْه التنتيْن بقلب النهر، وبس رفعهون صاروا إيديه سحريات. إزا حط إيديْه على التراب الناشف بيصير التراب مبلول، إزا حط إيديْه على الجرح بيطيب الجرح وهيك. ومرّة كان ماشي جنب النهر السِّحريّ وشاف

من بعيد على الطرف التاني بنت زغيرة شعرها طويل طويل بيوصل للأرض، وكانت البنت قاعدة بحضن غزالة حلوة كتير كتير. هي البنت اسمها بنت الغزال. قرّب البطل الزغير قرّب كتير كتير بس ما قدر يروح عندها لأنو في نهر الفضّة السّحريّ. مدّ إيديْه على شجرة التفّاح، وكان فيها تفّاحة حمرا طيبة كتير. بس مسك التفّاحة بإيديْه السحريّات اختفت التفَاحة وصارت جنب الغزالة وبنتها. انبسطت الغزالة وهزّت بقرونها لتقول شكرًا للبطل الزغير. وهيك كلّ اليوم يروح عند نهر الفضّة ويمسك مرّة تفّاح مرّة عنب مشمش، يختفوا من إيديْه السحريّات ويصيروا عند الغزالة وبنتها.

وبيوم من الأيّام، إجا الغول الكبير هدم السور وسرق نهر الفضّة. وصاروا الناس خايفين كتير صاروا بدهون يهربوا من الغول وما يعرفوا كيف. وكان البطل الزغير عم يقلهون لا تخافوا أنا بعرف طريق الشجر وبعرف كلّ الشجرات. وصاروا الناس يلحقوه وهو بإيديْه السحريّات يخبيهون بالشجر. هيك خبا كلّ الناس من الغول. بقيت الغزالة وبنتها بس. صار البطل الزغير يركض يدور عليهون، بس ما عرف محلهون. قام حط إيديْه السحريّات هيك وصار يصلّي ليسوع. وبس فتح عيونو شاف الغزالة وبنتها عم يركضو خايفين والغول راكض وراهون، قام صار يركض يركض وسبق الغول وحط إيديْه السحريّات على قرون الغزالة قام صارو قرونها كبار كبار كتير كبار. ولما هيك صار بطلت الغزالة تخاف ووقفت مشان تحمي بنتها. لما شاف الغول قرون الغزالة كبار كتير كتير، مدّ إيديْه ووقف بدو يمسكها من قرونها، قام البطل الزغير حطّ إيديْه السحريّات على رجلين الغول، قام صاروا زغار زغار زغار كتير. قام وقع الغول ومات».

وما كانت قصَّة جدَّتي تنتهي عند موت الغول مرَّة، كانت هيلانة تزيد بعد نهاية القصَّة في كلِّ مرةٍ تفصيلًا عن يدي البطل السحريَّتيْن، تُخبر مرَّةً أنَّه وضعهما على حجرٍ صغير، فارتفع السور ثانية. ومرَّةً تُخبر أنَّه وضعهما على نقطة ماءٍ فنبع نهر الفضَّة ثانية، ومرَّةً تقول إنَّه وضع يديْه على نقطة زيتٍ فظهرت مريم العذراء وحمت الناس الخائفين. تزيد تفصيلًا وترجع القصَّة إلى الوراء قليلًا. تفصيل مزيد ترتد القصَّة نحو بدايتها، تفصيل مزيد ثانٍ وتتوقَّف القصَّة إلى ما قبل «وبيوم من الأيَّام». كأنَّها بالزيادة تمحو تاريخ يومٍ محدَّد، يومٍ عرفته وشهدته.

***

في التاسع من تمُّوز تمام الثانية بعد الظهر، وراء سورٍ حجريٍّ قديم، كانت الأشجار التي لا يحصرها عدٌّ تتفرَّج رغمًا عنها. فالشجر ينظر بأوراقه، يتحدَّث بجذوره، ويشمُّ بأطرافه متناهية الصغر. قالت الأشجار إنَّها انتحبت لمَّا شهدت ناس باب توما يُذبَحون، وإنَّها أرادت اقتلاع نفسها من تراب الغوطة لئلَّا ترى حيَّ باب توما وقد عُلِّق على خشبة. فصارت تهتزُّ وتهتزُّ مثل عاصفة. تمنَّت لو أنَّها تستطيع مثل البشر أن تدير ظهرها لتحمي عيونها من النظر، لكنَّ الشجرة مثل حبَّة الملبَّس، ظهرها مثل وجهها واحد. قالت إنَّها كانت تنحني بأغصانها فتبصر على أرضها حبَّات المشمش ممعوسة، قالت إنَّها شهدت كيف انتحرت كلُّ حبَّات الفاكهة. قالت إنَّها انتحبت كثيرًا وصرخت ولم يسمع أحدٌ صوتها. قالت إنَّها رأت البيوت تنخسف بيتًا بيتًا، رأت الكنائس تقع كنيسةً كنيسة، فصارت أغصانها تؤلمها وتوجعها. تمنَّت الأشجار لو أنَّها عميت لعلَّها تنجو من مشهد النار تلسع الحيَّ وتعذِّبه وتحرقه. قالت إنَّها ما احتملت منظر الشام؛ مدينةٌ تنام في سرير نهرها، ترفع إحدى ذراعيْها عاليًا فتصير خنجرًا، ترفع أكثر فتصير سكِّينًا، ثمَّ سيفًا فرمحًا، وبكلِّ قوَّتها تهوي بالرمح أوَّلًا، تهوي أكثر فتصير ذراعها سيفًا، أكثر فتصير سكينًا، ثمَّ خنجرًا، وبكلِّ قوَّةٍ تذبَح به قلبها.

قالت الأشجار إنَّها صلَّت كثيرًا لئلَّا تبقى سجينة النظر والفرجة. قالت إنَّها رأت كلَّ شيء؛ كلَّ تفصيلٍ صغير. عرفَت أسماء كلِّ من ذُبِحوا وحفظتها. ثمَّ تضرَّعت وتضرَّعت لأن يرسل لها الربُّ يديْن قويَّتيْن، تدخلهما في عمق التراب الممزوج بالدماء، تدخلهما أكثر تحت حيِّ باب توما وترفعه كلَّه بناسه وبيوته وكنائسه لينجو من المذبحة.

تخيَّلَت الأشجارُ أنَّ أغصانها امتدَّت وامتدَّت أكثر، فوصلت السور الحجريّ، وغطَّت بكلِّ ما فيها من زهورٍ الحيَّ الصَّغير المعلَّق على خشبة. تخيَّلت أكثر فصارت ترى الزهور زهرةً زهرةً تنام فوق جروح الناس جرحًا جرحًا، فتلتئم الجروح ويعود الناس من ذبحهم سالمين. ثمَّ تنبت لهم أجنحةٌ كالفراشات، فيطيرون صوب السماء. ومن السماء تنزل لتلاقيهم الكلمات: «ثمَّ رأيتُ سماءً جديدةً وأرضًا جديدةً لأنَّ السماء الأولى والأرض الأولى مضتا».

بشرٌ بأجنحة فراشاتٍ يطيرون بين الكلمات: «وسيمسح اللّـه كلَّ دمعةٍ من عيونهم والموت لا يكون فيما بعد ولا يكون حزنٌ ولا صراخٌ ولا وجعٌ فيما بعد لأنَّ الأمور الأولى قد مضت».

بشرٌ بأجنحة فراشاتٍ ينظرون إلى الشام وإلى زاويتها الشرقيَّة لصق سورها الحجريِّ من باب كيسان إلى باب شرقيّ فباب توما: «وأبوابها لن تغلق نهارًا لأنَّ ليلًا لا يكون هناك».

دمشق 1901


زينة

رفعت رأسي بقوَّةٍ كي أتخلَّص من خصلات الشعر التي تغمر وجهي، ورأيت انعكاس صورتي في زجاج البوتيك اللندنيّ، الشعر والجاكيت والشال كلُّها صارت مسرحًا واقعيًّا لفعل الطقس اللندنيّ. شيءٌ غريب؛ لا هو نسيمٌ ولا هواء، ولا ريحٌ ولا عاصفة، بل خلطةٌ إنكليزيَّةٌ للتخريب والبعثرة، مثل هذا البريكسِت الذي ترُّن أصداؤه في لندن الهائلة، في جرائد لا يحصرها عدّ، ملقاةٍ في الدكاكين لصق الميترو في السلل المعدنيَّة في محطَّاته المتشعِّبة المتلوِّية كمرجانٍ ينمو ضدَّ أيٍّ تشذيب.

بطاقةٌ ممغنطةٌ للدخول في الزحمة. البوابة الواطئة تنفتح لمدَّةٍ محدَّدة، لكنَّ الناس هنا يتدافعون، إذ هم مستعجلون على الدوام، وهذه العجلة معديةٌ حقًّا، فأستعجل معهم رغم وفرة الوقت أمامي. في محطَّة الذهاب زحمة، في الميترو زحمة، في محطَّة الخروج زحمة، وفي الرصيف أمامها كذلك. ناسٌ بعدد الرمل مستعجلون، يحثُّون الخُطى في لندن الراكضة تسابق زمنها وتسيطر بنظامها الصامت على الناس. تخفُّ زحمة الناس قليلًا إذ يتفرَّقون كلٌّ إلى وجهته. أنعطف شمالًا، ثمَّ شمالًا ثانية، فأرى الطلَّاب معلَّقين على درج الجامعة وفي الباحة ما بين مبنييْن من مبانيها. للدخول أيضًا بطاقةٌ ممغنطة. تسألني الموظَّفة عن موعدي وتدلُّني على مكتب أستاذي الذي أعرف موقعه.

على الرغم من أنَّ النهار في منتصفه تقريبًا إلَّا إنَّ الإضاءة الاصطناعيَّة شبه واجبةٍ في ردهات المبنى المعتمة. أقرع الباب بيدي وأدخل لأجد أوين مورغان الأستاذ الجامعيّ، مبتسمًا وحيويًّا كعادته. بسيط التصرُّف عفويٌّ وتلقائيّ، فهو ليس إنكليزيًّا بل أميركيّ، مختصٌّ بتاريخ العرب الحديث، وخصوصًا بالدِّراسات العثمانيَّة، وكتابه الأخير عن انهيار الإمبراطوريَّة العثمانيَّة بلغ حدًّا من المبيعات قلَّما تحظى الدراسات الجدِّيَّة به. الكتاب العلميُّ، مثل الأستاذ، كريمٌ بالمعرفة ورشيقُ الأسلوب. تحيةٌ مقتضبةٌ ويدخل فورًا في المفيد.

يشير بإصبعه إلى كتابٍ بغلافٍ أزرق أمامه، ويقول: «المشكلة في الفهرسة، مشكلةٌ حقيقيَّة. مصادفةً وجدت هذا الكتاب المثير للاهتمام حقًّا. أنا لا أهاجم أمناء المكتبة البتَّة. مهنةٌ ذات خصوصيَّة. المهمُّ أنَّ المرء لا يستطيع إيجاد الكتاب عن طريق العنوان أو اسم الكاتب أو حتَّى فهرسةٍ معقولة. لا أهاجمُ أمناء المكتبة، نظرًا إلى لطافتهم. أن يتاح لك التسكُّع في المخزن غير المفتوح للطلَّاب هبةٌ يجب تقديرها، وقد تركتني أمينة المكتبة أتفتَّل ما بين الرفوف، فوجدت هذا الكتاب».

رفعتُ رأسي لأرى الكتاب بصورةٍ أفضل، وكدتُ أمدُّ يدي، لكنَّني أحجمت حينما سمعتُ الأستاذ يقول: «لا، انتظري، سوف تفسدين المتعة» أغمضت عينيَّ مبتسمة، ووضعت راحتيَّ عليهما بسرعة، وقلت مسرورة: «آسفة». عقد الأستاذ ذراعيْه وتابع: «قرأت الكتاب بتمعُّن، وسأكتب مقالًا عنه لدوريَّة الدِّراسات الشرق أوسطيَّة. ثمَّة جانبٌ في كتب تلك المرحلة، أعني من ناحية النشر، كيف كان محدودًا ودونه صعوبات، ومع ذلك كان العالم العربيُّ يوحي من مدوَّناتٍ عديدةٍ بانتشار العلم وبدء الكتابات الجدِّيَّة. لا يشذُّ الكتاب تمامًا عن

هذه القاعدة. فمن كَتَبه واجه صعوباتٍ في النشر على ما أظنّ، أو، على الأقل، كان انتشار الكتاب محدودًا جدًّا». بهدوءٍ فتح الأستاذ الكتاب وتناول منه بطاقةً بلونٍ أزرق، لم يقرأ ما فيها، أمسكها وقال: «لن أفسد عليك متعة الاكتشاف الخاصَّة بهذا الكتاب الغريب. سأقول لك أمرًا وحيدًا، ثمَّة وصفٌ على نحوٍ غير متوقَّعٍ لبلاطات القيشانيّ الدمشقيَّة. حين قرأت ذلك، فكَّرت بأنَّ الكتاب سيهمُّ زينة من دون شكّ. أنا شبه متأكِّدٍ أنَّه سيكون مفيدًا لك، وأقترح أن تُترجميه إلى العربيَّة، فمن كتبه عربيّ. الكتاب باللُّغة الإنكليزيَّة، وهذا أمرٌ نادرٌ في ذلك الزمان».

كنت أمسك الكتاب بغلافه الأزرق بيدي، حين رافقني الأستاذ إلى باب مكتبه، متمنِّيًا لي قراءةً ممتعة. خرجت من مبنى الجامعة الكبير، ورحت أفكِّر إن كان ثمَّة حديقةٌ قريبةٌ أستطيع الجلوس فيها لأقرأ، لكنِّي تذكَّرت انعكاس صورتي في واجهة البوتيك اللندنيّ حيث كدت أطير، فأحجمت فورًا عن الفكرة، واستسلمت لزحمة محطَّة الميترو، ثمَّ زحمة الميترو، وصولًا إلى زحمة الناس على الطرقات، وصبرت لمدَّة ساعةٍ ونصف قبل أن أصل همرسميث حيث أقطن.

دخلت غرفتي ذات النوافذ الكبيرة، حضَّرت شايًا غامقًا، فتحت النافذتيْن، وتمدَّدتُ على الصوفا. تناولت الكتاب الأزرق، وقرأتُ على غلافه: «ما جرى في دمشق حين فُقد السلام. قرين ترجمان القنصليَّة البريطانيَّة سابقًا، هانَّا الميسك. البطريركيَّة الكاثوليكيَّة، دمشق».

رحت أقلِّب الكتاب وأختار صفحاتٍ لا على التعيِّين، فوجدت الأسلوب ثقيلًا ومفكَّكًا، لكن مليئًا بالمعلومات المتناثرة والمبعثرة، كنت أقلِّب الصفحات بحثًا عن وصف بلاطات القيشانيّ التي بحجَّتها

قدِمت إلى لندن. لم أجِد ما أردت، فرحتُ أقرأ على نحوٍ عشوائيّ. رنَّت شبه خيبة أملٍ في رأسي. لم أنسجم، إذ لم أكن قادرةً تمامًا على معرفة جنس الكاتب، ولا جنس الكتاب. يبدو أنَّ المرء بحاجة لمعرفة هذيْن الأمريْن ليدوزن دماغه على موجةٍ مخصوصة، فيرتاح في الرواية، ويستفزَّ حواسَّه في الشعر، ويتعلَّم الدقَّة في كتب التاريخ والجغرافيا واللُّغات. فكَّرت وأنا أقلِّب الصفحات بضجر، كيف أنَّ تحديد جنس الكاتب في الأدب يشكِّل إلى حدٍّ ما عتبة أولى للقراءة، الأمر الذي يبدو نافلًا في الكتب البحثيَّة، حيث تغيب الـ «أنا» عن قصد، قصدٍ منهجيّ،، وتُترَك لقوَّة التركيب وصلابة الحجج وصواب الاستنتاج رسم معالم شخصيَّة الباحثة أو الباحث. ثمَّة استثناءاتٌ بالطبع، إلَّا إنَّها غير وفيرة. صفنت لأحصر في ذهني أسماء باحثين ذوي بصماتٍ أسلوبيَّةٍ خاصَّة، ثمَّ نهرت نفسي على تعرُّج أفكاري نحو أمورٍ غير وثيقة الصلة لا بدراستي ولا بقراءة هذا الكتاب.

سحبت البطاقة الزرقاء من صفحات الكتاب وقرأت فيها بالإنكليزيَّة:

يتشرَّف ترجمان القنصليَّة البريطانيَّة سابقًا

هانًا الميسك

بدعوتكم لإطلاق كتاب

ما جرى في دمشق حين فُقد السلام

ما صار في الشام حين غاب عنها السلام

في باحة البطريركيَّة الكاثوليكيَّة

مساء السبت 1901-7-12

تأمَّلت البطاقة الزرقاء المتقشِّفة، وأعجبني تكرار العنوان، مرَّةً بالإنكليزيَّة، وثانيةً بخطٍّ أصغر بالعربيَّة لكن بحروفٍ إنكليزيَّة. ابتسمت متذكِّرةً حديث أستاذي عن متعةٍ تنتظرني وظننتها في مفارقة دعوة إطلاق الكتاب في كنيسة. أغلقت الكتاب لئلَّا تهرب المتعة التي بدت لي خفيفة التأثير، ركنته على الطاولة، حيث كتبي وأوراقي ورسومي غير المُتقنة. نظرت إلى علبتَي الألوان: واحدةٌ بكلِّ تدرُّجات اللَّون الأزرق، وأخرى بكلِّ تدرُّجات اللَّون الأخضر، وقرَّرت أن أنقل رسوم بلاطات القيشانيِّ من شاشة الكومبيوتر إلى دفتر الرسم.

***



أرسم كي أغيب عن التَّفكير، كي أنسى، وكي أتخيَّل ما لن يحدث إلَّا في أحلام يقظتي التي صارت مع الوقت أدنى إلى أوهام غرائبيَّةٍ كأن أنجح في إنشاء مدوَّنةٍ تامَّةٍ وفائقة الدقَّة لبلاطات القيشانيِّ الدمشقيَّة، وأن تصير يدي سحريَّة، تحفظ وحدها الأشكال المكرَّرة وغير المكرَّرة في البلاطات. كأنَّ ليدي ذاكرة سيرفر ضخم وأضخم من مختبر غوغل اللغويّ. كأنَّها سليلة زواجٍ ناجحٍ بين الموهبة والذكاء الاصطناعيّ، فلا أفكِّر في رسم بلاطةٍ إلَّا وتكون يدي السحريَّة قد أنجزتها ببراعة لا تستثني العفويَّة في العمل اليدويّ. أتوه أكثر وراء أوهامي وأروح أقلِّب كتب بلاطات القيشانيّ، وأجهد نفسي بأفكارٍ لا طائل منها، عن الذي ابتكر للمرَّة الأولى هذه الرَّسمة أو تلك، وكيف تمَّ له ذلك؟ وأتخيَّله صبورًا جدًّا تجاه كلِّ مراحل صنعته، يختار من الطين أخفَّ ذرَّاته وأرقَّها، ثمَّ يعجنها ويملِّسها لتصير صقيلةً جدًّا. تتعرَّج أفكاري في متاهة أوهامي الخاصَّة، فأرى النجاح في إنشاء المدونة التامَّة حاملًا لمعنى وحيدٍ مشتهى: محو السنوات القريبة الماضية، وفرصةٌ أكيدةٌ للبدء من جديد. تتضاءل سوريَّة وتصير محضَ مدوَّنةٍ لبلاطات القيشانيّ، وأكبر أنا لأصير الفاعلة الرَّئيسة في المدوَّنة المتخيَّلة، ويكبر العمل عليها أكثر وأكثر، فأتوهَّمه عملًا مهمًّا لا نافلًا كما هو في الواقع.

يتوقَّف تفكيري كلَّما وجدت صورة العمل اليدويِّ في شاشة الكومبيوتر متقنةً لأسأل السُّؤال الغريب نفسه: «كيف فعل الخزَّاف هذا من دون كومبيوتر؟». أغمس ريشة الرَّسم في السائل الأخضر لألوِّن جزءًا من الرسمة أمامي. أحرص على ثبات يدي وأدوزن شدَّة الضغط. وحين يلوح لي أنَّني على وشكِ اقتراف الخطأ، أتوقَّف تمامًا. أركن ريشة الرَّسم، وأمسك قلمًا رصاصيًّا لأخطَّ بضرباتٍ سريعةٍ على دفتر التَّدريب الصَّغير خطوطًا متوازيةً مائلةً من اليمين إلى اليسار أوَّلًا، ثمَّ فوقها خطوطًا أخرى مائلةً من اليسار إلى اليمين. حين أنتهي أرجع رأسي إلى الوراء وأدرِّب عينيَّ على النفور من كلِّ خطٍّ لا يوازي إخوته، ثمَّ أضع المسطرة على الخطوط وبقلمٍ أحمر أصلح أخطاء يدي.

منذ وصلت لندن وأنا أتجنَّب التَّفكير بماضيَّ القريب، كيف بضربةٍ واحدةٍ انتقلتُ من الشام إلى لندن، وبضربتيْن سحبتني المدينة الميَّالة للخروج من أوروبا إلى إيقاعها السَّريع وكنوزها الوفيرة من كلِّ نوعٍ ولون. سريعًا يعتاد المرء إيقاع لندن الأشبه بدوَّامةٍ منتظمة الدوران، وسريعًا أيضًا يصير متعجِّلًا في مشيه، لا يتأنَّى إلَّا في حدائقها الكثيرة.

في البداية كنت شبه تائهةٍ بضخامتها وتشابه أحيائها السكنيَّة، ولو لم أكن معماريَّةً لضيَّعتني لندن وعذَّبتني في حفظ سماتها التي تشي على الدوام برسوخ الإمبراطوريَّة ونظامها السلطويِّ البادي من كلِّ تفاصيلها. كنت أقرأ المدينة الثريَّة في كلِّ خطوة؛ في تلك البلاطات الحمراء المسماريَّة المخصَّصة للمشاة، في انخفاضها لإفساح مجالٍ سهلٍ لانزلاق عربات الأطفال وكراسي الكبار الكهربائيَّة. في الارتفاع المدروس لأرصفتها الواسعة، في دقَّة انغراز القوائم المعدنيَّة لمحطَّة الباص. في قوَّة حديد أقواس محطَّات الميترو القديمة، ورحابة تلك

المحطَّات في استقبال الكاميرات والشاشات ولوحات الإعلان الحديثة لتبدو كأنَّها أصيلةٌ في المشهد الإمبراطوريّ.

المقارنة بين الشام ولندن من ناحية التنظيم المدينيّ صارت هوايتي المفضَّلة. أقرأ المدينة من هندسة طرقاتها الذكيَّة كيف تذوِّب الطرق الدائريَّة لتصير جادَّاتٍ ضخمةً لا تفصل لندن عن ضواحيها المتحلِّقة حولها من دون فراغات، المتفطِّنة دومًا للمشاة توفِّر لهم الأرصفة المريحة. ففي حال كنت مشَّاءً تستطيع ببساطةٍ السَّير عليها من منتصف المدينة حتَّى المنطقة الرابعة المتحلِّقة كالسوار حول لندن الإمبراطوريَّة. كأنَّ من خطَّطَ التنظيم حرص بشدَّةٍ على راحة المشاة، لهم اليد الطولى شرط أن يقرأوا العلامات المروريَّة ويحترموا حيِّزهم الواسع حقًّا.

تتلاصق غالبيَّة البيوت ويبقى كلُّ واحدٍ منها مستقلًّا ومزنَّرًا بحديقتيْن أماميَّةٍ وخلفيَّة. يهوى اللندنيُّون البستنة، لكنَّ النباتات هنا تعتمد كثيرًا على الطقس الخصب، وتنمو بترتيبٍ موحيةً ألَّا نباتاتٍ ضارَّة تُعكِّر المنظر المصفَّف بعناية. وبلديَّة لندن الثريَّة لا تبخل البتَّة ترمي هنا وهناك سلالًا معدنيَّةً مليئةً بالزهور الملوَّنة، وتكرِّس جيشًا من السيَّارات المخصوصة كلَّ خريفٍ لكنس أوراقه والاستفادة منها، التي لو تُركت لسدَّت الدروب. أنظر إلى المدينة كمن ينظر إلى معادلة رياضيَّاتٍ مقروءةٍ وحلُّها واضح. واستمرأت الأمر، فصرتُ أبدي الملاحظات وأبتكرُ في رأسي ترتيبًا أكثر أناقةً لحاويات القمامة الموجودة في حدائق البيوت الأماميَّة، ثمَّ أكشُّ بآلةٍ مخصوصةٍ رائحة الحشيش الفوَّاحة في بعض الأحياء، وأمام بعض محطَّات الباص، خصوصًا في الأحياء الفقيرة، حيث تصير الزحمة أيضًا علامةً لا على الاستعجال صوب قلبها الماليِّ المتخم بالمصارف، بل على الفقر.

أتأمَّل الحديد المثبَّت في كلِّ مكان؛ حديدٌ للإشارات الضوئيَّة، للعلامات المروريَّة، لاتِّجاهات الشوارع عند تقاطعٍ يقلِّد المتاهات، للإنارات، لركن الدرَّاجات الهوائيَّة منها والناريَّة، وحديدٌ آخر ممَّا أجهل كنهه. لكنَّه كلَّه يشي بأناقة من ثبَّته في الأرض ودقَّة قياسه والأهمُّ حرصه ألَّا يزعج المشاة، بل يخدمهم. ثمَّ أتأمَّل انسياب الطرقات، كيف تتقاطع في الأحياء وتتشابك، وكيف تنفرج كما يجب عند النواصي والساحات. واستمرأت الأمر، فصرت أصحو مبكِّرًا، ليتسنَّى لي اختيار الباص لا الميترو في طريقي إلى الجامعة. أجلس في مقدِّمة طابقه العلويِّ لأمتلك مشهد المدينة من علٍ وأنظرها نظرة طائر. أصير أُبعِد جسور الطرق السريعة، ومباني التخزين الضخمة، وتلك الزجاجيَّة المفتقرة لأيِّ ابتكار، ثمَّ أخفيها، وأتأمَّل مساحة الفراغ الذي تخيَّلته، وأُجهِد نفسي في القياس ثمَّ أهزُّ رأسي: حسنًا من المُمكن نقل أحد أحياء الشام إلى هنا، والاستفادة من المنظر الأخضر القريب. تفرط الخطَّة حين أرى أثرًا لبناءٍ لندنيٍّ قديم، فأختار حيًّا شاميًّا أصغر من الأوَّل، وأعيد الترتيب.

رنَّ هاتفي المحمول وأنا في الباص سارحةٌ بأفكاري «البنَّاءة». نظرت في شاشته ورأيت اسم صديقتي مايا على الواتساب، قلت لها إنَّني مشتاقةٌ جدًّا، وأصل الجامعة عمَّا قليل ووعدتها باتِّصالٍ مسائيٍّ طويلٍ وكثيرٍ من الصور. كلَّما لمحت اسم مايا على هاتفي المحمول رأيتها ممتلئةً حماسةً وفرحًا تقفز سعيدةً لحصولي على منحة بحثٍ في مدرسة بارتليت للعمارة بـ UCL لموضوعي عن بلاطات القيشانيّ. تنتظر مايا التي تصغرني بعامٍ واحدٍ دورها في منحةٍ مشابهة. اختارت موضوعها من روح العمارة الحديثة، لم تتلكَّأ مثلي أمام الماضي ولم تنحرف نحو جرفٍ شبه هامشيّ، تختلط فيه العمارة بالكيمياء والتاريخ.

ما زلت أتذكَّر حماستها في طريقنا إلى دمشق القديمة. تطلب من التاكسي التوقُّف في ساحة السبع بحرات لننزل، ثمَّ تصير تدلُّني على أبنية الأرت ديكو Art Deco في ذلك الحيِّ العريق. سيكون تنظيمه مشروعها لسنة التخرُّج من كلِّيَّة العمارة في دمشق. نمشي تحت شمس تمُّوز اللَّاهبة، وتعجبني مقدرتها على الشرح والتَّحليل، فأقول لها تقريبًا في كلِّ مرَّة: «لازم الواحد يرفع راسو لفوق ليقدر يشوف، مو معقول التشويه وأوف هالعجقة والوسخ». تجيب وهي تضحك: «هلق هيك؟ امشي امشي لنشوف الشانزيليزيه تبعك، قصدي الحميديّة».

وعدتُ مايا بإرسال صورٍ لأبنية الـ Art Deco اللندنيَّة رغم قلَّتها في المدينة المبتهجة بالطراز الفيكتوريِّ وأبَّهة الإمبراطوريَّة. لا أترك كاميرا المحمول في الباص أبدًا وأنا في طابقه الثاني، أتصيَّد تلك المباني وأرسل صورها إلى مايا في الشام، وأعود لاحقًا إلى التي أثارت اهتمامها من أجل مزيدٍ من الصور. وحين أرجع مساءً أنتظر ساعةً أو أكثر ثمَّ أتَّصل بها ونتبادل الأفكار «البنَّاءة»، قبل أن يتعرَّج حديثنا نحو أمورٍ أكثر حميميَّةً وبالطبع أكثر حزنًا. من حسن الحظِّ أنَّ مايا خفيفة الظلِّ، مزوحة، وإيجابيَّةٌ رغم كلِّ شيء. و«كلِّ شيء» هذا هو ما لا نريد التطرُّق إليه، لكنَّه يأتي من كلِّ التفاصيل الصَّغيرة، من انقطاع الكهرباء، وصعوبة الحصول على السلع، واختفاء الأصدقاء، وسفر الكثير منهم. نتجنَّب الحديث عن أسباب تلك التَّفاصيل، ثمَّ نشتمُ جموعًا غير مسمَّاة: «يقصف عمرهم». وقبل أن نستمرئ الشتيمة، نعود صوب الـ Art Deco والقيشانيّ، نثرثر كثيرًا قبل أن ترمي مايا قنابلها ضاحكة: «بكرا أنا وأنت إذا تزوَّجنا وسألونا ولادنا شو درستوا؟ رح نجاوب عمارة، وولادنا يضحكوا إيه ما شا اللَّـه لهلق ناطرينكون مشان إعادة الإعمار».

***

كنتُ أنتظر مرور الوقت لتصير الساعة اللندنيَّة السادسة مناسبةً للساعة الشاميَّة الثامنة، كي أتَّصل بمايا. تناولتُ الكتاب الأزرق وبدأتُ أقرأ. بعد صفحاتٍ قليلةٍ اكتشفت أنَّ الكاتب كاتبة، فأغلقت الكتاب وسرحت قليلًا مع أفكاري عن التأنيث والتذكير بين العربيَّة والإنكليزيَّة، تشعَّبت الأفكار إلى حدٍّ غير معقول، فأعدت القراءة من الأوَّل لأتملَّى صوت الكاتبة التي قرَّرت إنَّها روائيَّةٌ لا شكّ، ثمَّ استغربت اختيار أستاذي أستاذ التاريخ العربيِّ الحديث لروايةٍ كتبتها امرأةٌ في القرن التاسع عشر، فيها معلوماتٌ عن بلاط القيشانيِّ كما قال. تذكَّرت صوته الذي لقط استعجالي: «سوف تفسدين المتعة». أمسكت البطاقة الزرقاء وأعدت قراءتها، نظرت في الغلاف وقرأتُ تحت العنوان الإنكليزيّ: «قرين ترجمان القنصليَّة البريطانيَّة سابقًا». للوهلة الأولى ظننتها «هانًا». وهلةٌ لا أكثر وانبعثت العربيَّة من الحروف الإنكليزيَّة بلمسةٍ واحدةٍ من هانًا إلى حنًّا، ومن القرين إلى القرينة، ومن المؤنَّث إلى المذكَّر. ما اسم قرينة الترجمان حنًّا؟ ابتسمتُ حين قرَّرت أن أصير مثل محقِّقٍ إنكليزيٍّ في بلاد أجاثًا كريستي وجاك السفَّاح.

كلَّما امتدَّت القراءة، ارتفع صوتي مُبديًا ملاحظاتٍ لا حصر لها تطول الجمل وسياقاتها، واستعمال المفردات بصورةٍ غريبة، وتلك

التراكيب المطوّلة. احتجت زمنًا غير قصيرٍ لأدرك أنَّ ما أقرأ ليس روايةً تمامًا، فقد تكشّفَ تاريخٌ أجهله تحت سردٍ لا وصف له.

لا بدَّ أنَّني سرحت كثيرًا في أجواء قمُّور وريتشارد وإيزابيل، فقد انتبهت إلى مكالمةٍ غير مستلمةٍ من مايا. طويت زاوية الصفحة التي أقرؤها، وأغلقت الكتاب واتَّصلت بالشام. كان صوت مايا متعبًا لا نعسانًا كما خُيِّل لي. تحدَّثت عن قذائف هاون تمطر بعض أحياء الشام، وعن استمرار الناس في حياةٍ يتوهَّمون أنَّها عاديَّةٌ رغم كلِّ شيء. جاء الـ «كلُّ شيء» من صوت التلفاز الشاميِّ إلى غرفتي اللندنيَّة الصامتة، حين سألتها قالت إنَّ أهلها متسمِّرون كما العادة أمام شاشته. بين حينٍ وآخر كنت أسمع صوت أبيها وأخيها باسم. لا ريب إنَّها تعليقاتٌ موجَّهةٌ لأحد مذيعي الجزيرة أو العربيَّة، بطريقتهم المخصوصة شبه المسرحيَّة في قراءة الأخبار. نبراتٌ مستنكرةٌ وفي أحايين كثيرةٍ مناكفةٌ ومغيظة. لحسن الحظِّ ابتعدت مايا عن الصوت المقيت، فجاء صوتها صافيًا. خبَّرتني أنَّها أنهت التَّحضير للتقدُّم إلى المنحة الإنكليزيَّة للبحث في أساليب العمارة التي تَمتح من العوامل المحلِّيَّة الـ vernacular وفي إعادة تدوير مُخلَّفات الهدم. قالت إنَّ حظَّها في الحصول على المنحة لبحثٍ مماثلٍ أوفر بما لا يُقاس من التنزُّه في خمسينيَّات الشام وأربعينيَّاتها والـ Art deco. أردت أن أقاطعها وأقول إنَّها على وشكِ التخلِّي عن شغفها بالعمل على حيِّ السبع بحرات وشارع 29 أيار وشارع العابد، لكنَّها سبقتني إلى القول «بدِّي إطلع من هون ما بقا فيِّي إتحمَّل، ما في مستقبل هون. دراسة العمارة هبل ببلدنا». صمتُّ لئلَّا تستمرَّ صوب مطرحٍ في حديثنا لا أفق له، خلا النكد والتذمُّر. مازحتها: «إيه منيح بكرا ولادنا بيقولوا دراسة العمارة ببلدنا هبل». لم أترك لها

فرصةً للتَّعليق، تابعت كلامي: «صار يوميْن ما اتَّصل فيِّي مروان. آخر مرَّة اتخانقنا، وشكلو زعل». لكنّي لم أسترسل لأنَّني أعرف أنَّ مروان مثل مايا يريد الخروج من البلد بأيِّ طريقة، ولا تعجبه أفكاري. لعلَّها لم تعجبه منذ البداية، حين انغمست في دراسة بلاطات القيشانيّ، وحصلت على المنحة. اقترحَ ألَّا أُحدِّد مصيري ببلاطاتٍ قديمة، وأن أحاول فتح باب البحث نحو شيءٍ مختلف، يؤهِّلني لإيجاد عملٍ في مكتبٍ أو شركة للعمارة في لندن. لا أتذكَّر كلامه بدقَّة، بل رسم كلماته، فرأيتُ نفسي أقترن به شرط بقائي في لندن وحصولي على عمل، وحين رسمت بدوري كلماتٍ عن عودتي إلى الشام وإنشاء مشروع للبلاطات، تراجع الارتباط المقترح خطوتيْن إلى الوراء، وظهر مروان شبه ساخط، وكان نصيبي من الأمر شعورًا بالذنب لم يكن عابرًا بل متجذِّرًا كما أدركت في لندن.

أعرف مروان منذ ما يقرب السنتيْن، التقيتُ به خلال انضمامي إلى حملة تبرُّعٍ للمحتاجين الكثر في الشام. كان مسؤولًا عن توزيع السلل الغذائيَّة في مدرسةٍ في حيٍّ برزة، وكنتُ أساعد في تسجيل الأسماء وكتابة جداول بالحاجات الصحِّيَّة الكثيرة. بعد انتهاء العمل، اجتمعنا مع الآخرين لتحديد الخطوة التالية، لأنَّ الإنجاز الذي قمنا به توًّا، بدا هزيلًا إلى حدٍّ غير معقول. تشعَّب النقاش وراح كلُّ واحدٍ من المجموعة، يريد فرض رأيه بطريقةٍ ما، لكنَّ الصديق الذي يُنسِّق الأمر صاحب البال الطويل، قال إنَّه سيتَّصل بمن يرغب منَّا لتحديد موعد المرَّة القادمة، وأضاف إنَّ الصُّورة أكبر بكثيرٍ ممَّا رأينا، والإمكانات محدودة، وعملنا رغم أهمِّيَّته وضرورته القصوى يُشبه ملء البحر. لكنَّ الأمر الجوهريَّ هو استمراره حتَّى ولو لم يكن تحسينه أو تطويره متاحين.

سجَّلنا أسماءنا، وحين خرجتُ من بوَّابة المدرسة، رافقني مروان وعرض أن نسير معًا بما أنَّ وجهتيْنا متقاربتان.

يكبرني مروان بستٍّ سنوات، ويعمل في إحدى شركتي الاتِّصالات الشهيرة التي تحتكر القطاع برمَّته. كان يفوقني بالتفاؤل، إذ أوحى لي إنَّه بالرغم من كلِّ شيء ستنتهي هذه الأيَّام القاتمة. شكَّكت في كلامه دائمًا لأنَّ صورة الناس في الشام وفي تلك المدرسة طبعت روحي بالأسى، وكلام مسؤول التَّنظيم بيَّن لي ألَّا أفقًا قريبًا في متناول اليد. كما لو أنَّني انكفأت رويدًا رويدًا، رحتُ أغوص في دراستي وأتجنَّب أيَّ حديثٍ يفضي إلى ما يجري في البلد، وكانت تعليقات مروان في البداية مناسبةً لمزاجي المنكفئ عن الواقع وملائمةً لتفاؤله الأوَّليّ. راح التفاؤل ينقضم يومًا بعد يوم، وما كنَّا أنا وهو مهتمَّين فقد كنَّا عاشقيْن صغيريْن نشبه كثيرًا صورتنا الفيسبوكيَّة.

كنَّا في حديقة السبكي، وكان مروان في الصُّورة ورائي، رافعًا أحد حاجبيْه بطريقةٍ مقصودة، كنتُ ممتلئةً غبطةً بوجوده قربي، وبدا الأمر واضحًا جدًّا من تعبير وجهي، كنت التي يبدو عليها الحبّ. حين أفتح اليوم الصورة في هاتفي المحمول، أجد مسافةً كبيرةً بين ما كنَّا وما صرنا عليه. وسَّعت لندن المسافة، ثمَّ صارت تزيدها كلَّ يوم، وتقضم قطعةً صغيرةً من صورتنا أنا ومروان معًا. ومكان القطعة المقضومة، وجد الشعور بالذنب مكانًا له، فارتاح.

قرَّرت الاتِّصال بمروان، لكنَّ الساعة اللندنيَّة الواحدة بعد منتصف اللَّيل لا تناسب الثالثة الشاميَّة المتأهِّبة لفجرٍ آخر حزين. حين فكَّرت بالأمر أدركتُ أنَّ لندن قضمت قطعةً جديدةً منَّا أنا ومروان، فلو

كنَّا مثل صورتنا الفيسبوكيَّة لما نظرت إلى الساعة أصلًا ولما انتظرت لا أنا ولا هو كلَّ هذا الوقت ليرتاح الزعل في ظروف المسافة وظروف البلد السابح في دمائه.

حين ركنتُ هاتفي المحمول على المنضدة الصَّغيرة قرب السرير، أغلقت الباب الجالب للزعل. وحين فتحت كتاب قمُّور، فتحت بابًا لزعلٍ مختلف، زعلٍ قديمٍ لا يخصُّني مباشرة، لكنَّ التأمُّل فيه يعطيني أفضليَّة التخفُّف من ثياب ضحيَّة اليوم، ويخفِّف وطأة الشعور بالذنب التي أظنُّها جزءًا منِّي، فأنا أستمرئ لوم نفسي بلا انقطاع، ومن دون قصدٍ يظهر ذلك في تعليقاتي المقتضبة التي تبدأ دومًا بـ أعتذر، لم أقصد، أنا آسفة.

في لندن اختلف أمري مع نفسي، حين لاحظ أستاذي تعليقاتي المقتضبة تلك تتكرَّر بمناسبةٍ أو من دونها؛ كأن أعتذر عن لفظٍ غير صحيح، عن مرجعٍ مهمٍّ وأساسيٍّ استعملته كما لو كان نافلًا، عن ضعف حجَّةٍ علميَّةٍ تهاوت من تساؤلٍ مفحم، عن ارتفاع صوتي حماسةً أكثر ممَّا يخيَّل إليَّ أنَّه مسموح، عن مقاطعتي لحديث زميلي اليابانيِّ اللَّئيم الهادئ الذي لم يفوِّت الفرصة فعلَّق بعربيَّةٍ شبه صافيةٍ أنَّ الشرق الذي أتيتُ منه ليس الشرق حقًّا. تدخَّل الأستاذ فورًا وبكلِّ ظرفٍ قال إنَّني قادمةٌ من قلب العالم، من المنتصف، حيث الحدود تتحرَّك على مرِّ السنين، وامتزاج الناس والحضارات يشعل حماسةً محبَّبةً مختلفةً عن أيِّ مكانٍ آخر. توقَّف ولم يُبدِ رأيًا بالأرخبيل البعيد المحصَّن بالمحيطات. ثمَّ انبرى للیابانيِّ قائلًا أتعرف معنى كلمة وجدان؟ أتجد لها بسهولةٍ معادلًا بالإنكليزيَّة أو اليابانيَّة؟ صفن الشاب اليابانيُّ فائق الأناقة، لم يقل شيئًا، وقبل أن يتنهد، سارع الأميركيُّ المرح لإضافة تساؤلٍ آخر عن الخزف

الصينيّ وعلاقته بالخزف اليابانيّ. رمى السُّؤال كصيَّادٍ ماهرٍ يعرف ما تحبُّ سمكات البحر، أثنى قليلًا على جواب اليابانيِّ المتحصِّن بمعرفةٍ دقيقةٍ وشبه متباهيةٍ لأنواع الطين في اليابان، قبل أن يضيف: «والطين في الشرق الذي أتت منه زينة، تحديدًا في دمشق، لا يخطئ به خبير».
حين كنت أستمع إلى المحادثة بينهما، لاح اعتذاري سخيفًا فعلًا، منبتًا وغير ذي صلة، كدتُ أوشك على الاعتذار عن اعتذاري، فلجمت نفسي متوجِّسةً من الشعور بالذنب الذي طالما كبَّلني. انصرف اليابانيُّ وبقيت مع الأستاذ الأميركيِّ الذي قال لي بالحرف: «لا أريد أن أبدو هجوميًّا. ملاحظةٌ صغيرةٌ فحسب. اقتحمي وتحلّي بقليلٍ من الجرأة، وبحقِّ يسوع المسيح كفّي عن الاعتذار». ابتسمت وكدتُ أعتذر، وأنقذتني قمُّور، فقلت: «أستمتع بقراءة الكتاب. أشياء كثيرةٌ لم أكن أعرفها عن الأمر».
ـ «أيُّ أمر؟». أجبت: «ما جرى في دمشق عام 1860». ابتسم، وقال إنَّه سيرسل لي عبر الإيميل قائمةً بكتبٍ مفيدةٍ عن مذبحة 1860، وأضاف: «تنتظرك متعٌ ومفاجآتٌ كثيرة، بدأت تشغفين بالبحث في التاريخ وهذا أمرٌ حسن».

***

كلمة المعرفة هي الكلمة، هكذا قلت لنفسي وأنا أخترع المعنى في جملة الإنجيل الأولى «في البدء كان الكلمة». أغوص في الكلمات وأتعلَّم، ثمَّ أنتبه إلى أنَّني قد لا أجد من أشاركه بما يشغفني. أفكِّر بمروان وما سيكون رأيه لو علم أنَّني أقرأ الإنجيل. هل سيرى معرفةً في الكتاب المقدَّس أم انحرافًا مزعجًا يصير بسهولةٍ مناسبًا لخفَّة إعجاب أمِّه بي؟ ارتبك مرَّةً وهو يحدِّثني بعد جملةٍ غزليَّة، أنَّ أمَّه رأت صورتنا الفيسبوكيَّة وسألت: «مين هي؟». انشغل مروان بإخباري عن أثر الأمر فيه، وفي خضمِّ انشغاله بشعوره وجوابه، لم ينتبه لضعف فضول والدته الذي حدستُ به حين سألته: «إيه وشو قالت بعدين؟»، فلم يجد جوابًا، وطفق يكرِّر أنَّ أمَّه تعرفه جيِّدًا ولا ريب أنَّها انتبهت لشعوره وحبِّه. ابتسم مروان لطيف أمِّه الذي اقتحم خلوتنا، وابتسمت على مضضٍ حين رنَّ في خاطري سؤال: «شعورك وحبّك لمين؟». لم أقل شيئًا لأنَّ شعوري بالذنب تسرَّب كالماء الذي لا يتبع إلَّا النقطة الضعيفة في المواسير. لعلِّي لم أعجبها، لعلَّها تجد علاقتنا مثل قذيفة الهاون، تضرب لا على التعيِّين، ولو لم تُصب الهدف، إذ هي محض أذى.

جاء صوت مايا ملعلعًا من الشام، لم أفهم ما كانت تقول وطلبت منها أن تُعيد جملتها، إذ كنتُ قد غفوت قليلًا، وبيدي كتاب المذبحة،

وبين جفوني آثار حلمٍ ثقيل. تقول مايا إنَّها نجحت في إغاظة غريمتها التي أسمتها «مصمِّمة الغلاظة»، وأنا أنتشل نفسي من الصوت الذي جاءني في الحلم «لقد كانت عمليَّة ذبحٍ ممتازة». تقول مايا إنَّ مصمِّمة الغلاظة اكتشفت اكتشافًا مبهرًا بأنَّ نزار حبيب مايا يحبُّ مايا، وأنا ما زلت أستطعم الحلم حيث كنت أضع راحتي على خصري لئلَّا تنزلق الضمَّادات التي كنت ألفُّ وسطي بها. تكرِّر مايا الجمل وهي تضحك، وأنا أستعيد معرفة الحلم العفويَّة تعلن أنَّني كنت حاملًا وأوشك على خسارة جنيني. أغمض عينيَّ بقوَّةٍ لأطرد الحلم الغامض، أنتشل نفسي منه وأنا أتناول كأس الشاي البارد، أتجرَّعه دفعةً واحدة، ثمَّ أقوم من مكاني، أنير الغرفة التي دخل اللَّيل اللندنيُّ إليها، أتَّجه إلى المطبخ الصَّغير المصمَّم كما لو لإحدى الدُّمى، أميل بخدِّي على هاتفي المحمول وأنا أتناول الولَّاعة لأشعل سيجارتي. أنفُث الدُّخان في مدينة الضباب، لأبدِّد رائحة الحلم الثقيل، وأستنفر حواسي كلَّها لسماع أخبار الشام.

لم تكن الأخبار تتنوَّع وقلَّما تغيَّرت درجةً أو درجتيْن وفقًا لنشرة الأخبار وما تعكسه من حياة الناس اليوميَّة: القصف، القتل، التَّهديم، التَّهجير، تنعكس كلُّها على حياة الناس عند كلِّ دقيقةٍ تمرّ، فتنكمش مساحتهم الضئيلة أصلًا، وتنكمش معها حياة سوريَّة. تتفتَّت، وتصير إلى حدٍّ كبيرٍ مخالفةً لصورتها في نشرة الأخبار، فما يجري في الغوطة لن يوفِّر الشام، واستعمال لفظ الريف أو المدينة لن يبدِّل شيئًا في علاقة الأواني المستطرقة بين الشام وغوطتها، أو أيِّ مدينةٍ سوريَّةٍ وريفها. يُدرك المعماريُّ وأهل الحرف هذا الأمر وأثره أكثر من غيرهم، فالنسيج الاجتماعيُّ وطرق الناس المبتكرة في إنشاء مساكن عشوائيَّةٍ أم لا، وتدبُّر حيِّز ورشات العمل البسيطة، أساسيَّةٌ في عين المعماريِّ لا

نافلةً كما يتخيَّل كثيرون. الجغرافيُّون أيضًا يفهمون الأمور بطريقةٍ واقعيَّة، فخروج مخبزٍ آليٍّ عن الخدمة بسبب القصف متعمَّدًا أم لغباء نيرانٍ ذكيَّة، يعني تراجع رتبة المكان من بلدةٍ إلى قريةٍ إلى تجمُّعٍ سكَّانيٍّ يشبه معصرة زيتٍ بدائيَّةٍ مسجونةٍ في الحرمان، تتطلَّع بعيْن الفقير المحتاج إلى معمل زيوتٍ حديث. كأنَّ حياة المكان تعود إلى الوراء بخُطى متسارعةٍ وتسحب معها أسباب حياة الناس سواء نجوا من القصف أم لا.

كنت أسمع كلمات مايا عن أثر القصف الذي نقلته نشرات الأخبار المتواصلة، وأرى الموت والانكماش في «كلِّ شيء». أُزجِّي الوقت بمقارنة ما تعلَّمته في كلِّيَّة هندسة العمارة عن التَّخطيط المدينيِّ والنسيج المدينيِّ وما يفعله القصف فيهما، كما لو أنَّني أذاكر دروسي، فأتوه في أوهامي «البنَّاءة» عن حلٍّ واحتمال عملٍ يعيدان للأمور أمورها. تلك أمورٌ تُقاس بالورقة والقلم والتَّفكير المنطقيِّ العلميّ.

ورقةٌ بيضاء وقلمٌ قويٌّ ومسطرةٌ وسكِّين تقطيعٍ حادَّة، هي عدَّة السحر التي استعملتها في بدايات دراستي لهندسة العمارة. كان يكفي أن ألج ذاك المبنى بطرازه الحديث وتفاصيله التي تتكلَّم لغة العمارة، لأدرك أنَّ هذا المكان ملجأٌ جماليٌّ مفتوحٌ صوب جهة الخلق والابتكار. الخطوة الأصعب كانت في قلب اللُّغة الأمِّ إلى لغة زواج الفكرة الأصيلة بالمرئي والمحسوس. كلُّنا تأتأنا في البداية، لكنَّ التَّدريب المتواصل أدَّى إلى النتيجة المطلوبة، فصار كلُّ واحدٍ منَّا يشرح قصده بالرسم وضربات خطوطٍ سريعة، كما لو أنَّ إبدالًا حصل بين اللسان واليد. تشعَّب إغراء الجمال والمعرفة خلال السنوات الخمس التي أمضيتها في ذلك المكان البهيّ، وزادت جرعة الطموح وفاضت وأوهمتني كما غيري بأنَّنا بالدِّراسة محصَّنون.

الكلِّيَّة محصَّنة، كما لو أنَّ سورًا خفيًّا يحوطها، ويعزلها عن تقهقر الجمال في المدينة، وعن إمكانيَّة السماح أو القبول بأيِّ عملٍ مفيدٍ أو بسيطٍ يوقف تسارع المدينة إلى حتف القبح الرابض في الأرجاء. أنظر في الجملة الأخيرة التي دوَّنتها وأسخر من نفسي كيف أبتكر لغةً مراوغةً لئلَّا أرى ما يحدث لا في الشام فحسب بل في بلدي كلِّه.

يبدو كلام مايا كنشرةٍ إخباريَّةٍ مبتورةٍ وقليلة المعنى، أسألها بطريقةٍ مواربةٍ عن القصف مثلًا، فتجيب «عادي، متل العادة». أسألها بطريقةٍ مباشرةٍ عن انقطاع الكهرباء، فلا يتبدَّل جوابها ظاهرًا، لكنَّ رنَّته تشي بكلِّ شيء، فأصير متمرِّسةً بالتأويل وبتصوُّر أثر «عادي، متل العادة» على كلِّ ركنٍ مقصوفٍ أو مهدَّمٍ أو مقتول. وأحدس أنَّها تعرف ما أدركه من كلماتها القليلة، فتمازحني كعادتها: «إيه بس العادي تبع الكهربا مو متل العادي تبع المخطوفين، وغير شكل تمامًا عن العادي تبع القابون». ثمَّ تتنهَّد: «إيمتا بدنا نخلص؟ حكيلي حكيلي عن لندن والرفق مين عم تشوفي؟ وين عم تروحي؟».

خرجت من محطَّة ميترو هاي ستريت كنزنغتون وبيدي هاتفي المحمول، نقرت تطبيق الـ city mapper، لأتَّجه صوب 12 Holland Park Road، حيث متحف الرسام الإنكليزيِّ ذي الهوى الإيطاليّ، سير فريدريك لايتون، الذي اقتنى لأجل القاعة العربيَّة ألفَ بلاطةٍ وبلاطة من القيشاني غالبيَّتها من الشام. «التقطت بعض الصور يا مايا، وسأرسلها لك مع روابط لا تُحصى عبر الإيميل، ولا تهتمِّي إن كانت بعض المواقع محجوبة، سأقصُّها وألصقها كما هي على ملفّ وورد، لن يفوتك شيء ولن تحرمي من المعرفة».

أدخل المتحف التحفة، الغارق في جواهره، فأخال نفسي مثل الزوَّار والسيَّاح، تاجر ألماسٍ متقاعدًا يقف أمام الخزائن ويتملَّى المجوهرات. الأمر مقدورٌ عليه في المدخل وغرفة المكتب الجانبيَّة، لكنَّه صعبٌ في البهو ذي الدرج الخشبيِّ واللَّون النيليِّ المتماوج وذاك الطاووس المحنَّط، ويصير أصعب لأنَّ القاعة العربيَّة تجذب الناس وتسحبهم كما لو كانت مركَبةً فضائيَّةً رهيبة.

في تلك القاعة اختلطت مشاعري، حين رأيت بلاطات القيشانيّ فائقة الجمال مرصوفةً على جدرانها العالية، وفي المنتصف بحرةٌ تلامس الأرض تشبه البحرات المغربيَّة لا الشاميَّة، وفي الأعلى قبَّةٌ ذهبيَّةٌ مدوَّخة، لها شبابيك من زجاجٍ ملوَّن، ومن تحتها فسيفساء برَّاقةٌ تزنِّر الجدران. العواميد الرخاميَّة على أطراف القاعة هاربةٌ إمَّا من عند الإغريق أو الرومان، لم أدقِّق كثيرًا في تيجانها، لا لفرط جمال القاعة، بل لأمرٍ آخر، أدركته وأنا أقترب مثل المحقِّق پوارو من رسمات القيشانيّ لأجسَّ درجات أزرقها وأخضرها. أدركت أنَّ كلَّ هذا الجمال مقتلعٌ من مكانه. الأمر لا يتعلَّق فحسب بما فعله ريتشارد فرنسيس بورتون كما تدلُّ رسالته الشهيرة للرسَّام الإنكليزيّ، ولا بما فعله القسُّ وليام رايت أيضًا، فقد ساعدا الرسَّام على «حيازة» تلك البلاطات الاستثنائيَّة من بيوتٍ مهدَّمةٍ وأماكن مقدَّسة، ومن ورشات خزفٍ اكتُشِفَت مصادفةً قرب السور جهة باب شرقيّ، هذه قصَّةٌ تستحقُّ أن تُروى في كتاب. الأمر الذي لخبط مشاعري كان تمامًا في محو أثر فلسفة العمارة العربيَّة وترتيب عتباتها، انتفى المقدَّس من بلاطاتٍ اقتُلِعت من جدران مساجد، حين رُصِفت على هذا النحو لتلاءم جدران قاعةٍ إنكليزيَّةٍ مزهوَّةٍ بالاستحواذ. لم يعرف الخزَّاف الإنكليزيُّ وليام دي مورغان معنى القيشانيِّ الطالع

من بلاطاتٍ تؤلِّف رسمةً لمنبرٍ أو زاويةٍ مقدَّسة، فرصفها لصق بلاطاتٍ من بيتٍ مهدَّم، كان همُّه حشر البلاطات لصق بعضها فوق جدران دقيقة القياس، وترقيع المكسور منها، وتَتبُّع التناظر بينها. عدَّ بلاطات القيشانيِّ بلاطات خزف جميلة الرسم، ففلشها مثل الـ patch work، ومحا دلالتها. بلاطات مسجدٍ لصق بلاطات إيوان بيتٍ مندثرٍ من دون فراغٍ أو إطارٍ حجريٍّ يُعلِّم الناظر فلسفتها في التناوب بين التقشُّف والبهاء وعلاقة ذلك كلِّه بالإيمان وبالحياة. ما كان ثمَّة عتبة ـ ضروريَّةٌ وأساسيَّة ـ لفصل الدِّينيِّ عن الدُّنيويّ، كان دي مورغان مهتمًّا بقوَّة التناظر وسطوته على الناظر، وجمال درجات الأخضر والأزرق فحسب.

أدور في القاعة وأنا أحدِّق في بلاطات القيشاني الشاميَّة، وأقرأ عمران الشام. أرى ما لا يرى السيَّاح والزوَّار؛ أرى بيوت القرن التاسع عشر قبل عام 1860، أرى المقدَّس محرومًا من التأويل والرَّهبة، أرى خزَّافين في ورشاتهم لصق السور يبتكرون ما يلائم الرائج في أيَّامهم، قبل أن يطمرهم زلزال دمشق في القرن الثامن عشر. أحدِّق أكثر فتنهض المدينة من رقع المقتلع منها وهي غافيةٌ تحت سنابك العثمانيِّين.

ثمَّ صرت أسمع صوتها، صوت قمُّور وهي تشير بيدها إلى بلاطاتٍ رصفت عند أسفل أحد جدران القاعة، تقول شيئًا بإنكليزيَّتها المتعثِّرة، فينهض طيف «البطل الزغير» وبيديْه السحريَّتيْن يعيد القيشانيَّ إلى ركام البيت المهدوم. تغمس قمُّور ريشتها في الدواة، وينهض البيت من ركامه. أهزُّ رأسي لطرد أوهامي، ولأقطع تيَّار تغذيته القادم من خيالي ومتاهاته اللَّامعقولة، ثمَّ أعود إلى كلام المسيح: «مَرثا مَرثا، أنتِ تهتمِّين وتضطربين لأجلِ أمورٍ كثيرة، ولكنَّ الحاجة إلى واحد». لكنِّي لا أكفُّ عن الوهم، وأصير ألتهم كتب القائمة التي أرسلها لي أستاذي كتابًا

كتابًا. أتأنَّى عند كلِّ ما يمتُّ للتعويضات بصلة، وأتبع عمران البيوت الجديدة في باب توما بيتًا بيتًا، أعيِّنُها على خرائط قديمةٍ ثمَّ حديثة، أقارن التبديل الحاصل في نسيج الحيِّ المعماريّ، وأرسم خطوطًا للتهديم وأخرى للعمران. أدقِّق في التكاليف كما لو أنَّني المحقِّق پوارو وقد صار محاسبًا ممتازًا. أعدُّ السنين التي استغرقها بناء البيوت، وألاحق تفاصيل هاربةً من التدوين والتوثيق، فالحاجة إلى واحد: أن أجسَّ نبض إعادة الإعمار.

صار متحف الرسَّام لايتون بديلًا من الحدائق اللندنيَّة كلَّما نزل المطر وتعذَّر التسكُّع فوق عشبها الكثيف، وكلَّما تموَّجت داخلي أهواء غريبةٌ تزيد من اضطرابي. كأن أنتبه فجأةً أنَّني في لندن وأروح أستعيد سبب وجودي فيها لأذكِّر نفسي بمن أنا وما أفعل هنا. أذكِّر نفسي فتلوح الشام تحت زفت الطريق، في كتبٍ على رفوفٍ مكتبة، في زهرةٍ ذابلة، في قلم الحبر الذي اقتنيته منذ سنوات، في الصور التي أحفظها في هاتفي المحمول، فأغمض عيني وأقول: «يلا، مشوار». أقف أمام بوابة المتحف الحديديَّة، أدفعها وأدخل المبنى القرميديّ. أنظر ناحية المرأة الإنكليزيَّة التي حفظتني عن ظهر قلب، أحييها، تبتسم، أمدُّ «بطاقة أصدقاء المتحف»، وبسرعةٍ أهرع صوب قاعة القيشانيّ، وما إن تحطَّ عيناي على أخضر القيشاني وأزرقه حتَّى أغيب في أفكاري النافلة، عن تاريخ البلاطات ورسومها والأيدي الصانعة.

***

خرجت من المتحف، مشيت باتِّجاه محطَّة الميترو، وفي رأسي حواسٌّ خزفيَّة. انتبهت لتناثر الغيوم في السماء، فأعدت مظلَّتي إلى الحقيبة، وتابعت السَّير في جادة هاي ستريت كنزنغتون. جذبتني يافطةٌ بيضاء أنيقة: «دار اليابان»، فقلت لنفسي: «يلا، مشوار كمان». مكانٌ ناصع البياض «دار اليابان» تلك، أبيض قويٌّ مثل مغناطيسٍ هائل. دخلت المكان المليء بالناس والأشياء الجميلة. طاولاتٌ منخفضةٌ فوقها خزفيَّاتٌ وخشبيَّات، أدوات زينةٍ وحليّ، وأدوات طعامٍ وسكاكين حادَّة، وكتبٌ ودفاتر وقرطاسيَّةٌ رقيقة، وأشياء مجهولة. تأنَّيت بالتفرُّج على زواج التقليد والحداثة بالطريقة اليابانيَّة. رأيت على الكونتوار الدَّقيق مشاريب مشهِّيات يابانيَّة، فشعرتُ بالعطش. كنتُ متلكِّئة أمام أنواع الشاي الملفوفة بأوراقٍ رقيقةٍ ملوَّنة، حين سمعت اسمي بلكنةٍ أعرفها: «زِيينا»، رفعت رأسي ورأيت عينيْن آسيويَّتيْن. ابتسمت للطالب اليابانيِّ وأنا أجهد في تذكُّر اسمه. لم يدعني أتذكَّر، فقد قال: «تاماكي، اسمي تاماكي إن كنت لا تتذكَّرين. أنا لم أنسَ اسمك. أقترحُ عليك هذا الشاي «هوجيشا»، لا الماتشا فأنت لست سائحة». ثمَّ أردف ضاحكًا: «وتحبِّين الخزف». لا أعرف لم ارتبكت وتلبَّكت إلى حدٍّ غير مناسب،

سمعت صوتي يقول: «شكرًا لكنِّي كنتُ أتفرَّج فحسب. عفوًا، سأتابع جولتي»، ابتسمت ودرت ظهري قبل أن يلمح في عينيَّ تأثيره المفاجئ حقًّا.

كنت قرب إحدى الطاولات المنخفضة أتفرَّج على زبديَّةٍ خشبيَّةٍ فائقة الرقَّة، بل كنتُ أحدِّق فيها، حين في مرمى عينيَّ رأيت راحةً ممدودةً وفيها ورقةٌ مطويَّةٌ على هيئة طير. رفعت رأسي لتصطادني العينان الآسيويَّتان مجدَّدًا: «أوريغامي الكركي، لك زيينا. أرجو أن تقبليه منِّي، أريد أن أعتذر منك فعلًا عن فظاظتي ذاك النهار في الجامعة أمام أوين».

لا أعلم إن كنت قد أمسكت الطير الورقيَّ بيدي، مثلما لا أعلم كيف صرت مع اليابانيِّ في الطابق الثاني من «دار اليابان» في المطعم. كنت أحسُّ بخدرٍ خفيفٍ أحار في سببه: الأجواء اليابانيَّة الدافئة والباردة في آن معًا، العينان الآسيويَّتان، حديث تاماكي المتشعِّب عن الأوريغامي وجدَّته وهيروشيما، تهت بين كلِّ هذي المؤثِّرات الجديدة. كنت أصغي لقصصه التي بدت مثل ثوبٍ فُصِّل خصِّيصًا من أجلي. «جدَّتي ناتسوكو من الهيباكوشا، أي من الناجين من هيروشيما وناغازاكي. تعلَّمت من جدَّتي الأوريغامي. كانت تصنع منه أشياء لا تخطر على بال، سمِّ منها ما شئت: طيور، زهور، فراشات، حيوانات، مكعَّبات، كلُّ شيء. كنت أعرف أنَّها حزينةٌ ومضطربةٌ جدًّا، حين أرى عشرات الأوريغامي على طاولة المطبخ، فأدرك أنَّها أمضت نهارًا سيِّئًا. كانت قليلة الكلام، وغير اجتماعيَّة.. مثلك.. ومثلي، أعني عادةً ما أكون قليل الكلام لكن لا أعلم كيف أنَّني هذا المساء لا أتوقَّف عن الكلام، أرجو ألَّا أكون قد أضجرتك بحديثي. أردت أن أحدِّثك عن هيروشيما

لأنَّك قادمةٌ من بلدٍ هدَّمته الحرب والنزاعات الداخليَّة، ظننت أنَّ ذلك سيدفعك للكلام، لكن لا يبدو أنَّني نجحت بذلك».

ابتلعتُ اللَّقمة اليابانيَّة الأخيرة، وضعت الشوكة والسكِّين فرَنَّ المعدن القويُّ على الخزف الرَّقيق، ثمَّ رفعت بصري، وقلت لتاماكي: «أفضِّل ألَّا أتحدَّث عن سوريَّة. في جميع الأحوال، ليس ثمَّة الكثير للحديث عنه. لكن. هي ليست حربًا تمامًا وليست نزاعاتٍ داخليَّةً تمامًا. الموضوع معقَّدٌ جدًّا. بدأ بطريقةٍ وانتهى ـ إن كان قد انتهى ـ بطرقٍ متشعِّبةٍ وعنيفةٍ جدًّا. لا أعلم كيف أصِف الأمر أو أشرحه أو أختصره. مرَّت سبع سنواتٍ وأكثر، حدثت فيها أشياء كثيرة، تهديمٌ وقصفٌ وذبحٌ وقتل... دوَّامةٌ شيطانيَّة.. إلى الآن لا يوجد رقمٌ موثوقٌ به للضحايا، لكنَّهم كُثر، أكثر بكثيرٍ ممَّا نظنّ. وثمَّة من هرب لينجو، أعني اللَّاجئين. يُمكن عدُّ ملايين منهم، الرقم الرَّسميُّ قرابة ستَّة ملايين. أمران فقط في ازديادٍ مضطرد: الضحايا والفقر. الأمر لا يشبه هيروشيما تمامًا، أعني فيما يخصُّ هيروشيما ثمَّة أمرٌ أساسيٌّ واضحٌ متَّفقٌ عليه: الولايات المتَّحدة الأميركيَّة قصفت بقنبلةٍ ذريَّةٍ / نوويَّةٍ مدينتيْن يابانيَّتيْن. في سوريَّة الأمر مختلف، لم يتوقَّف القصف، وازداد عدد من يقصف، لقد تعقَّد الأمر، فقد قصفنا أنفسنا، بدا الأمر أشبه بغزوٍ وطنيّ، وقصفتنا بلادٌ أخرى مباشرةً أو وفقًا لموضة اليوم، أعني قصفتنا بالوكالة، ونلنا أيضًا نصيبنا من القصف الأميركي. لكنَّ المقصوفين كانوا وما زالوا سوريِّين على الدوام. وأفضِّل ألَّا أتحدَّث عن الأمر. سقطت قذائف كثيرةٌ في دمشق، تهدَّمت نصف حلب، وكذلك حمص، وتدمر والرقَّة. المدن الصَّغيرة حول دمشق، حيث كانت الأشجار في ما مضى كثيفةً وكثيرة، تهدَّمت

كلُّها تقريبًا. كذلك في دير الزور، المدينة الواقعة على نهر الفرات. لو كانت أمامي الآن خريطةٌ لسوريَّة لبيَّنتُ لك كلَّ الأماكن التي تهدَّمت، ومنظرها يشبه هيروشيما لكن بمقاسٍ أكبر. أفضِّل ألَّا أتحدَّث عن الأمر، فهو صعبٌ جدًّا وقاس، ويشعرني كما لو أنَّني ... لا أعرف كيف أقول، أعني ثمَّة شرخٌ كبيرٌ في المجتمع وكراهية، أفضِّل ألَّا أتحدث عن الأمر. لقد تقاتل السوريُّون، قُتلوا وقتلوا أيضًا، أعني نحن السوريِّين... الأمر لم يتوقَّف بعد، لا أعلم ما سيحدث، لا أعلم إن كان ثمَّة أسوأ ممَّا حدث في سوريَّة. لا أظنُّ ثمَّة أسوأ. أفضِّل ألَّا أتحدَّث عن الأمر. في يوم، كنت في القابون، مدينةٌ صغيرةٌ أو ربَّما بلدةٌ إن شئت، لصق دمشق. رأيت شيئًا لا يصدَّق. البنايات كلُّها كانت متهدِّمةً تقريبًا. كنت قد ذهبت إلى القابون لأجل أمرٍ يبدو الآن سخيفًا، مثل الخزف. كنت أحضِّر بحثًا عن تفرُّعات النهر. تاريخ تغطية أحد فروعه، وأين كان يمرّ، وماذا بُنِيَ في المكان، إلخ. رأيت شيئًا لا يصدَّق. كان الهواء لا أعرف كيف أصفه، أعني رائحته رائحة الموت بالطبع، لكن لونه ووطأته كانا غريبيْن. أقصد أنَّ كلَّ تفصيلٍ صغيرٍ يرتبط بالحرب، فيصير الهواء هواء حربٍ أيضًا. سمعت صوت رجلٍ يقول لي وأنا أنحني عند بعض الحجارة، بقايا قديمةٍ ربَّما، لا أعرف إن كانت قديمةً فقد اختلطت الأمور. قال الرجل إنَّ ثمَّة قناصٌ وإنَّ عليَّ الابتعاد فورًا. لا أعرف كيف صرت أركض مع الرجل الذي لا أعرفه، وصلنا إلى ما يشبه الساحة. لم تكن ساحةً تمامًا بل فراغًا صغيرًا تحوطه بناياتٌ مهدَّمة. كان الرجل يريدني أن أتبعه إلى شارعٍ خلفيٍّ أو ما شابه، لكنِّي تسمَّرت مجدَّدًا حين رأيت أطفالًا يركلون رأسًا مقطوعةً كما لو كانت كرة قدم. لا أقصد أنَّ الأمور كلَّها على هذا النحو، لكن لا

أعرف، أفضّل ألّا أتحدّث في الأمر. لا أظنّني من الناجين ولا الضحايا. كان ثمّة قريبٌ لنا، ضابطٌ في الجيش، ربّما رتبةُ أخرى، لا أعرف. أتذكّر تمامًا كيف كنّا ننظر إليه مشدوهين ونقول لا بدَّ إنَّ خللًا أصابه ليتفوّه بكلِّ هذه الأمور غير المعقولة. كان يقول مثلًا إنَّ المتظاهرين السلميِّين يتحرَّكون بأوامر من الخارج، وإنَّ نشرة أخبار قناة الجزيرة حافلةٌ بإشاراتٍ سرِّيَّةٍ لإرشادهم، أشياء من هذا القبيل. كنّا نتركه يتكلَّم، ففي مرَّةٍ جرَّب أخي مناقشته، وكان الأمر أشبه بالكارثة، خفنا أن يُعتقل أخي ويختفي إثر ذلك. لم نَعُد نرى قريبنا، لكنّه، منذ قرابة سنتيْن، جاء يزور أهلي، وبدا منكسرًا لكنّه لم يتوقّف عن أحاديثه التي لا تصدَّق، المفارقة أنَّ بعض حديثه يبدو اليوم منطقيًّا. تفرَّجتُ على كلِّ شيءٍ من وراء شاشة الأخبار، لم أكن أجرؤ على الذهاب إلى الحرب، لكنّها كانت تأتي إليَّ كلَّ يوم، ليلًا نهارًا. إلى اليوم ما زلت أسمع صراخ أصدقاء وناسٍ أعرفهم وأسمع بكاءهم؛ كانوا قد فقدوا أحبّاءهم قتلًا وقصفًا وخطفًا واعتقالًا وبكلِّ الطرق. الصراخ وحده هو ما أصدِّقه، فالأمور اختلطت على نحوٍ فائق التَّعقيد. ما تراه على الشاشة في نشرة الأخبار لا يفسِّر ولا يشرح شيئًا ممّا جرى. ولو عدت إلى نشرة أخبارٍ قديمةٍ من عام 2014 مثلًا، لبدت النشرة مثل الأخبار الكاذبة، لا بمعنى أنَّها أخبارٌ كاذبةٌ مثل التعبير الرائج حاليًا، بل هي ببساطةٍ لا تصدَّق لأسبابٍ كثيرة، وحين تبدأ في التأمُّل والتَّفكير ومحاولة الفهم ستجد نفسك غاضبًا على الأقل. لا ليست هذه الكلمة التي قصدتها، أعني لا توجد كلمةٌ تصف مشاعري حيال ما جرى، كلمةٌ واحدةٌ لوصف الحبِّ والكراهية، الحزن والتحطُّم والانكسار والأسى والحسرة، وفوق هذا أنت واعٍ أنَّ

ما حصل لا يمكن لشيء أن يصلحه، لا علاج ولا حلّ. مرَّ زمنٌ طويلٌ ونحن نتخبَّط في سوريَّة المدماة، ولا يبدو أنَّ الأمر سينتهي. الأمر مثل اللَّحظة الأولى بعد قصف هيروشيما، لكنَّها لحظةٌ ما زالت تتمدَّد وتطول منذ سنوات، ويصعب تحديد أيِّ شيءٍ خلا الضحايا السوريِّين وفقرهم. أعتذر، لم أكن أريد التحدُّث في الأمر».

كنت أرتشف النبيذ وأنا صامتة، لم أكن متأكِّدةً إن كنت قد ثرثرت إلى هذا الحدِّ مع تاماكي أم تخيَّلت ذلك. كانت عيناي تنوسان تحت الأضواء الخفيفة، فلم أنتبه للنادل ولا سمعت ما يقول. تحت الضوء الشاحب رأيت الساعة في معصمه تلمع وتقوِّي لمعان السكاكين، يلمُّها من الصحون ويبتعد. أحسست هواء المطعم اليابانيِّ ثقيلًا جدًّا. منظر تاماكي رجَّح لي في ذهني المشوَّش أنَّني ما توقَّفت عن الكلام، فقد بدا وكأنَّ شيئًا نزل فوقه، بدت عيناه ذائبتيْن مثل الساعات الذابلة في لوحة سلفادور دالي، وبدت ابتسامته شبه متكلِّفة، كأنَّه لا يودُّ الابتسام. ارتشف صامتًا مشروبه الكحوليَّ «الساكي»، ثمَّ قال لي فجأةً: «لم أكن أعرف الكثير عمَّا جرى في بلدك، قرأت بعض المقالات. لكنِّي حين رأيت الصور، قفزت هيروشيما فورًا إلى بالي. كان عليَّ ألَّا أذكر هيروشيما في هذه اللَّيلة المقمرة. في اليابان نحتفل بالقمر في الخريف، نسمِّيه «قمر الحصاد»، كان من الأفضل لو أنَّني حدَّثتك عن القمر بدلًا من هيروشيما، أو ربَّما عن الخزف».

ابتسمتُ تقريبًا رغمًا عنِّي، كنتُ شاردةً في ما قلته أو ما تخيَّلت نفسي قلته لتاماكي، كدتُ أسأله إن اعتذرت في نهاية حديثي، لكنِّي لم أفعل.

خرجنا معًا من «دار اليابان»، مشينا قليلًا ثمَّ قلت إنِّي سأنتظر الباص، فأجابني إنَّه سينتظره معي، وضع يديْه في جيبيه وابتسم. ابتسمت وسمعت ثرثرتي في سماء اللَّيل مخبِّرةً هذه المرَّة عن كتاب قمُّور، عن صورتها التي وجدتها في أحد الكتب وعن ريتشارد، عن دمشق المسفوحة وركامها. كلماتي شبه مخمورةٍ تأنَّت طويلًا في وصف القنصل البريطانيِّ الذي حفظت سيرته عن ظهر قلب. امتدَّت الكلمات واستطالت خيوطًا راحت تتشابك وتتشابك، تقرُّب تاماكي منِّي ثمَّ تبعده.

حين صعدت الباص وحدي ثمَّ دخلت مسكني الصَّغير وحدي، رحت أفكِّر كم من السَّهل الوقوع في الحبّ.

* * *

نظرت في شاشة الهاتف المحمول، ووجدت مكالمةً غير مستلمةٍ من مايا، فأرسلت لها رسالةً قصيرة. ظهر الخطّان التركوازيّان، ورنَّ المحمول وجاء صوت مايا المرح، تُحدِّثني عن مشوارٍ ليوميْن إلى الجبال قرب الساحل في وادي جنَّة. ترنُّ في رأسي جملةٌ ردَّدتها ثلاث مرَّاتٍ وأكثر: «مناظر بتاخد العقل، بتطير العقل. مو معقول شو حلو، كأنَّك مو بسوريَّة كأنَّك بأوروبا. بيجنِّن عن جدّ، ما كأنَّك بسوريَّة».

أتمدَّد في السَّرير وأفكِّر بكلام مايا، كأنَّ قبح المكان قاعدةٌ وجماله استثناءٌ ومستعارٌ أيضًا. أترجم الكلام للإنكليزيَّة، أغيِّر جغرافيَّته وأتخيَّل نفسي أردِّد لتاماكي: «جمالٌ منقطعُ النظير، كأنَّك لست في إنكلترا». أتحزَّر ردَّ فعله على جملةٍ عجيبةٍ كهذه، ثمَّ أنتبه إلى أنَّ تاماكي يابانيٌّ وأنا سوريَّة، وأنَّ كلامًا مماثلًا لا يكون إلَّا بين سوريَّيْن. ابتسمت وحدي في العتمة اللندنيَّة، جلست في السرير، تناولت سيجارة، أشعلتها، وفي ضوء بصَّتها رأيت الشام جمرةً تتقلَّب.

بصَّة الجمرة تنخر كتفي ولا تحرقها، كأنَّها تغوص فيها أو تمسِّدها. رأيت يد تاماكي تمتدُّ نحوي، فأخفضت بصري ونظرتُني عارية. لم أره حين رفعت عينيّ، بل رأيت عينيْن زرقاويْن ثمَّ صارتا خضراويْن، وقبل أن أفكِّر، انداحت الكلمات المرئيَّة بكلِّ تدرُّجات الأزرق والأخضر. ارتفعت

حرارتي فلم أستطع التفوُّه ولا بكلمة. ثمَّ كما لو أنَّني أردت وصف الألوان المتشابكة وتدرُّجاتها اللامتناهية، لكنِّي لم أفعل. حفَّ شاربان كثيفان كتفي، ورأيت ريتشارد ممسكًا طائرًا عاجيَّ اللَّون، تكاد عظامه الدَّقيقة أن تشفَّ تحت ريشه كما يشفُّ الحرير. أردت أن أقترح عليه تخفيف قبضته، وما إن مرَّت الفكرة في خاطري المتماوج بحرارته، حتَّى راح القنصل البريطانيُّ ينتف ريش الطير الصَّغير. نظرت إلى الأرض تحت قدمي ريتشارد الحمراويْن، أردت أن أقول شيئًا، لكنِّي لم أفعل فقد خطفتني تلك الرُّسوم الغريبة لأنصاف بشرٍ عراة. الأنصاف السُّفليَّة فحسب. تناثرت الأوراق ذات اللَّون اللؤلؤيّ، وبدت رسوماتها الدَّاكنة واضحةً ودقيقةً كأنَّها تنبض. ثمَّ كما لو أنِّي رأيت بينها صورة قمُّور بشعرها الطويل، كدتُ أؤكِّد ذلك لنفسي، كدتُ أهزُّ رأسي، لكنِّي لم أفعل. نظرت الرُّسومات تتهاوى صوب قدمي ريتشارد الحمراويْن، أردت مدَّ يدي لأمسكها، لكنَّها صارت تنزُّ ويسيل منها ما يشبه الدم. لم يكن دمًا حقًّا، إذ راح يتدحرج ويصير حجارة أبنيةٍ متهدِّمةٍ وركام مدنٍ على مدِّ النظر. كما لو أنَّني طرتُ فوق الركام، أو لعلِّي ركبتُ طائرةً صغيرةً مسيَّرة. هناك في الأعالي رحتُ أحدِّق في المدن المهدَّمة. أردت أن أمدَّ يدي لأرفع الركام وأرميه خارج الخارطة، فلم أر خارطة. لكنَّ لفظها كان مرئيًّا على شاشة جهاز تحكُّمٍ صغيرة. مدَّ مروان أصبعه فوق الشاشة مشيرًا. أردت مسك يده لكنَّه اختفى، رأيت نفسي في الرُّكام كما لو أنَّني أبحث عنه. بيديَّ أبعدت حجارًا تشبه الجمر، لعلَّها جمر. رأيت بين الرُّكام كسر خزفٍ أزرق يلمع. فكَّرت بسرقة الخزف المتكسِّر. وحين حفَّ شاربان كثيفان كتفي، ارتفعت حرارتي أكثر ثمَّ رنَّت جملةٌ وحيدةٌ بصوت ريتشارد واضحًا: «لقد كانت عمليَّة ذبحٍ ممتازة».

***

جلست الشمس على مقعد الغيوم في سماء لندن، وأنارتها قليلًا، ثمَّ ضجرت من الجلوس فدارت فوق مسارها وجرَّت خلفها الضوء الأصفر القويّ، تركت بقعًا ضوئيَّةً خفيفةً وانصرفت.

لم أنظر إلى السَّماء اللندنيَّة لأتفقَّد الشمس، فالنور الشاحب خبَّرني عن ضجرها وذكَّرني بدسِّ مظلَّتي الصَّغيرة في حقيبتي. خرجت من البيت مُسرعةً لأهرب من حلمي ولأنَّ الباص سيصل بعد دقيقةٍ وستٍّ وثلاثين ثانية، ولو لم ألحقه، لاضطررت إلى انتظار الذي بعده سبع دقائق وإحدى عشرة ثانية. يبدو أنَّ لندن درَّبتني على نحوٍ ممتاز، فقد وصلتُ قبل موعدي مع الأستاذ أوين بإحدى عشرة دقيقة وخمس ثوان.

بانتظار الموعد، أخرجت مفكِّرتي الصَّغيرة، ونظرت في التاريخ الذي وضعت عليه علامة حمراء: السفر ـ الرابع عشر من حزيران 2017. فتحت هاتفي المحمول ونقرت إيقونة الـ Notes ، ودوَّنت قائمةً بما عليَّ عمله، ربطت بعض الأمور بتطبيق التقويم. فتحت حقيبتي وأخرجت منها الكتاب الأزرق ونسخةً ورقيَّةً لترجمته بغلافٍ ابتكرته ورسمته يدويًّا بألوانٍ مائيَّةٍ زرقاء وخضراء.

طرقت الباب وانتظرت الصوت المرح يأذن لي بالدخول. ثمَّ سمعت صوت دعسات الأستاذ الذي لا يطيق التكلُّف: «سعيدٌ برؤيتك، وسعيدٌ بإيميلك. يبدو أنَّ لندن تعاملك جيِّدًا، تبدين بخير كما أرجو». أجبت: «أنا بخير وأتمنَّى أن تكون بخير أيضًا. أتوق لمعرفة رأيك بالتعليقات التي كتبتها عن ترجمة الكتاب».

ـ «ليست الترجمة من اختصاصي، لكنَّ عملك بـ «تصرُّفٍ شديد» كما كتبت في إيميلك، يثير فضولي. يخيَّل إليَّ أنَّك قمت بعمل المحرِّر أيضًا». توقَّف أوين قليلًا وقال بعربيَّةٍ لا تشوبها لكنةٌ أجنبيَّة: «اشتغلت كأنّو تحقيق مو ترجمة، وأكتر كأنّو إعادة كتابة... في إضافات مو هيك؟».

تناولت من حقيبتي الكتاب الأزرق وضعته على المكتب، وقلت ما حضَّرت سلفًا في ذهني: «صحيح، كانت ترجمتي الأولى مقبولة، لكنَّ قائمة الكتب التاريخيَّة التي أرسلتها لي، سمحت لي برؤية الأمور في سياقها التاريخيّ، وبما أنَّها استندت إلى كتب شهود العيان كان لا بدَّ من العودة إليها وإلى كتب الشعر أيضًا. فضلًا عن كتبٍ أخرى تتعلَّق بالمهن وتلك المجموعة الكبيرة من سيَر ريتشارد بورتون. صار كلُّ كتابٍ يقود إلى كتابٍ آخر. جمعت معلوماتٍ كثيرة، فقرَّرت إعادة الترجمة بتصرُّف شديد. أستطيع الآن فهرسة الكتاب بدقَّة، سأقترح الكلمات المفتاحيَّة على أمينة المكتبة».

«لا ريب أنَّ الأمر سيعجبها، السيِّدة تومسون، أمينة مكتبةٍ قديرةٌ كأنَّها تنتمي إلى الزمن الإمبراطوريّ. أقدِّر مقدراتك البحثيَّة زينة، وتجب الاستفادة من ذلك. لكنَّ ما قلته لي توًّا يبدو روايةً رسميَّة. لا بدَّ أنَّك مثلي أعجبت بقمُّور، و..»

قاطعت أستاذي من دون أن أعتذر: «أكثر من إعجاب. لم أطق فكرة أنَّها حُرمت من وضع اسمها على كتابها بعد كلِّ تلك السنين وكلِّ ذلك الجهد الذي بذلته، لذلك فعلتُ أمرًا آخر، كاتبتُ دار النشر البيروتيَّة واقترحتُ وضع اسمها قمُّور فتَّال ببنط أعرض من عنوان الكتاب نفسه». ابتسم أوين: «لا تنسي هي امرأةٌ استثنائيَّةٌ صحيح، لكنَّها تبقى امرأةً من القرن التاسع عشر. فيما يخصُّ دار النشر، ربَّما يكون لاقتراحك حظٌّ كبير» نظر إلى ساعته وأردف: «إنَّه وقت استراحة الغذاء، ما رأيك في المطعم الهنديِّ القريب؟».

في المطعم الهنديِّ جلسنا في مقعديْن متقابليْن، بينهما طاولةٌ صغيرة. الصحون الصَّغيرة متواضعة الصنع حفلت بطعامٍ ملوَّنٍ مثل كرنفال يشي بألوانٍ فاقعةٍ وكثيرة التذهيب. لخيوط القصب الهنديَّة سحرٌ أصيل، فقد غزلت حولنا أنا وأوين شرنقةً سينمائيَّة، وزيَّنت المشهد بطيفيْن: قمُّور وريتشارد.

كان ريتشارد مُمسكًا بمسبحةٍ صُنِعت خصِّيصًا له، حبَّاتها من عظامٍ بشريَّةٍ حقيقيَّة، ويبدو عليه الغضب الشديد. أمَّا قمُّور، فرمشت بعينيْن زعلانتيْن وتحدَّثت بهما عمَّا رأته في ذلك المساء البعيد في البطريركيَّة الكاثوليكيَّة في دمشق. كانت تقف على يمين حنَّا بخطوةٍ متراجعة، وتتأمَّله يتلقَّى التهاني عن كتابها مسرورًا من دون أن تنبس بكلمة. شدَّت بيدها على مسبحتها اللؤلؤيَّة ورأت على غلاف كتابها العنوان الذي كتبه حنَّا «ما صار في الشام حين غاب عنها السلام». لم ترَ اسمها قمُّور فتَّال، ولعلَّها استحت أن تسأل حتَّى نفسها: أين اسمي؟ قرأت بدلًا منه اسم زوجها ببنط عريض: حنَّا المسك، وفوقه جملةٌ غير معقولةٍ بالبنط الصَّغير «قرينة ترجمان القنصليَّة البريطانيَّة

سابقًا»، فما وجدت من الكتاب المقدَّس كلماتٍ لتردَّ عن روحها كلَّ هذا الأذى.

كنت أراها قربي تمرِّر أظافرها على حاجبها الأسود ولا تقول شيئًا. وريتشارد يكرِّر جملًا غير مفهومةٍ عن الاسم. الاسم عامَّة؟ أم اسم قمُّور؟ أم أسماء قتلى باب توما؟ لم أفهم شيئًا من كلماته الواقفة في برزخٍ لغويٍّ بين لغة الضاد ولغة شكسبير. كان يشدُّ على الرَّاء الإنكليزيَّة الغائبة عادة، ويلطِّف القاف العربيَّة لتصير غير مسموعةٍ مثل حرف الـ K ملتصقًا بحرف النون في فعل المعرفة الإنكليزيّ.

سألني الأستاذ إن كنت تخيَّلتُ المشهد، فرمشت واستفسرت: «أيُّ مشهد؟»، فأجاب: «هذا البريكسِت المدوِّي». لم أعتذر عن شرودي، أمسكت دفَّة النقاش وتابعت شؤون الإنكليز.

مرَّت الدقائق الثلاثون لاستراحة الغذاء بسرعةٍ لندنيَّة، وطارت بلمح البصر في المطعم الهنديّ. حين ودَّعت أستاذي بقيت كلماته عالقةً في ذهني عن وجوب الاتِّجاه إلى البحث العلميّ، وأنَّ ملاحظاتي الدَّقيقة عن القيشانيِّ كما وردت في الكتاب الأزرق تنمُّ عن حساسيَّة «معماريَّة» بتعبيره. وعد بإرسال قوائم جديدةٍ لمنحاتٍ إنكليزيَّةٍ أخرى، واقترح أنَّ أفكِّر بالأمر حين أعود إلى الشام بعد إجازتي القصيرة.

***

كم هو ثقيلٌ قلبي، أضع راحتي عليه وأنا أدرك أنَّ أسبوعًا مرَّ ولم يتَّصل بي مروان ولا فعلت أنا. جلست في حديقة كنيسة تورنهام غرين القوطيَّة تحت شجرة الكرز فوق مقعدٍ خشبيٍّ وتخيَّلت مروانًا يصغي إليَّ وأنا أصف الكنيسة ذات الأحجار البازلتيَّة السَّوداء المؤطَّرة بأحجارٍ عاجيَّة، وأنتبه فجأةً لغرابة الأمر، وأتصوَّرني أقول له شيئًا عن تشابه أحجارها البازلتيَّة مع الأحجار البازلتيَّة في مدرسة طفولتي في الشام، قبل أن أتابع وصف الكنيسة القوطيَّة. لم يكن مروان يصغي إليَّ، كان يقلِّب هاتفه المحمول ويقول إنَّ علينا الخروج من حديقة الكنيسة واجتياز الشارع ليرى إن كان ممكنًا أن يشتري من المتجر الزجاجيِّ في الطرف المقابل هاتفًا محمولًا جديدًا يتَّسع لكلِّ التطبيقات التي تعجبه، ليهوِّن عليه مشقَّات حياةٍ لندنيَّةٍ متخيَّلةٍ بالنقر البسيط غير آبهٍ لانتهاكها خصوصيَّته بمرح، إذ كان توَّاقًا للعيش في خضم «أنترنت الأشياء»، يكاد لا يطيق صبرًا بانتظار الـ 5G.

نقرت نقرةً بسيطةً على مشهدنا تحت شجرة الكرز، فحملني تطبيق هندسة عمارةٍ سحريٌّ وحدي من الكنيسة القوطيَّة إلى التيمز اللندنيّ.

إنَّ شيئًا في لندن لن يعادل جمال هذا النهر في مدِّه وجزره في النهار الواحد. إذ يفيض يغدو عظيمًا كنيل مصر، وإذ يغيض يبدو فقيرًا

كبردى دمشق. كنت جالسةً عند حافَّة النهر في عصرٍ لندنيٍّ حارٍّ على غير عادة الطقس اللندنيّ، أنتظر الماء ليصعد أكثر وبسرعةٍ لكنَّه أبطأ من صبري عليه. لمحت مركبًا أو تخيَّلته، لحظةً وحملني على إيقاع خرير النهر اللندنيِّ العجيب، نهر «الأواني المستطرقة» كما أسميته. دوران المجدافيْن الرَّفيعيْن إذ يحفُّ بهما ماء النهر اللندنيِّ يغمر سمعي وحواسي، يأخذني بالتلابيب. كنت على أصوات الماء محمولة، أرى مركبًا في الخيال ووهمًا عاطفيًّا، أرى طيفًا بعينيْن آسيويَّتيْن، إذ لا شيء يعادل شمسًا واخزةً ونهرًا صامتًا لتنهمر الذكريات.

كنت أفكِّر بإجازتي القصيرة المرتقبة، سأفرح لرؤية مايا وسأقنط بسبب مروان. ربَّما يحدس بمجيئي، ربَّما يفكِّر بي الآن كما أفكِّر به. أتناول من ذاكرتي أحد الأمثال السوريَّة التي جمعها حنَّا المسك، ونسختها قمُّور، ونشرها ريتشارد باسمه: «إن انعاق مرسالك استبشر فيه»، وأفكِّر كم أكره الانتظار.

أصحو وأنظر إلى السماء فأجدها إنكليزيَّة، أنظر إلى الغيوم فأجدها إنكليزيَّة، الأشجار والأزهار وطيور العقعق كلُّها إنكليزيَّةٌ ترفل في هواء الإمبراطوريَّة. وأنا أنتشل نفسي من السَّرير ببطءٍ لأطرد من ذهني التَّعليق الصباحي الأوَّل الذي أقوله لنفسي: «أين أنا؟ ماذا أفعل هنا؟»، فلا أحد هنا في الصباح الإنكليزيِّ سواي أنا ونثرات حلمٍ مرهق، مائيِّ الصوت، عاطفيِّ الوطأة، متلاشٍ كخزفٍ يابانيٍّ رقيق.

***

أرتدي ثيابي على عجلٍ في يوم الأحد، لأبدِّد الحلم الثقيل. أستقلُّ الميترو الأخفَّ زحمةً قليلًا من عادته لأقطع لندن من غربها إلى جنوبها الشرقيّ. في محطَّات الميترو أتسلَّى بعدِّ الكاميرات وقياس المسافة بينها. وأتخيَّل الحيَّ فوقي وفوق المحطَّة، وأحسب عدد الكاميرات، أتصوَّرها تتعقَّب خطوي كمحقِّقٍ علنيٍّ ذي رخصةٍ رسميَّة. أتسلَّى بالقول لنفسي إن أمر تلك المراقبة متوقَّعٌ في بلادٍ أنجبت جورج أورويل، وأزيد في الأمر، الذكاء الاصطناعيُّ سيزيد المراقبة، ومن يدري؟ قد تصير الأحلام مراقبةً أيضًا، وقد يُخترع تطبيقٌ لتفسيرها، فأنقر على هاتفي المحمول لأفهم أمر النهر اللندنيِّ في منامي العاطفيّ.

أقرع جرس الباب النيليّ وأنتظر فتحه، فيأتي الصوت المصريُّ المطمئِن: «أهلًا يا أستاذة زينة»، يتبعه صوتٌ إنكليزيٌّ رقيق النبر: «ها أنت هنا، لقد اشتقنا لك». صلحي وزوجته الجميلة باربرا واقفين في الباب النيليّ. أدخل البيت الدافئ وكلِّي اطمئنان. أرى المتعة تنتظرني جالسةً على أحد المقاعد، فلا أكفُّ عن الابتسام. منذ عرفت الدكتور صلحي أستاذ الأدب العربيِّ المعاصر في الـ SOAS، تغيَّرت لندن من نمرٍ إمبراطوريٍّ يُدرِّس الطاووس أصول الخجل، إلى قطَّةٍ أليفةٍ تخرخر

ولا تأنف من الترويض. وحين عرَّفني إلى زوجته باربارا، صارت لندن زهرة نباتٍ يُعطِّر أطيب نبيذ.

الأحاديث والمشاوير معهما تتمشَّى في كلِّ لندن الثقافيَّة يدًا بيدٍ مع رقَّة الإحساس ونبل الاحترام. أخبِّر الزوجيْن عن كلِّ ما يحدث معي؛ عمَّا أقرأه، عن الأستاذ أوين، عن دراستي للقيشانيّ، عن ترجمتي لكتاب قمُّور، وعن مروان بالطبع، وبالطبع أيضًا كلماتٌ متناثرةٌ عن اليابان. أثرثر بتأنٍ وعلى مهل، وهذا غريب. ثمَّ أصغي للجمل التي لا تبدأ إلَّا بـ «أظنّ، أعتقد، أقترح»، قبل أن تنهمر المعرفة بعوالم شتَّى، فأرى زيادةً عن لندن، مصر وأهلها. ثمَّ أجد احتمالاتٍ لا تخطر على البال مسفوحةً في المدينة الغنِّيَّة القويَّة.

كنَّا جالسين في الدفء، والدكتور صلحي يُخبرني عن تلك الفتحات الموجودة أمام البيوت اللندنيَّة التي توحي بأنَّها طالعةٌ من سلسلة الـ Ladybird. يقول إنَّ الفتحات كانت مخصَّصةً لوضع الفحم لتغذية المدافئ الحجريَّة، قبل أن تصير التدفئة تعتمد على تمديد الغاز، ويضيف شيئًا عن منع استعمال المدافئ الحجريَّة في لندن. فأقول: «يعني مشان هيك خف الضباب بمدينة الضباب؟» فيضحك: «اللّـه عليك يا أستاذة زينة». ويتشعَّب الحديث عن لندن مدينة السناجب والعناكب، وتلك الطريقة في تحويل الكنائس القوطيَّة إلى شققٍ حديثة، حيث تُنزع منها كلُّ أشياء المقدَّس المُمكن نزعها: الجداريَّات والأيقونات، والمذبح والصليب، ورخاميَّات التَّعميد والشموع. يُمحى المقدَّس بالوهم، إذ إنَّ عمارة الكنائس بمسقطها وارتفاعاتها ومستوياتها، تُخبِّر عن عتبات مرورٍ من المدنَّس إلى المقدَّس، والسقف بمستوياته يأخذ الناظر صوب النور الإلهيّ. برج الكنيسة وجملونها والشبابيك القوطيَّة ستصير

ديكورًا مفتعلًا لشققٍ جديدةٍ مرتفعة الثمن، كما لو أنَّ الثمن يرتفع ويطير نحو الربّ. كنت أتشارك مع الزوجيْن في الحديث عن عمارة الكنائس، لأكتشف أنَّ معرفتهما العميقة، تدفعني للمزاح حين أستنتج ضاحكة: «أظنُّ أنَّه يمكنني القول إنَّكما ربَّما كنتما معماريَّيْن في حياةٍ سابقة».

ثمَّ ببساطةٍ شديدة، قلت: «أحبُّ أن أخبركما أمرًا. لديَّ إجازةٌ قصيرة، وأرغب بتمضيتها في الشام، لأفكِّر بأمريْن: هل أبقى في لندن وأتابع البحث العلميّ؟ لا أعرف. ولا أعرف أيضًا كيف أحلُّ أموري مع مروان».

سبع جملٍ نطقتها، فانفتحت سبع خزاناتٍ من المعرفة والتجربة. كانت كلُّ جملةٍ من صلحي وباربارا تتحرَّك مثل ستارة المسرح، تنضب على اليمين وعلى اليسار، لينقشع المشهد عن أصول التَّفكير قبل اتِّخاذ أيِّ قرار.

***

إن أردت التَّفكير جيِّدًا في لندن، فما عليك إلَّا الهروب صوب إحدى حدائقها الوفيرة، لكنِّي لم أفعل، فقد لاح في بالي قرارٌ يتكوَّن ببطء، ركنته كما تركن المظلَّات، وذهبت إلى مشواري الموعود.

وصل الباص إلى المحطَّة المطلوبة في مورتليك. نزلت أمام حيٍّ لصق سكَّة الميترو والقطارات الحديثة. مشيت خطواتٍ قليلةً لأكتشف أنَّني أغوص فيه وأتوه أكثر، فأخرجت الهاتف المحمول لأنظر في الخريطة الرَّقميَّة تحدِّد لي خطوي. لعلَّ حسِّي بالاتِّجاهات صار ضعيفًا منذ أدمنت الانصياع لتطبيق الـ City mapper، فقد كنت أسير عكس الاتِّجاه المطلوب. درت حول نفسي، وتبعت المطلوب.

لمحت برج كنيسةٍ قوطيَّة، لكنِّي لم ألتفت صوبها. سرت وعيناي على الزفت كما العادة، لا أرفع رأسي إلَّا حين توقظني الروائح، هبَّت رائحة جوريٍّ من حديقة منزلٍ قرميديّ، ترافقها نغمات بيانو. رفعت رأسي وبدأتُ ألتهمُ المكان بعينيّ؛ البيوت كعادتها متلاصقةٌ ومتشابهةٌ إلى حدٍّ غير معقول، تصطفُّ كما لو أنَّها لعبٌ صغيرةٌ متناسلةٌ من زمنٍ مضى. ثمَّ رنَّ في بالي كلام الدكتور صلحي عن أنَّ اختيار القرميد مادَّةً للبناء راج هنا بسبب انخفاض ثمنه وسرعة تدبيره، وأنَّ حريق لندن الشهير دفع أكثر بهذا الاتِّجاه.

اقتربت من البيت الذي تطلع منه نغمات البيانو، واقتربت رائحة الجوريّ منّي أكثر حتّى كدتُ أتوه بها. كبحتُ الجمال الطالع من حولي بتقطيبةٍ مُحكمةٍ ونهرت نفسي التوّاقة أبدًا إلى المقارنة: مقارنة اللّحظة اللندنيّة باللّحظة الشاميّة، لكنّ نفسي بقيت تثرثر وتتذكّر معهد الموسيقى في حيّ نوري باشا الدمشقيّ وقد نبت فجأةً في رأسي من عطرٍ فوّاحٍ ونغمٍ خفيف. الفرق بين اللّحظتيْن صوت خرير الماء ينساب في تلك الحواري الشاميّة الضيّقة. كان من المُمكن حتّى ثمانينيّات القرن الماضي أن تمرّ سواقي عذبة الماء في بيوت نوري باشا. ما زالت النغمات تسري في الهواء، وما زلت أتلكّأ أمام بيت الموسيقى والجوريّ. درتُ حول نفسي للمرّة الألف، وعدتُ من حيث أتيت.

لحسن الحظّ رأيت سيّدةً لندنيّةً في سبعينيّاتها تمشي على الرّصيف، فاقتربت منها وسألتها: «مرحبًا، هل أنت من هذا الحيّ؟ أتعرفين أين مقبرة مورتليك من فضلك؟» أجابتني: «نعم، أنا من الحيّ. آه المقبرة بعيدةٌ من هنا، عليك المشي لعشرين دقيقة، اتبعي طريق سكّة القطار، وانعطفي يمينًا عند نهاية هذا الطريق، ثمّ شمالًا وبعد ذلك ثمّة طريق عريضٌ إلى اليمين يأخذك للجادّة التي تقسِم المقبرة إلى قسميْن».

كان الجواب المقترح يمتدُّ أبعد من خريطة المكان في الهاتف المحمول، فقلت: «لا أقصد المقبرة تمامًا، بل أقصد ضريح ريتشارد فرانسيس بورتون». ابتسمت السيّدة: «لا، هذا هنا، قريبٌ جدًّا، عودي إلى الوراء وانعطفي شمالًا، ثمّة كنيسةٌ فيها ضريح سير ريتشارد». كدتُ أطير من المفاجأة، ولعلّي طرت حين أضافت إنّها تسكن في المنزل رقم 67، الذي استأجرته إيزابيل لتطلّ يوميًّا من نافذتها على الضريح. شكرتُ المرأة الإنكليزيّة، وما شاركتها أوهامي عن عطر الجوريّة في حديقتها.

امتلأتُ برائحة الجوريِّ ما إن التفتُّ صوب الكنيسة، وفي باحتها أزحت غصن شجرةٍ عن سور القرميد لأرى إطلالة بيت إيزابيل على ضريح ريتشارد. لا صوت في حديقة الكنيسة المهجورة، بل صمتٌ لندنيٌّ يذكِّر بالأشباح وأجواء أغاثا كريستي المهيمنة على كلِّ شيءٍ هنا، المكانُ مسرحُ أبديٌّ لجريمةٍ محنَّطة.

على اللَّوحة النيليَّة قرأتُ اسم الكنيسة القوطيَّة اللندنيَّة: كنيسة مريم المجدليَّة. الكنيسة شبه مهجورة، ولعلَّ وجود القبور في حديقتها منع تحويلها إلى شققٍ سكنيَّةٍ في لندن العجيبة. دخلت حديقتها، ولم أبذل أيَّ جهدٍ في البحث. فالضريح الذي حفظت رسمه من صوره في الإنترنت واضحٌ كما الشمس، أمَّا الأرض التي أخطو فوقها، فتميد ما بين قبورٍ مكسورة، وارتفاعاتٍ وانخفاضاتٍ جرَّاء فعل جذور الأشجار القويَّة. أمشي وأتعثَّر، ولا أنزعج البتَّة، فالدَّرب المهمل يذكِّرني ببلدي والفقر فيه، دروبه تعلو وتنخفض وتميل بسبب الإهمال وسوء الصنعة، وبسبب النهر أيضًا. ففي مدرسة التكيَّة السليمانيَّة تستطيع رأي العين أن تنظر إلى البلاطات الحجريَّة وقد استحالت أمواجًا من حجر، إذ أدَّى سحبُ ماء سرير نهر الشام من تحت مجمَّع يلبغا ـ قيد التنفيذ منذ أكثر من ثلاثين عامًا ـ إلى ذلك. عواميد من حديدٍ ستسند جدران مدرسة التكيَّة لئلَّا تسقط. صار اختلالٌ معماريّ، فالأمواج الحجريَّة كسرت الفصل بين المقدَّس والمدنَّس، ففقدت العتبة وظيفتها وصارت جزءًا من موج الحجر.

أقف أمام ما ليس قبرًا حقًّا، بل ضريحًا ضخمًا على هيئة خيمةٍ عربيَّةٍ هنديَّة ـ إن كان للحضارتيْن أن تتجاورا على نحوٍ مماثل ـ الهلال والصليب ونجمة أريحا تزيِّن الرخام الرَّماديَّ الدَّاكن. وثمَّة سلَّمٌ من

الجهة الخلفيَّة، ارتقيته لأنظر من النافذة إلى داخل الضريح: تابوت ريتشارد وتابوت إيزابيل، ونصبٌ رخاميٌّ يشبه الهيكل فوقه تمثالٌ لمريم العذراء. لوحاتٌ دينيَّةٌ مسيحيَّةٌ وفوانيس عربيَّةٌ وأوعيةٌ معدنيَّةٌ للبخور. كفُّ فاطمة الفضِّيُّ نازلٌ من السقف، وحبالٌ بأجراسٍ تعلو التابوتيْن، مثل التي عادة ما تزيِّن جمال الصحراء. كانت إيزابيل تفتح الضريح الذي صمَّمته وتدخله لتحتفل بذكرى زواجها من ريتشارد الذي توفِّي قبلها بستِّ سنوات، وقد تقصَّدت وضع تلك النافذة لأنَّه كان يكره الأماكن المغلقة، ووضعت أجراس الجمال التي فتنت زوجها وألهمته الشعر: «كلُّ حياةٍ أخرى هي موتُ متَّقد الحياة، عالمٌ لا أحد يقطنه خلا الأشباح / نفسٌ، ريحٌ، رجعٌ، صوتٌ، ورنَّات أجراس جمل».

كنت واقفةً على سلَّم الضريح حين رنَّ هاتفي المحمول، نظرت في شاشته ورأيت اسم مروان. سمعت صوته قويًّا، في نبرته معانٍ غامضةٌ تعاكس ما يقول عن شوقٍ وزعلٍ ولوم. لم أفهم كلماته بسبب سوء الاتِّصال، فطلبت منه إرسال ما يقول كتابةً. قاطعني وفهمت أنَّه سيضع تطبيق الـ VPN. انتظرت قليلًا، ثمَّ أضيئت شاشة المحمول برسالةٍ منه على الواتساب، قرأتُها من دون أن أفتح التطبيق: «زعلان منك كتير، انتظرت تتَّصلي، بس معلش المسامح كريم». لم أُطِق كلماته مكتوبةً وجدتها واخزةً حقًّا. لعلِّي تمنَّيت، وأنا واقفةٌ على سلَّم ضريحٍ إنكليزيّ، كلماتٍ رقيقةً وصوتًا عاشقًا، لأهنَأ بمزاجي الهادئ، وليتوازن الحبُّ بيني وبين مروان. زعلت، فلم أفتح الواتساب. زعلت أكثر فأغلقت هاتفي، ونزلت من سلَّم الضريح.

مشيت باتِّجاه موقف الباص مسرعةً لأنَّ الغيوم تجمَّعت مُنذرةً بمطرٍ في غير موعده. كنت مبتلَّة تقريبًا حين وصلت مسكني الصَّغير.

حضَّرت شايًا غامقًا، وكتبت قائمةً جديدةً مُتمِّمةً للاستعداد للسفر. هفَّت رائحة الطبيعة المبتلَّة مثلي من الشاي والنافذة، فشوَّشتني إذ لم أعلم كيف ذكَّرني الصيف اللندنيُّ غريب الأطوار بالخريف الشاميّ. المطر المُفاجئ، بعد دوام الشمس دوامًا كاملًا في السماء، عطَّر التراب بعبقٍ خفيف. زادت في الأمر جارتي التي لا أعرفها، لعلَّه جارٌ أيضًا. لكنِّي ابتكرت جارةً في خيالي، والسَّبب صوت التَّدريب على البيانو، تدريبٍ لا عزف. تكرارٌ وتلكؤٌ وإعادة. يدان اثنتان تارة، ثمَّ واحدةٌ لتزبط مقطعًا من نوتاتٍ قليلة. اختارت جارة الخيال لهذا المساء اللندنيِّ الحركة الأولى من الباثيتيك لبيتهوفن. بنقراتٍ قليلةٍ على البيانو «شلشتني» كما يُقال بالمحكيَّة. رحت أفعل كما دائمًا: أمنع نفسي من التنفُّس وألصق أذني على الجدار. بنقراتٍ قليلةٍ على البيانو صرت في الشام، في خريفها والوقت بعد الثالثة. غذاءٌ متأخِّر، وقريبتي السَّمراء النحيلة عندنا. أقفز حولها وأنط: «رورو يا رورو اللَّـه يخليك اعزفي الباثيتيك». لكثرة صخبي وإصراري العنيد، وضعت معطفها الأزرق الداكن على أحد الكراسي في غرفة الطعام، ثمَّ جلست أمام البيانو. منعت نفسي من التنفُّس حين بدأت العزف بأناملها الذهبيَّة، وعلا الجمال فوق غيم الخريف الشاميّ.

ما زلت أسمع العزف القادم من جارة الخيال، ومطر لندن السيَّال لا يتوقَّف. أنرت الغرفة وقد هبط المساء ونظرت في هاتفي المحمول، فتحت صفحة مروان على الفيسبوك وقرأت الستاتوس غريب: «رح ودِّع هالمكان الكئيب. الشام صارت تقيلة كتير». أسئلةٌ كثيرةٌ في التعليقات معلَّقة، ولا إجابةً واحدةً تفكُّ الغموض عن الستاتوس.

صار قلبي يدقُّ لأنَّني كثيرة التطيُّر ومتشائمة الخيال. وراحت سيناريوهات المصائب السوريَّة تتجمَّع في رأسي مثل سحب لندن الداكنة، وزاد في الأمر رعدٌ قويٌّ في غير موعده. اتَّصلت بمروان على الواتساب لكنَّه لم يردّ. فبدأتُ ألوم نفسي التي كانت واقفةً ساهيةً لاهيةً على سلَّم ضريحٍ إنكليزيّ. لم أطِق نفسي، فاستنجدت بمايا، اتَّصلت بها وبسرعةٍ سألتها: «شفتي ستاتوس مروان؟»، فأجابت: «لا، موبايلي بدو شحن. شو في؟». خبَّرتُها، وجاءت أجوبتها مبدِّدةً لهواجسي «غير المعقولة». غير معقولة؟ وفي سوريَّة؟ قلتُ لنفسي. صمتت مايا قليلًا قبل أن تقول: «بيجوز زبط السفر معو. هلق بيتصل فيك. بيجوز عمل هيك ليشغل بالك، عادي متل العادة».

لكنَّ الأمور السوريَّة كعادتها ليست عاديَّة، ولا تكون. ومهما تمرَّست الأخبار السيِّئة وتفنَّنت في القهر لن تفقد القدرة على المباغتة، فتنقل المرء بضربةٍ واحدةٍ من حياته المعطوبة والمثقوبة إلى شاشة الأخبار. وقبل الشاشة، ثمَّة الفيسبوك. كنت ملتصقةً به أقلِّب صفحات من أعرفهم ومن لا أعرفهم، وصفحات الأخبار المحلِّيَّة التي نبتت كالفطر على الجانبيْن: داخل سوريَّة وخارجها، لعلَّ وعسى أستشفُّ «الخبر»، فأستعدُّ لتلقِّيه قبل أن يصير مؤكَّدًا ويقصف الحياة، حياتي وحياة كلٍّ من حولي.

لكنَّ محمولي رنَّ، وجاء صوت مروان بنبرته القويَّة البطيئة التي تتصيَّد ردَّ الفعل. أصغيت إليه وأنا أمنع نفسي من التنفُّس: «منيح اتَّصلتِ، أنا منيح... ما قدرت ردّ عليك... كنت بالأوَّل مشغول... حمد للّـه الأمور بخير... شوية مشاكل متل العادة... بس مضت ع خير.... كنت ببيروت... بطريق الرجعة صارت مشاكل... بعدين بخبرك ما

فيني هلق... بس الحمد للّـه، اللّـه ستر ومشي الحال...». كلّما قال مروان جملةً وتوقّف منتظرًا ردًّ فعلي تكلّمت بلهفة: «حمد للّـه.. آه.... بشو؟... حمد للّـه.. شو صار؟.. ببيروت؟.... اللّـه ستر».

لو أنَّ اتِّصالنا الهاتفيَّ هذا دوِّن في سيناريو، لما تعذَّب المخرج حقًّا في تصوُّر الشخصيَّتيْن: أنا ومروان. ولو أنَّني نقلته إلى إحدى مجلَّات علم النَّفس الإنكليزيَّة، لما فاتني وصف نوع شخصيَّتيْنا: مروان وأنا. فمروان حصل على بغيته: نبض قلبي بعنفٍ وانشغال بالي، وقبول طلبه لاجئًا في ألمانيا. يتغيَّر صوت مروان حين يحصل على ما يريد، فيصير خفيفًا محلِّقًا مثل النوارس اللندنيَّة القويَّة، ومن خبط جناحيْه القويَّتيْن تتدفَّق الكلمات: «بعرف شو بدِّي، رح سجِّل بالجامعة، ولو أنّو متأخِّر شوي، مو مشكلة، المهمّ رح أدرس Data science، عم شوف كيف فيني. رح أخلص من هالشغل بها الشركة يلي بلا معنى وما بيجيب حقّو، وما بتعلّم شي، شوفي العالم وين ونحنا وين، طلعت روحي. رح أترك هون». توقَّف وهلةً وأضاف ساخرًا: «مدينة الياسمين بلا معنى».

صحيحٌ لم يَعُد للوصف من معنى، بل إنَّه صار ثقيلًا على السَّمع والقلب والروح لفرط ما صار ينضح بضدِّه، يمدُّ لسانه ويضع سبَّابةً على أرنبة أنفه ويُرقِّص أصابعه الأربع. وصفٌ متجبِّرٌ راج كثيرًا وبصفاقةٍ في السنوات الأخيرة. يكدِّس الوصف أطنانًا من أضداده: انعدام الإحساس، الفقر، اللّامبالاة، التعتير، الإهمال، القذارة، القسوة، عدم الاهتمام، الاهتراء، التجُّبر، وغيرها كثيرٌ ممَّا هو أفدح، وفوق كلِّ هذا الركام، انسداد الأفق بخرسانةٍ ترتفع أعلى من برج لندن.

***

تسارعت الأمور، وركضت الأيَّام المثبَّتة في تقويم هاتفي المحمول. أنجزت ما عليَّ إنجازه، ثبَّتُّ حجز مقعدي في الطائرة المتَّجهة من لندن إلى بيروت، وأشحت الشاب اليابانيَّ من أفقي مُدركةً بحدسٍ غامضٍ أنَّنا سنكون يومًا معًا. نظرت في التقويم ثانية: 15 حزيران 2017، يوم موعدي مع مروان بعد وصولي إلى الشام بيومٍ واحد، و17 حزيران يوم موعد سفر مروان إلى بيروت فألمانيا. فتحت تطبيق الـ Notes ، كي أتأكَّد من التفاصيل الأخيرة التي وفقها سأترك لخيالي مهمَّة التوقُّع. كيف سنلتقي وأين؟ كيف سنتودَّع وأين؟ ثمَّ انتبهت إلى قوَّة السُّؤاليْن وحضورهما الطاغي في حياتي وحياة غيري من السوريِّين. توقُّف الحياةِ عندهما، تلكؤها في برزخ الخروج، فالضباب كثيفٌ يحجب المستقبل قريبًا كان أم بعيدًا مثلما يحجب اللَّون الرَّماديُّ زرقة سماء لندن.

أظنَّني كنت الأولى التي فكَّت حزام الأمان في الطائرة، والأولى التي استعدَّت بترتيبٍ لتجنُّب تدافع المسافرين وطرقهم اللَّامعقولة في إنزال حقائبهم الصَّغيرة من الرفوف البلاستيكيَّة المعلَّقة في سقف الطائرة. ورغم كلِّ الاستعداد جرفني تيَّار الفوضى في طائرة الميدل إيست.

ها أنا خارج المطار الذي وجدته أصغر ممَّا كان، ها أنا في السيَّارة السَّوداء الكبيرة التي ستحملني فورًا إلى الشام. تذكَّرت في بيروت كلَّ ما نسَّتني إيَّاه لندن، الناس تقطع الشارع كيفما اتَّفق، والسيَّارات تسير كيفما اتَّفق، وكلٌّ حرٌّ برمي ما في يده أينما كان، وكلٌّ حرٌّ بما يفعل بواجهة شقَّته، كأن يبدِّل أحجار الشرفة بألواح غرانيت سوداء، وكلٌّ حرٌّ بأن يرصف الوجيبة أمام مطعمه ببلاطٍ مختلفٍ عن بلاط الرصيف الأصليّ. سخرت من نفسي ومن عيني، عين المعماريَّة مع وقف التنفيذ. ولو أنَّ مروانًا يبتكر تطبيقًا يشبه العدسات اللاصقة التي تصحِّح النظر، ألصقها بعيني فأرى المدينة مرتَّبةً كما لا أكفُّ عن التخييل الرغبويّ، ليهنأ أهلها بها، ولكي تتوقَّف أفكاري عن التدفُّق على نحو ما تفعل أفكار مرثا المضطربة، ولأخفي جملةً سينيكيَّةً لمعت كخاطرة: «كلٌّ حرٌّ في التخريب في بلادٍ تأنف من الحريَّة بل حتَّى من لفظها».

كانت السيَّارة تقترب من الحدود السوريَّة، حين صرت أخبر نفسي عن كلِّ ما أرى، كما لو أنَّني مذيعةٌ لنشرة أخبار ساخرةٍ مريرة، قلت لنفسي سأدخل البلاد المصلوبة يوميًّا في نشرات الأخبار. كدت أسخر من قمُّور التي شهِدت مذبحة 1860، وقطعت هذه الطريق مرَّة في الذهاب وأخرى في الإيَّاب. الطريق نفسها، أمَّا المذبحة فليست محصورةً في حيٍّ صغير، بل ممتدَّةً تلتهم البلد برمَّته، كدتُ أسخر منها، لكنِّي لم أفعل.

راحت أفكاري تطفو على سريرٍ من التوتُّر الممتزج بالخوف وأنا في سيَّارة السفر البيروتيَّة، عمَّا قليل أدخل المدينة والصوت كلِّيُّ الحضور يرافق مناظرها. ما عاد مُمكنًا النظر إليها من دون هذا الصوت المسلَّط على رقبتها الواهية. بعيني كنت أرى ثقوبًا لا حصر لها، فالحياة

هنا مثقوبة، كل تفاصيلها مثقوبة، أعرف هذا عن ظهر قلب. أيُّ شيءٍ مهما كان ضئيلًا وتافهًا مثقوبٌ ومعطوب.

لاجتياز الحدود السوريَّة رهبةٌ كبرى، كامتحانٍ للنجاة. تسليم جواز السفر للموظَّف وراء الزجاج المتَّسخ، أقرب إلى معضلة، فهو يمتلك سلطة السُّؤال عن كل ما يخطر في باله، وأنا لا أمتلك أدنى سيطرةٍ على نبض قلبي المتسارع. أتخيَّل الموظَّف البسيط قادرًا على قراءة أفكاري ومحاسبتي عليها وتحديد عقابٍ أيضًا. أقف أمام الحاجز الزجاجيّ، أضع جواز السفر على الحافَّة الداكنة، وأترقَّب ريثما يفتحه الموظَّف. ثواني الترقُّب بطيئةٌ جدًّا، ألهي نفسي بشبك أصابعي. يفتح الموظَّف الجواز بطريقة توحي إنَّها غير مباليَّة، لكنَّه يدقِّق بما كُتِب فيه. أحضِّر أجوبةً عن أسئلةٍ أتخيَّلها تتعلَّق مثلًا بإقامتي اللندنيَّة أو بقيد نفوسي. تتطوَّر الأسئلة وأجوبتها في ذهني إلى حدٍّ غير معقول، فأتصوَّر إجابةً غير معقولةٍ عن إخلاصي لبلدي ودليلي القاطع دراسة القيشانيّ، وعودتي البائسة هذه. أيقظتني خبطة الختم من أفكاري التي تبرِّر باستمرارٍ وبطريقةٍ آليَّةٍ حتَّى النفس الذي أتنفَّسه. لعلَّها عادةٌ سيِّئة، لا أعلم إن كنت اكتسبتها أم ولدت معي.

ثمَّ تبدأ سلسلة الحواجز؛ لمرَّاتٍ ومرَّاتٍ أسمع صوت فتح الغطاء الخلفيّ، ولمرَّاتٍ ومرَّاتٍ أسمع صوت إغلاق الغطاء الخلفيّ، وبين ضجيج صفقات المعدن يأتي صوت السَّائق برنَّةٍ مخصوصة، رنَّةِ من تدرَّب على تأدية دورٍ غامض، على الحافَّة، ما بين التواطؤ والتذَّاكي، ليغطِّي ذلًّا لا مرئيًّا. كلُّ حركةٍ يأتي بها تنضح بذلك، هذه معرفةٌ كسبتها من العدسات المكبِّرة اللندنيَّة التي لا تفارقني. حتَّى جُمَله لحرَّاس الحواجز، تحيَّته لهم، وتلك النكات، بدت لي كلُّها مسبقة الصنع، فكَّرت أنَّه يفعل هذا

يوميًّا لمرَّاتٍ ومرَّات، يفعله بطريقةٍ آليَّة، لعلَّها أيضًا عادةٌ سيِّئة، حين يدرك وطأتها ربَّما يسأل نفسه إن كان قد اكتسبها أم ولدت معه. بعد أربعة حواجز تجرَّأت وسألته: «في كمان حاجز وإلَّا خلص؟».

انتهت الحواجز، فانكشف الطريق واتَّسع. تفرَّجت على الأشجار وقد كبرت قليلًا عن عهدي بها، ابتسمت، ثمَّة حياةٌ غير مثقوبةٍ للنبات على الأقل. أغمضت عينيَّ ودخلت في طقسي الخاصّ: انتظار ما أحب، فأنا ما كنت أنتظر شيئًا إلَّا الوصول إلى تلك الانفراجة بين الهضاب تطلُّ من علوٍّ معقول على الشام الممتدَّة الملوّحة بهوائها الثقيل.

كلَّما اقتربتُ من الشام ثَقُل الهواء، أُشيح بوجهي عن الحواجز فيها، عن الناس المعتَّرة فيها، عن التهديم البادي لا على المباني والأرصفة فحسب، بل على الروح، روح أهلها. قرَّرتُ الترفُّع عمَّا أرى بالوهم والكلمات، ورتَّبت في رأسي الساخن لفرط الزعل مكانًا باردًا لكتابةٍ ذهنيَّة، ورنَّت في بالي جملةٌ قويَّة «كم أنت مضحكة، تكتبين رأيك ببلدك، كم أنت سوريَّة»، كتبت بذهني:

«لم تَعُد المدينة واحةً في الصحراء منذ قرابة ستِّين عامًا، غابت الملبَّسة الغاطسة في غوطتها شبه المندثرة، بين ركام المباني الكثيفة وما تبقَّى من تخطيطٍ مدينيٍّ يفتقر للكثير، حدَّ أنَّ المرء لا يحتاج لنظرةٍ من معماريٍّ يُخبره عمَّا يجب وما لا يجب، وكلُّ سوريٍّ يعرف الأخطاء وحلَّها لا لنباهته، بل بسبب فداحتها. أستعيد ملاحظاتي عن بيروت بطريقةٍ شبه آليَّة، وأرى ألَّا فروقًا كبيرةً في «حريَّة» التخريب المزمنة، وفي النفور المزمن من الحريَّة، بل حتَّى من لفظها الذي صار مدعاةً لسخريةٍ وألمٍ لا يطاقان.

الألم لا يُطاق، والضحايا بعدد الرمل، وهذا الـ «كلّ شيء» الرابض على المكان وأهله، يترك للمشاعر مهمَّة تسخيف الحنين وإطفاء الأمل، ورفع الشعور بالذنب وبالخجل، وإذكاء نار النفور والتعالي لتطفو لغةٌ تقريريَّةٌ باترةٌ وقحةٌ لا تقبل إلَّا أن تكون مفحمةً وعدوانيَّةً وعديمة الإحساس. لغةٌ تتفرَّج وتمضغ العلكة بصفاقةٍ وكلَّما نبَّهْتَها عن ضحيةٍ من أهل المكان، ردَّدت من دون اكتراث: «إيه عادي، لسا ما شفتِ شي». شفتْ الـ «كلّ شيء» وكرهته.

الـ كلّ شيء المعلَّق بين فكَّيْن: «البروباغاندا وأظافرها المتوالدة والرقابة الكلِّيَّة الممارسة بالجمع وبالمفرد. رقابةٌ لا تحتاج زرع كاميراتٍ كما في لندن، وبروباغاندا تنضح من تعليقاتٍ فيسبوكيَّة أتقنت وأعجبت بغسيل الدماغ».

طبع مروان قبلةً طويلةً على رقبتي مساء الخامس عشر من حزيران. استعدت حرارتها حين كنتُ في سريري أفكِّر بكلامه، بحماسته لألمانيا وأنترنت الأشياء، بخياله المتوهِّج يبتكر تطبيقاتٍ لا تُحصى؛ تطبيقٌ لكشف تهكير المحمول، تطبيقٌ لتزييف الصوت فلا تعرفه كورتانا غوغل ولا سيري آيفون ولا أليكسا أمازون، تطبيقٌ لابتكار أقنعةٍ مضلِّلةٍ لتقنية التعرُّف على الوجوه، تطبيقٌ لمحو بصمة العين من كلِّ نقاط الحدود. إلَّا أنَّ تعليقي لم يعجبه حين قلت له إنَّه يريد محو كلِّ أثرٍ نفسيٍّ وروحيٍّ وجسديٍّ لسوريَّة وللرقابة السوريَّة العتيدة عبر الارتماء بالحضن اللندنيِّ المُحكم الذي تصوَّره جورج أورويل. لم يعجبه التَّعليق، ومن بعد ما استفسر عن أورويل، قال إنَّه من الأفضل لي التخلِّي عن البلاطات وأن أعمل عملًا مفيدًا كأن أصمِّم مقابر وأضرحةً سوريَّةً نظرًا إلى وفرة القتلى، وأضاف شيئًا عن وهم العمارة ووهم إعادة

الإعمار، وأضاف أشياء لا أقوى على استرجاعها، لكنَّها تبدَّدت حين وضع ذراعيْه على كتفي لأنظر في وجهه: «اسمعي زينة... خليك عمليَّة.... بعرف أدِّيه بتحبي القيشاني بس هي مو دراسة، وهادا الأستاذ اختار التدريس والبحث بظروف ممتازة. نحنا ظروفنا مو هيك... عملي شي تاني بلندن... لاقي شغل بشي مكتب عمارة... ادرسي شي مُمكن يصير شغل... دراستك هي رح تصير بأفضل الأحوال كتاب... هادا شي مو مفيد... ما في فايدة من الكتب صدقيني... لاقي شغل بلندن.. وأنا بدرس وبشتغل بألمانيا.... منقدر نشوف بعض من دون كل هالرقابة والضغط.... منكون أحرار... شو رأيك بالحريَّة؟».

قلت لمروان إنَّني أريد أن أفكِّر بكلامه، لكنَّه طبع قبلةً طويلةً على رقبتي، وليته لم يفعل. قلت لمروان إنَّني أريد أن أفكِّر بهدوء، وكان أثر قبلته على رقبتي قد طوَّحني.

***

إن أردت التَّفكير جيِّدًا في دمشق، فما عليك سوى الذهاب إلى الشام القديمة، وهكذا فعلت في السادس عشر من حزيران. أنزلني التاكسي أمام باب توما، في الساحة التي بدت أقرب لمرآب سيَّارات. اجتزتُ الساحة غير النظيفة، وحين وصلت إلى فم شارع باب توما، أخفضتُ بصري لأتملَّى الأحجار البازلتيَّة القديمة المرصوفة. أحجارٌ تحبس في ذرَّاتها المتراصَّة وقع سنابك الخيل والعربات. مشيت على الرَّصيف الضيِّق إلى حدٍّ غير معقول، وصرت أتفرَّج على مدينتي من بعد ما قرأت عنها في الكتب التي دلَّني عليها أوين مورغان. أنظر إلى البيوت والبنايات والدكاكين والمقاهي الصَّغيرة، وأنسى كلَّ ملاحظات المعماريَّة. أتنقل من رصيفٍ إلى آخر لأرى بصورةٍ أفضل، أدخل الدكاكين لأثرثر مع الناس. على يميني حارة بولاد، على يساري دير اللَّاتين، أنا أمشي في حيِّ المذبحة القديمة، قلت لنفسي قبل أن انعطف مع انعطافة الطريق. أقف أمام الباب الحديديِّ الأسود الصَّغير، وأقرع الجرس. لم يفتح أحد. أسير خطواتٍ قليلةً لأدلف حارة يوحنَّا أو سفل التلَّة كي أصل الباب الثاني المُغلق. أقرع الجرس، لم يفتح أحد.

بابان مقفلان لمدرسةٍ استثنائيَّةٍ كنت من تلاميذها الصغار. ما كنت أدرك كيف تشرَّبت منها عشق العمارة والشام. أغمضت عينيَّ

أمام باب المدرسة المقفل، وتوهَّمت أنَّني طيرٌ صغيرٌ من النوع المسمَّى عصفور التين، من النوع الذي يؤكل. بلمح البصر اجتزت القسم الحديث، لعلَّه بني في ستينيَّات القرن المنصرم، وصرت في الدهليز.

أمشي في الدَّهليز الرَّفيع بأحجاره البازلتيَّة، وأشمُّ روائح الطفولة، أسمع صوت الجرس النحاسيّ، تدقُّه الراهبة النحيلة ذات الثوب الرماديِّ والصليب بلون الفولاذ. أصل أرض الديار، وبعينيَّ ألمس بحرتها الواسعة الفارغة من الماء، وأطمئنُّ لوجود الأحواض الحجريَّة الأربعة حولها. أريد أن أضمَّ الإيوان وأن أركع تحت أيقونة العذراء الحزينة، لكنَّها لم تَعُد في مكانها، أصلِّي لتحمي بركتها هذا الجمال وإن بهت. أتلفَّت حولي فتنهض كلمات قمُّور في وصف بيت أنطون شاميَّة وتتلألأ بجمالٍ مندثر. مَن نزع ألواح الرخام الصقيل التي كانت تزنِّر جدران البيت كلَّها، فظهرت حجارة البازلت السَّوداء؟ مَن شوَّه الإيوان الصَّغير جهة اليسار وصيَّره مدخلًا صوب أرض الديار؟ مَن أغلق الإيوان الصَّغير جهة اليمين بأبوابٍ خشبيَّة؟ مَن بنى طابقًا إضافيًّا فوق الإيوان الكبير وخلع السيَّاج الحديديَّ المشغول؟ أما زال لغرفة نجَّار المدرسة بابٌ يفضي إلى فسحة توصلك إلى شارع باب توما؟ أما زالت الكنيسة في مكانها قرب الأقواس الرخاميَّة وتحت الشبابيك الملوَّنة؟ أما زالت تطلُّ من الخلف على باحة الصغار؟ أما زال بابها موشومًا بالصدف الوهَّاج المنغمس في خشب الجوز؟ أما زالت الورود الجوريَّة في الأحواض قرب غرفة طعام الراهبات؟ أغمض عينيَّ وأعود طفلةً في السابعة، أتحلَّق مع أصدقائي نؤلِّف دائرةً حول الحوض لنلعب. تعثَّرت ووقعت، ودخلت شوكة الجوريَّة تحت عيني. بلمح البصر كنت على حضن الراهبة، أبهى راهبة: الأخت ألفريد ماري، بيدها ملقطٌ صغيرٌ لتنزع برِقَّة العصافير

الشوكة الواخزة. تتضرَّع للمسيح شاكرةً أنَّ عيني لم تُصَب بالأذى، وأنا أتفلَّت منها بتلكؤٍ ـ فهي مثلي الأعلى ـ لأعود إلى دائرة الطفولة وألعب.

بابان مقفلان لمدرسةٍ استثنائيَّة، ومحمولٌ مغلق. أغلقت المحمول لأفكِّر جيِّدًا، لم أسمع نشرة الأخبار، وما عرفت ما جرى. مشيت في طريق سفل التلَّة، انعطفت إلى الشمال، تعرَّجت مع الزقاقات الناحلة، ومررت أمام دكاكين في داخلها أجهزة تلفاز وأصوات المذيعين تلعلع بالاستنكار. أسرعت الخُطى لئلَّا أسمع شيئًا من نشرة الأخبار. كنت واقفةً أمام مخبز القيمريَّة حين رأيت على الشاشة شريط خبرٍ عاجلٍ يومض بكلماتٍ لم أتبيَّنها، شعَّ اللَّون الأحمر للخبر العاجل. توجَّس قلبي، ونبضت على رقبتي قبلة مروان الطويلة الأخيرة.

أمام الأعمدة الرومانيَّة تلكَّأت قليلًا، ثمَّ مشيت في درب النوفرة، على يميني حيُّ العمارة حيث أمضت قمُّور ليلتها الباكية في بيت الأمير، وفي أفق الطريق باب جيرون. وقفتُ أسفل الدرجات القديمة الواسعة المفضية إليه، ارتقيتها على مهل. عند الفسحة أمامه، رفعت رأسي صوب اليسار لأتملَّى القوس الرومانيَّ وبقايا أعمدةٍ بتيجان كورنثيَّة، تبزغ من ورائها مئذنة عيسى عليه السلام، أو المنارة البيضاء التي منها سينزل ابن مريم كما يعتقد أهل الشام علامةً للقيامة. انعطفتُ جهة القوس، ارتقيت درجاته البازلتيَّة ومشيت تحت ظلِّه. على يساري مقهى شهيرٌ للحكواتيَّة، لعلَّه المقهى الذي جلس فيه القنصل البريطانيُّ مرَّاتٍ ليُمسِرح بلكنته الأجنبيَّة حكايات ألف ليلةٍ وليلة. لمعت في خاطري فكرة تجاور اللَّيالي بمئذنة عيسى والبقايا الرومانيَّة في مشهدٍ شاميٍّ وغير سرياليّ، فابتسمت. ثمَّ انعطفت إلى اليمين ومشيت في سوق القباقبيَّة، في أوَّله عند زاويته اليساريَّة بقايا قصر الخضراء. قيل

إنَّ الأمويِّين فيه اجتمعوا وقرَّروا الذهاب بحرًا لإقامة الأندلس وبناء قصر الحمراء. الدكاكين على شمالي، وعلى يميني الحائط الحجريُّ المقدَّس. أرفع بصري لأتملَّى بقايا صورة المسيح المحفورة في الأعالي، وأتذكَّر ما يروى عن زيارة ليوناردو دي فينشي إلى الشام. قيل إنَّه وقف حيث أقف تمامًا، ومن صورة المسيح الحجريَّة على الحائط المقدَّس، استلهم رسمه في لوحة العشاء الأخير.

أغمض عيني، وأتجاهل حوارًا بين رجليْن عن هاون جديدٍ سقط فوق الشام، وعن شابٍّ ثلاثينيّ، بعمر مروان، سقط قتيلًا. في الفسحة الكبيرة الممتلئة بالناس والحمام الشاميِّ عاينت القوس المكسور والأعمدة الرومانيَّة الباقية. مشيت صوبها لأتأمَّل الانكسار والاندثار، ثمَّ أدرتْ لها ظهري ووقفت بباب المقدَّس.

خلعت صندلي الأزرق، وتناولت عباءةً واسعة، أحكمتها حولي، ومشيت خطوةً واحدة. رفعت بصري صوب السماء الصافية، ورأيت في منظور «فكان نورٌ» الحمامات تطير كما في القصيدة اثنتيْن اثنتيْن. لعلِّي همست بالشعر، ولعلَّ منظري مأخوذةً بنور المقدَّس بدا مضحكًا في عيني رجلٍ يقف في الزاوية. حرَّك الرجل أصابعه الثلاث بنصف دائرةٍ قرب صدغه وابتسم شبه متهكِّم، نظرتُ إليه مُدركةً معنى حركته غير المهذَّبة، كدتُ ألوم الشعر، لكنِّي لم أفعل.

نظرت إلى أفق المقدَّس، وتملَّيت معبدًا رومانيًّا فكنيسةً سوريَّة فمسجدًا أمويًّا. حدَّقت بقوَّة، وبطرف عيني نظرت إلى الرجل المتهكِّم. أرجعت بصري إلى المنظور الأكمل المنير وبصوتٍ مسموعٍ نبرتُ بقوَّة:

A bloody beautiful home, bloody home.

دمشق 2018